BOBST LIBRARY
3 1142 03292 6654

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Wed Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DUE DATE

NYU Repro:159185

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

قهقهة الجزار

6623

Karam, Karam Milḥim

كرم ملحم كرم

Qahqahat al-Jazzār

قهقهة الجزّار

قصّة وتاريخ

S·M·N·R·I·EXTR·REGIS·S·TOUMLILINE·AZROU

مكتبة صادر
بيروت

MAR 21 1985

PJ
7842
.A68
Q3
1951
c.1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة المناهل : ٧٩ – ١٩٥١

الجزء الاول

شريد يبحث عن مأواه

١

القوافل تتلو القوافل الى دير القمر ، عاصمة الشهابيين ، المقتعدة صميم الشوف . فالقوم يتوافدون اليها من الشرق والغرب والشمال والجنوب . من بيروت وصيداء والبقاع ودمشق وقد قامت في منتصف الطريق أشبه بهمزة الوصل بين البحر والصحراء ، بين بيروت الراسية في رمال الشاطىء ودمشق المتوكئة على كثبان البادية

ودير القمر قلب لبنان وقد حفلت بأرباب الامر والجاه . فالحكام فيها . والزعماء ورجال الدين والعلماء والتجار والصنّاع يزدحمون في مغانيها . وأديارها وأسواقها وعرصاتها ملتقى كل رهط . فاستقر بها معظم السلالة الشهابية ، وبنو نكد الدروز ، ووجوه النصارى ، وأحبار اليهود . وارتفع في كبدها الكنيسة والكنيس والجامع والخلوة . فلم تبق طائفة إلاّ شيدت ثمة معالم دينها . وما من حرفة الا اتسعت وازدهرت ونعمت في البلد الرأس بالاقبال

وهؤلاء المندفعون اليها من الضواحي والاقاصي ، على متعـدّد الوجوه والطبقات ، ما خلوا من طالب منصب ، ولا من سائل رفد ، ولا من ملتمس العيش كادحاً يسعى . وماجوا في ساحهـا افواجاً افواجاً بين رجال ونساء واطفال كعصائب النمل . فغصت بهم سبلها وازقتها وحوانيتها . وما من سلعة إلاّ وتباع هناك وتشرى . وما من صعوبة الا وتلقى في المدينة الممراع من يذللها ويروّض حوشيّها فيسلس الحرون

وتنقضي الايام والقوافل لا تنقضي . فهي موصولة الاطراف كأنها سلسلة الأبد . فمن خيل وبغال وجمال وحمير كلها تنوء بأثقالهـا . ومن فرسان ورجالة مدججين بالسلاح كأنهم على وشك ان يخوضوا معركة ذات لهب

والمعارك لا تنطفىء لها نار والقوم ابداً على منافرة . فما ان تهدأ فائرة في الساحل حتى تنشب فتنة في الجبل وقد تنازعت قاعدتان متنافستان ، عكاء ودمشق ، السيطرة على الامارة اللبنانية . فان لم يكن الأمير بجانب دمشق فمن اللزام عليه ان يظاهر عكاء كي يهـدأ له جانب وقد عششت في القلوب بغضاء مزمنة باعثها الاستئثار بالسلطان . وعلى الثاوي بمقعد الامارة اللبنانية ان يعضد بقوة السلاح من يؤيـد من المتنابذين سرمداً . فان يكن ينصر والي عكاء فعليه ان ينازل والي دمشق . واذا حالف دمشق فلا معدى له عن مناكرة عكاء ، والا نزلت به غضبة من يسنده وقد تدحرجه عن السدة اللينة الوطاء

ومن هؤلاء المائلين السبل الى مدينة الامراء ثلاثة من الفرسان اجتازوا ذات يوم من صيف ١٧٧١ نهر الدامور وقد بدا منهم انهم على عياء وحيرة . فهم يسلكون طريقهم الى دير القمر وليسوا يدرون ما يكون نصيبهم منها .

أيلقون فيها عطف أميرها ام يلتوون عنها على اخفاق ؟ ... فما دعاهم اليها ذو الامر والنهي الرابع بغرّتها ، بل انتهجوا عفواً وجهها طمعاً في مناهلها وهم العطاش

وما كانت الألفاظ تتصاعد من شفاههم بسوى بطء وقلق وقد انتابهم البحران . على ان من يجري في الطليعة ابى ان يبدي الجزع مع كل ما في نفسه من كلوم تحدثت عنها اساريره الجهم . فقال ينفخ في رفيقيه العزمة : سنلقى اكرام الامير الشهابي ولا علينا . فمن حدثني عنه بالغ في امتداح المزايا . فالجود طبع في الرجل وهو العريق في المحتد والفضل . والضيافة شعار القوم في هذه الانحاء ومن العار ان يتنكب اللبناني عنها حتى على فقره وضناه !

ولهجتهم دلت على كونهم ليسوا من اللبنانيين . وارتدوا الأعبئة والسراويل . ووضح من امر السائر في النظيرة انه وجه الركب ، وان من يتبعانه من حشمه . على انهما وثقا به كما ظهر من مسيرهما وراءه بلا احجام وقد رسا في لبهما اليقين انه لن يجازف بأيامهما وهو الواسع الحيلة ، السمين الضلع

وتوقلوا في المشارف . واطلوا على غابات الصنوبر المتبسطة في احتلال القمم واهبة لها مرح الاخضرار وعذوبة الظل . وتبينوا عظمة الاودية وقد سالت فيها الأنهار وحملت الى الضفاف الرحمة تنعش بها الحقل وتحيي الفلاّح الواقف عمره على غلة الكرم وريع البستان . وطاب لهم ان يستنشقوا بملء حوانيهم ما نفحتهم به الروائس من هواء نقي رفيق كأنه البلسم قاهر الجراح . وانتفضت في الصدور علالة من امل وقد اقتربوا من

المحج". هذه مرحلتهم الاخيرة الى دير القمر مطعمة الجوعان وكاسية العريان.

ودير القمر لا تبدو للمقبل اليها من الغرب والشمال إلاّ وهو يدوس عتبتها. فغرقت في السفح حتى كادت تلامس الوادي. وخلت من كل منبسط وقد تراكمت في منحدر صلد. فكأن بانيها وقف على هضبة وقبض على حفنة من الحصى ورشق بها المزلق الوعر، فهدأ بعضها عند جذع شجرة، وبعضها عند صخرة، وبعضها عند ساق نبات

وما كان الغرباء الثلاثة المندفعون اليها على مطيّهم ليحتاجوا الى من يرشدهم الى صعيدها والمواكب الجرّارة تطوي اليها المناهج بين مد وجزر. بل ان المد والجزر ليختلطان في مسالكها بين فئة شاخصة الى البلد المغبوط وفئة عائدة منه. وما خفيت عليهم معالمها وكل ما فيها دلهم عليها. ففي شربينها الأخضر أبداً، كأنه منحة الخلود، خير لسان يذيع وجهها الخفيّ. وفي وقار جامعها وصروحها ما ينبىء بأمرها. هذه هي مدينة الامراء، الامراء المعنيين والشهابيين، حاضنة فخر الدين المعني الثاني، وامه «الست» نسب، وأخيه الامير يونس، ونسيبهم الأمير حيدر شهاب، وابنه الامير ملحم، وحفيده الامير يوسف القابض على زمامها، والى رحابة جنابه يدلف الفرسان الثلاثة كأن حماه موئلهم الامين

وبلغوا ساحة النكديين في صدر البلدة وقد ازدحم فيها مشايخ بني نكد الدروز وانصارهم. ومعظمهم من ارباب العمائم البيض، والاعبئة السود، واللحى المالئة الترائب والنحور. ولاح الفرسان الثلاثة للقوم فحدجوهم بعيون مستقصية، كأنهم يرومون الوقوف على ما في جوانح اولئك المختلفين عنهم في الاسارير والمقبلين اليهم في الحاجات. والفضول غريزة جموح.

على ان كثرة المتوافدين الى البلدة صرفت عن الثلاثة العيون والوفود تجرّ الوفود

وتقدموا فاذا بهم بجانب الجامع الرفيع المئذنة ، كأنها خطيب الدهور. ومضت في أعينهم دار الأمير يوسف بقبتها الوارفة وقد اتسع إزاءها ميدان فسيح رُبطت فيه الخيول وسرح الجند . وقامت في الجانب الآخر سطوح الخرج ودار الامير فخر الدين وقيسرية الحرير وقد زخرت بالأنوال وبالحائكين

واين تهدأ جوانبهم في مدينة الامراء المكتنزة اللب ، الزاخرة بالجموع ؟... لم تطل حيرتهم وقد اتجهوا معاً الى خان تحت سطوح الخرج ترجلوا فيه وعهدوا الى صاحبه في امر جيادهم . وبحثوا عن مكان يستقرون به فاذا بهم حيال مقهى يقوم بلصق الخان تحت السطوح نفسها . فعرّجوا عليه يلتمسون الراحة دون ان يثيروا الى زمن طويل الشوق الى مرآهم، والنفاذ الى سرهم ، وفي البلدة من الغرباء حشد جمّ العديد ، يشبع نهمة كل ملحاح الصبوة الى الالمام بجميع ما يعرض له من وجوه وشؤون

وطلبوا القهوة المرّة وأخذوا في تدخين الشبق وهو غليون طويل . وارتفعت اصابعهم تشير الى ما وطد المعنيون من المباني والى ما شيد الشهابيون . واستغنوا عن رائد يعرّفهم المغاني وقد عرفوها لفرط ما سمعوا بها . فكأنهم في دير القمر منذ لاح لهم النور . على انهم لم يمسكوا عن استيضاح خادم المقهى ما أبوا ان يغلق عليهم فأفاض بالجليّ الصريح

وتهادت مواكب الزعماء الى معقل الامير يوسف الشهابي ، حاكم لبنان ، والثلاثة لا يرفعون أنظارهم عن اولئك الراغبين بلجاجة في المثول بين يدي الأمير وكلهم يلتفّ بالعباءة ويعتمّ . واذا لم تختلف الاعبئة بسوى لونها

ونفاستها فقد اختلفت العمائم بعلوها، ولونها، وشكلها. فهناك العمامة العريضة البيضاء وهي عمامة الدروز، والعمامة الخضراء وهي مما حبس الشيعيون على انفسهم، والعمامة المزخرفة او البيضاء الضيقة وهي عمامة السنيين، والعمامة السوداء وقد حفلت بها هامات النصارى واليهود، عدا القلانس وقد تجاذبتها الرؤوس على متعدد المذاهب، والطرابيش المغربية الحمر وهي مشاع لكل مفتون بالزيّ القشيب

ولبد الجميع بدير القمر. فالسنيّ لقي فيها مكانه. والشيعي رحبت به البيئة الخالية من شهوة التعصب للدين. والدرزي رسخ في المقام المنيف. والمسيحي رفع رايته على وافر مياسمه. واليهودي نعم بالمثوى الهنيء

وضحك فجأة عميد الغرباء الثلاثة ضحكة جيّاشة، متسلسلة القهقهة، اهتز لها المقهى وجذبت إلى مطلقها الأبصار. فلقد وقعت عينه على فارس طويل اللبّادة، ناتئها، مديد الرمح، مرخيّ الكمين من صدرة من أسود المخمل ذات أزرار وعقفات مطرّزة، يدفع جواده في الميدان متباهياً بضلاعته. غير أن فرسه سئم هذا الفياش البليد ودفع عنه فارسه فألقى به على وجهه محطم الثنايا، عالي الأنين

ولم تكن السقطة تدعو الى هذه القهقهة الشامتة بمقدار حاجتها الى التلهف والشفقة. ولكن المقهقه، وقد نشر ضحكته الطفحى، مال بالجميع الى مجاراته في السخر بالفارس الهاوي. وودّ القوم ان يعرفوا الضاحك البارع في الاغراق في الكركرة، وإذا به يعرّفهم بنفسه دون أن يجهدهم في الاستيضاح. قال وما زال يضحك: السلام عليكم من اخيكم احمد الجزار!

وألقى يده الى صدره ورفعها الى رأسه وانحنى. ولا بد من هذا التفنن

في التحية وهو سمت مألوف. واشار الى رفيقيه معلناً ببسمة دمثة : وهذا مملوكي سليم. والآخر عبدي ابو الموت!

وفيهم من سمع بهذا الاسم . احمد الجزار . فلقد وعته آذانهم في ما حملت اليهم أنباء وادي النيل . فهو من حلّت به نقمة علي بك والي مصر بعدما كان جلاده . وانتهبته نواظرهم وقد سقط اليهم عنه انه كان يتولى في القاهرة حرفة بتر الرؤوس . واقتربوا منه يحيونه قائلين : وعلى احمد بك الجزار السلام ورحمة الله!

ومنهم من هتف به بمستطيل الاعجاب : مرحباً بمولانا. أي يوم مبارك دفع سيدنا الينا ؟

ولم تكن حرفة الجلاد بالصنعة المستهجنة والعهد عهد اطاحة أرواح وضرب اعناق . فمن يكثر من سفك الدم فهو السيد المرهوب. على ان الجزار ، وما زالت يداه مخضبتين بالنجيع ، خشي ان يدب الهلع الى أفئدة هؤلاء المتدفقين بالايناس فقهقه وساءل نفسه أيدرون بمن يرحبون ؟ . . . وأبى ايلام مهجتهم بشبحه الراعب وقد عرفوه فكشف عن ناحية الممازحة من نفسه قائلاً : ولكني أخوكم لا مولاكم. فما اقبلت اليكم إلاّ فازعاً الى طلاقتكم . ولنتحدث كاخوان تجمعهم المودة . فما رأيكم في هذا الفارس البادي على متن جواده كالطود والمتزحلق عنه كالبطيخة ؟

فغلبت عليهم القهقهة الصيّاحة كأن عدوى الضحك انتشرت فيهم وأمسى كل منهم أشبه بالجزار في مرحه . قال أحمد بك : انتم في هذا البلد من أرباب الحظ وقد تولى امركم حاكم فهّامة كالأمير يوسف الشهابي ، اما أنا فعرفت من الحكام كل غشوم وما انصفني منهم ذو مبرة . فضعت بين علي

بك المطماع ، وأبي الذهب الداهية ، وكلاهما يروم افتراس الآخر . اما وقد عجز بعضهما عن بعض فانقلبا عليّ وكنت كبش المحرقة !

وقهقه كأنه يعالنهم بان شر البلية ما يضحك . وقص عليهم من أخباره ما جنح بهم الى الرأفة به والحدب عليه . فهو مظلوم مع انه على وفر من اخلاص . ولو شاء ان يداهن وأن يراوغ لبلغ المرتبة السامقة . ولكن إباءه تجنى عليه . فرقّ له كل من سمعه . على ان هذا المتضاحك المتباكي لا يقرّ له حال . ففيما يعصر القلوب عطفاً على ما يكابد من جور اذا به يرقص الخناجر في مباسطة خضلة يستلّ بها الضحك حتى من القلب الحزين

واتسعت الحلقة . وتكاثر عشاق الاصغاء الى هذا الحافل بالاضداد . ففي وجهه شباب ، وفي كبده هرم . في نفسه أسى ، وفي فمه قهقهة . في قسامته ثروة من فتون ، وفي جيبه إصفاء . ونعى الى القوم غده . فهو محطم الأمل . انقضى عليه في مصر ثمانية عشر عاماً لم يبسم له فيها الحظ بسمة بريئة من الشائبة مع كل ما تلوّن به من مذاهب وآراء اندفاعاً في ابتغاء الجدوى ، وهو أنى تهب الريح . فلا يبالي ديناً ، ولا يملك إيماناً. نشأ مسيحياً في البوسنة وارتاد استانبول يرجو ان يلقى فيها عوناً . غير ان استانبول لم تقم له وزناً مع جمال طلعته ، وطول قامته ، ولطف حديثه، وقوة عضله ، وسواد شعره ، ومتورد بشرته ، وبيض ثناياه ، وحدة ذكائه ، ولين عوده . فنبذته كأنه المرذول واضطر الى الاشتغال حمّالاً في الميناء كي يعيش

وضاق به جهده وذوى طماحه فيئس من زمنه . لن يبلغ ما يصبو اليه من باذخ الشأن . وساوره الشجن فاضحى خدين الهمّ . وافرط القدر

في القسوة عليه فحدثته نفسه بالارتماء في الرجراج . فلا عليه وقد غاب في اللجج والبحر له ارحب مثوى ، والفناء اطيب قرار

وجلس على الشاطئ يدخن الشبق قبل ان يغيب في الماء . ولكن القدر لم يقل فيه كلمته الفاصلة وما يزال يعدّه لأمد بعيد . فشاء ان يمرّ به يهودي شيخ يتاجر بالرقيق ، فباع الفتى نفسه . ليس يضيره ان يمسي مملوكاً في خدمة من يؤدي ثمنه

وازجاه اليهودي الى مصر وفيها تقاضى بدله . وقضى عليه من اشتراه بان يدين بالاسلام فلم يعترض. انه ليخلع على نفسه كل دين على ان يعيش كما تستطيب شهوته ، سيداً منيف المكانة ، وافر الثراء . وخيل اليه ان المصاعب تداعت وقد أمسى ذلك الجزار الراعب في ولاية مصر ، ونعم برتبة بك. ولكن من فاقوه شأواً رموه بداء الحسد فتعذب، وانكسف باله. هو مملوك في دولة مماليك ، فكيف لا يكون في مصر بمستوى أبي الذهب وليس يرى في هذا الشبيه به في حقارة المنتمى ذا ضلاعة يرجحه ؟ . . . انه ليعادله سعياً وفطانة ، فلماذا يأبى عليه الزمن الوثوب الى حيث تسمو به الكفاية ؟

ووطن النفس على قهر محسوده . لن يبيح لأبي الذهب ان يعلوه أبداً . غير ان ابا الذهب ما فتئ يتسلق الذرى حتى بلغ من الخطر ما يخشى منه على سيده علي بك والي مصر . وشعر الجزار بمنزلة هذا الواثب الى المعالي على مبسوط الأجنحة فكفّ عن مناكرته وتذلل له يرتجي العائدة. ودرّت عليه حرفة فصل الرقاب عن المناكب بالمال الجزيل فحسنت حاله واكتنزت يده . فاشترى الخيول والأسلحة ورحب بالضيوف . شبع وامتلأت عينه .

ولكن النعمة لم تطل . فما دعاه علي بك الى قتل صالح بك ، احد أعوان أبي الذهب وأصدقائه ، حتى احجم مخافة ان يهوي في قبضة أبي الذهب الساحقة . الا ان من خشي منه الجزار تولى بنفسه القضاء على صديقه . فما درى ابو الذهب برغبة سيده في محو صالح بك حتى كان يغدر به استرضاء للوالي الآمر الناهي

وارتعد الجزار وهاله سوء المغبة . وفرّ من مصر محتجباً بملاءة امرأته . وداعاً عهد الأمان والغنى . فكأن السيدين المتباغضين تحالفا على قهره . وهفا الى استانبول يسترحم مولاه السلطان ابن السلطان فلم يظفر بمغنم . فعاد منها الى لبنان طامعاً في نقع الغلة ، وقد خلت قربته حتى من قطرة ماء يبلّ بها ريقه ، فكاد يقضي لفرط الظمإ . الا انه ما ينفك يؤمن بحسن طالعه وقد يأذن الغيث في الأنهار

وما ارتاد دير القمر لسوى يقينه انه فيها بنجوة من علي بك والي مصر . فالأمير يوسف الشهابي يظاهر والي دمشق عثمان باشا الكرجي على سيد القاهرة . وهذه المصارمة بين الواليين حفزت احمد الجزار الى خصم خصمه يسأله في امره ويرتجي ان يلقى لديه العطف والأمان

وحدث المتحلقين عليه في مقهى دير القمر عما اتفق له من جفاء الدهر ، وما دهمه من المحن ، ليروي لهم كيف سخر بعلي بك وهرب من مصر مرتدياً ثوب زوجته . فاوجع وأبرأ . وفتق ورتق . وأضحك وأبكى . وما هما يومان في جدّ ومزاح ، وشكوى وعرام ، حتى شاعت أحاديثه في دير القمر على فضفاض بساطها . ونمي خبره الى الأمير يوسف فأدهشه أن يكون الجزار من ضيوف قاعدة لبنان وألا يبدو في حضرته طالباً سماحه

وارسل يدعوه اليه . وفيما الحلقة تنعقد وقد اتسع مداها بمن سمعوا بالجزار وهبوا الى رؤيته وارهاف آذانهم لمفاكهاته ، وفيما أحمد بك يغالي في امتداح نفسه ، واذاعة مآثره ، ونشر نكاته حتى كادت القدود تنقصف لفرط الاغراق في المضاحكة ، إذا بأحد رجال الأمير يبدو في الحفل ويسوق قولته الى الجزار معلناً بلطافة : أجب مولاي الأمير . طار اليه من أنبائك ما حفزه الى مرآك . فاجتهد في ارضائه . هذه سانحة لاظهار مواهبك فاغتنمها ولا تخيب حسن الظن بك !

فومض البشر في عين الجزار. ما اشتهى ما يرجح هذه الدعوة وقد اقبل في التماسها يستعيد بها اشراق نجمه . ونهض بخشوع والقى يده الى صدره وانحنى وقال بخضوع العبد المطيع : امر سيدي الأمير على الرأس والعين. حباً وكرامة . اني لمنطلق على الفور اليه والفخر يرنّح عطفيّ . فمن الشرف لمثلي ان يعرض في بال حاكم البلد الجليل !

ومشى في أثر الخادم يتصنع الوقار. فالتفّ بعباءته ، واصلح هندامه ، وامسكت يمناه بمقبض سيفه . فالعابث الهازل شاء ان يبدو رزيناً مهيباً. والتمعت في نفسه الخيلاء وثمل ببارق الرجاء . ألا يكون له الأمير الشهابي مرقاة الى السؤدد ؟ . . . ان في روحه المطماع لشوقاً ملحاً الى المعالي وقد فاتته في وادي النيل . ولن يرتضي منها دون ما ادرك علي بك ومحمد أبو الذهب وكلاهما من طينته . هما مملوكان وهو مملوك وليسا يفوقانه فطانة واقتداراً

واتقد صدره بنشوة الاعتزاز . هو في سبيله الى الأماني وسيجيد الخطو. فيتناهى في الاسترضاء حتى تتسع له في اكناف الأمير فرجة . وعندما

توسخ قدمه لن يضيق به أن يسمو الى حيث يبيت صاحب الرأي والمشورة. ففي لبه من بسطة الذكاء والاستدراج ما يأمن به الخيبة . وليس يرى في دير القمر أبا الذهب في أثره يطاوله ويحجبه . فالمنهاج على رحابة وعليه ان يسلكه بدهاء واحتراس. فيلين ما دام ذلك الضعيف، الرخو الجناح ، ويثب وثبة الجبار حين يشتد ساعده ويصلب ظفره

ودخل قصر الأمير، المعقود المدخل على قنطرة من حجارة بيض وصفر، وعلى شفتيه بسمة الخضوع والرضى . الا ان من انعم فيه العين ارتاب بصفاء الدخلة ولم تسلم أساريره من شائبة الكيد والرئاء .

٢

ما انقرضت في سنة ١٦٩٧ السلالة المعنية ، القابضة على ناصية الأمر في لبنان ، حتى نفر اللبنانيون الى مبايعة الأمراء الشهابيين بالسؤدد ورفعوهم الى ذروة الحكم . والشهابيون انسباء المعنيين وقد صاهروهم . وتسلسل الحل والربط في هؤلاء الأصهار فولي منهم الأمير بشير الأول ، فالأمير حيدر ، فابنه الأمير ملحم ، فالأميران أحمد ومنصور ، فالأمير يوسف

والأمير يوسف ابن الأمير ملحم . وساءه ان يقيم دون القمة ، وأن يقبض على الزمام عماه احمد ومنصور ، فرقب نشوب الخلاف بينهما وانتصر لعمه الأمير أحمد إمعاناً في المباعدة وفي إحكام الغلّ

وما كان له أن يبدي الايثار ويزيد في اضرام اللهب لولا اليد المحركة والشفة الهامسة . فوقف وراءه مدبره سعد الخوري يدفعه في الطريق وهو يجري طائعاً لا ينكص ولا يزيغ . ولسعد عليه جرأة التهذيب والتدريب . فرافقه منذ الفطام يجود عليه بالنصح ويعدّه لمرتبة أبيه . والأمير نفسه لم ينكر على الرجل الاخلاص والاجتهاد في استعادة الأمس النضير . وروى له سعد ما كان من عمّيه في أبيه الأمير ملحم . فلم ينتظرا موته كي يتوليا الأحكام من بعده ، بل اكرهاه على التنزل عن حقه بالامارة . ففعل ومهجته تتنزى التياعاً وقلبه يتفطر حنقاً . الا انه ناء بالكلال وقد اقعده الداء عن النضال . فانحدر الى بيروت مغلوباً على امره ، يفني في الأوجاع ما بقي من زيت في السراج

ونشأ الأمير يوسف على كره هذين العمين . وأبوه عهد في امره الى سعد ابن الخوري صالح من رشميا احدى قرى الشوف ، وقد بلاه وآمن بوفائه ، كي يغذّي نفس الغلام بالحقد . فيدله على من سلباه النعمة ويحرضه عليهما . وسعد طويل الباع في الكيد والتقويض . فأوعز اليه في نصرة عمه الأمير احمد ففعل الأمير يوسف دون أن يدري ما يهيب به الى موالاة هذا دون ذاك ، لولا ايمانه ، كابيه ، بوفاء سعد وحنكته . فهو يعلم ان وصيّه على واسع الالمام بالامور ، وانه لا يتوانى في الخدمة النصوح وقد وقف عمره على الشحّ بسلالة الأمير ملحم المولى الكفيء المهيب

ولكن الأمير منصوراً لم يلبث ان قهر اخاه الأمير احمد واستأثر بدفة الربان . وخاف الأمير يوسف نقمة المنصور ففرّ الى المختارة يلوذ بآل جنبلاط . غير ان عين سعد لم تغمض . فظل يشاغب ، ويصانع ، ويدس ، حتى استمال الى القاصر والي دمشق عثمان باشا الكرجي قائلاً له : ليكن سيفك يا صاحب المعالي واضرب به علي بك والي مصر ، وضاهر العمر والي عكاء ، ولك فيهما خصمان لدودان !

وعثمان باشا شاقه ان يظفر بحلفاء من الشهابيين بعد ما تبين له من الأمير منصور شهاب ، حاكم لبنان ، التشيع للمناوئين . فمن الغنم له أن يلقى في أبناء هذه السلالة المالكة في البلد اللبناني الأعنة مؤيداً يستنجد به في الصعاب . الا ان سلطة والي دمشق لا تمتد الى الشوف والشوف في قبضة والي صيداء . قال سعد الخوري وقد أبى الانصراف عن دمشق بسوى مقعد ذي خطر يعتليه ابن سيده : لن يضيق صاحب المعالي بمنصب مرموق في لبنان يتبوأه صفيّ امين !

وسعد يبحث عن مصلحته . فاذا ركب الأمير يوسف السدة فكأن سعداً هو الحاكم وليس للغلام القاصر ان يتحرك بسوى مشيئة وصيّه الصلب الشكيمة ، السديد العين . وعثمان باشا من ذوي الادراك السليم والرأي البصير . فلم يبخل على الأمير الشهابي بفسحة يربع بها سيداً وسيكون ووصيه طوع رغائبه . قال وهو يبسم لهما بسمة العطف : سأكتب الى ولدي محمد باشا والي طرابلس كي يقطعكما بلاد جبيل ، وبوسعكما وانتما فيها اقلاق الأمير منصور وكبح صولته !

فقال سعد شاكراً ، والغبطة ترنّح عطفيه ، وقد انحنى حتى كاد يقبل الأرض في حضرة الوالي المنّان : أطال الله بقاء مولانا . قصدناه على أمل وعدنا على يسر !

ودنا الأمير يوسف من عثمان باشا يلثم كتفه فقبله الوالي في عنقه . وقصفت دسائس سعد فترجرجت اصقاع الشوف وأوجس الأمير منصور شراً من ابن اخيه المنتضي حساماً مسنون الشفرة . فما دام قد فاز بامارة جبيل فما يمسك به عن الالتفات الى امارة الشوف وضم لبنـان بأجمعـه تحت جناحيه ؟

ونقم الأمير منصور على سعد الخوري اكثر منه على ابن أخيه . ومن هو ابن أَخيه ؟ . . . فتى غرّ لا يجاوز السادسة عشرة ، يمسك بعنانه وصيّ داهية ويزجيه في خدمة منازعه . والأمير منصور ليس على ضلال في الحدس ولم يغب عنه ان سعداً ما ينفك يتشهى الرجوع الى دير القمر والاستيلاء على ناصية البلدة الناسجة بيديها سياسة لبنان . فما نسي ابن الخوري صالح الرشماوي ، الشوفي ، ما لقي من جاه وعز في عهد سيده الأمير ملحم

والد الفتى المستقر بامارة جبيل . فلينهد اذاً الأمير يوسف الى قمة تسلقها من قبله أبوه ومرحباً بعودة الماضي الأليف !

ومات في سنة ١٧٧٠ احمد ، عم الأمير يوسف ، الساكن بعد فتنة والمستجدي بعد استعصاء عطف اخيه الأمير منصور . ولم يشأ الأمير يوسف ان يتخلف عن تشييع هذا العم الى مقره الأخير فشخص الى دير القمر يشهد المأتم ، ويمشي في الجنازة . فالأمير احمد كريم عليه وقد ظاهره على الأمير منصور، ولقي في نصرته الاضطهاد والحجر. ومانع الفتى في براح دير القمر وقد امسى فيها . واستوحش منه الأمير منصور فدعاه الى الانصراف . وانى ينصرف وما تاق الى سوى هذه النهزة يغتنمها ؟ . . . وسعد شدد عليه في البقاء . قال ابن الخوري صالح الرشماوي : ليس لك ان ترحل وقد اصبحت في صدر البلد المغبوط . احتلّ كبده ولك امره !

وهو ما وقع . فما نأت الحملة المصرية عن دمشق ، وهدأ في عاصمة معاوية جنب واليها عثمان باشا ، وتضاءل في عكاء شأن ضاهر العمر بعدما نزحت عن الربوع السورية جيوش مصر ، حتى دبّ الخوف الى صدر الامير منصور وليس يجهل ما ينقم به عليه عثمان باشا في تأييد والي عكاء والمصريين . فأرسل الى ابن أخيه الأمير يوسف يعاهده على تفويض الأمور إليه . وحجته أن قد كبرت به السن ، وملّ السؤدد . وحشد في نبع الباروك رجاله وأبلغهم ما قرّ عليه رأيه . فنودي بالأمير يوسف حاكماً وتولى مقاليد الأمارة تحت إشراف وصيّه سعد الخوري . بلغ الثالثة والعشرين من العمر وظل في عرف سعد ، وربما في عرف نفسه ، ذلك القاصر عن الرشد !

ولما بدا في حضرته أحمد بك الجزار على مديد قامة ، ولطيف قسامة ،

كان لا يزال في وقفة التلميذ من المعلم . فجلس بجانب سعد على ديوان من الخشب قامت عليه الوسائد الحمر يتوّج أعلاها النسيج الأبيض المطرّز ، والمخرّم ، وقد زاد زخرفه في رونقه . وقبض سعد على رقعة يحبرها وهو يلقيها الى ركبته . وفصلت بينه وبين الأمير يوسف دواة من نحاس ذات قبضة جوفاء تأوي إليها أقلام الغزّار والقصب . ولاح من الأمير الشاب ، الجسيم، الأصفر البشرة ، الأشقر اللحية ، المربوع ، الحسن المنظر لولا لمعة سمراء في عينه اليسرى ، أنه على ضجر . طالت مجالسته هذا الشيخ الهمّ الممتلىء الوجه غضوناً ، المنحني الرأس لفرط ما حملت كتفاه من أثقال الزمن ، القاسي النظرة كأنه لا يلتفت الى من حوله لسوى معالنتهم أمره ونهيه ، أو لمجابهتهم بسوء الظن

وسعد ، ابن الخوري صالح ، مع كونه نعم بقسط وافر من الفهم ، وبرع في قراءة خفايا النفوس ، وأوتي سعة الحيلة ، وخدم في حاشية الأمير ملحم الشهابي ، ولمس فيه الامير ملحم ركين الحفاظ ، وصدق المشورة ، فرفعه إليه وخلع عليه وارف ثقته ، ومع بقائه في ظل سيده لا ينقطع عنه حتى قضى الشهابي في بيروت يائساً ، وقد سلخه أخواه من منصب الأمارة بكيد ، لم يكن في سن تحبب الى فتى طريّ العذار أن يجالسه أبداً . فالثالثة والعشرون تنزع بمن تسلقها الى اللهو . فالمرح يشوقه ، والجنوح حيناً بعد حين عن الوقار يصبو إليه جنانه . وليس لسعد ، الشيخ الأبيض الرأس ، المتمسك أبداً بالعبوس ، أن يقضي لبانة شاب له من دمه الفائر حافز ملحاح الى العبث والأنس

وغرق سعد في الثياب السود كأنه كاهن في دير . فألقى الى رأسه قلنسوة فاحمة اللون ، وإلى كتفيه فرواً أسود . وارتدى جلباباً حالكاً

ليس فيه منفذ لومضة . وانتعل حذاء من الجلد الأسود . وأخفى ساقيه في جورب من الصوف القاتم كأنه هزيع من ليالي الشتاء الدهم

وليس لشاب في مطلع العشرين أن يصبر على مخالقة ابن ستين وكل ما فيهما يبعد بعضهما عن بعض . عدا أن سعداً لا يبالي سوى فرض مشيئته . مع ان الأمير يوسف بلغ مطارح الشباب وفي الشباب نضج ، وفي النضج سعي للإفلات من القيد . ولكن الجزار وقد أبصر الأمير لم يؤمن بنضجه وما تلألأت له فيه حدة الذكاء . فظهر له على اعتدال في كل ما يتجلى منه ، عدا بدانته وحجاه . فإن هذه الكتلة المربوعة لعلى افراط في السمنة ، وذات نهية يضيق بها المدى وقد تناءت عن النفاذ الى مطاوي الضمير

ولقد جالت باصرتا الجزار في حواني القصر وهو يلجها . فتراءى له صحن الدار متماسك الفسحة ، شبه مربع ، مرصوف بحجارة ملس. تقوم عن جوانبه الأربعة الردهات والحجرات . وانبسطت في الصدر قاعة مستطيلة ، زاخرة الجدران بالنقوش ، عالية القبة كأنها ترفع على هامتها خوذة تقيها طمحات الأيام . وسار الخادم بالمملوك البشناقي الى ديوان الأمير بجانب القاعة وقد اختلى فيه الشهابي بمستشاره سعد ، بل بوزيره . وما كان سعد يرتضي لقباً دون هذا اللقب الفخم لو دعي الى الكشف عن المرجاة . مع أنه بغنى عن جميع الألقاب وهو السيد الفرد في الامارة اللبنانية . وما أميره غير ستار يسدله على نفسه ليمثل أدواره في لبنان على هواه . فالأمير يوسف هو سعد ، ولا جدال !

وطرب الشهابي لما سمع خادمه يجاهره بأن الجزار أقبل . وهتف بلهجة خشنة ولكنها مرحة : على السعة والرحب !

وأعجبه أن تنتشر في الجزار الطلعة البهية الأنوس . وطأمن الجزار ظهره وقد أمسى بين يدي سيد لبنان فبات أشبه بالقوس المشدودة. وزحف

الى يد الأمير يقبلها . ومال على سعد يحييه بإكرام ويسعى لخطب الود . واستوضحه الشهابي بنبرة لا تتكشف عن وفر من رزانة وقد أطلقها ببسمة مائعة : أأنت الجزار ؟

فأجاب المملوك باحتشام لم يهن فيه ما وسم به نفسه من وقار : اني لهو في خدمة مولاي الأمير !

– أأنت من كان يضرب في وادي النيل الأعناق ؟

– ضربتها في وادي النيل ولن أحجم عن بترها في لبنان اذا راق مولاي أن أكون من رجاله ، فأكفيه شرّ الخصماء !

والأمير يوسف يتعشق سفك الدم . فاذا لم يملك الذكاء الوافي فانه ليتقد شوقاً الى تدويخ خصومه ومعانديه. وليس لرأس يتدحرج عن مستقره مخضباً بدمه ذرارة من الأثر في نفس الحاكم الفتى . بل ليس لرؤوس تغور في اشلائها الممزقة ان تميل به الى الاكتراث لمصيرها الفاجع . فانه ليمشي الى أربه على تلال من الضحايا . واذا قاده سعد الخوري في خضمّ السياسة المتلاطم العباب فلم يكن بحاجة الى من يقوده في صعيد التنكيل بالمهج . فما ان يشتعل فيه الغيظ حتى يبيت خطف الأرواح أهون ما عنده غير حافل بأمر من يودي بهم . فينثرهم طعاماً للموت اللهوم سواء كانوا من النخبة أو من الرعاع ، من أقرب المقربين اليه أو من أبعد الناس عنه . وهو اذا حنق على أخيه ، حتى على أخيه ، فلا يحجم عن دفع ابن أبيه وأُمه الى القبر وقد قتله بيديه

ولم يختلف عن أبيه في هذا الاستسلام للضغن . أبصر أباه يقطع الألسنة ، ويسمل العيون ، ويحطم الأيدي ، ويضرب الرقاب ، ويلقي السم في الطعام وفي الشراب ، فجرى في نهج أبيه . وأعجبته هذه المساواة بينه وبين

المملوك احمد بك الجزار فضحك مليّاً فيما يعرض عليه الماثل في حضرته سيفه . واستفهم بلذة من يجدون في إراقة الدم أندى الحنين : أتفعل إذا ما دعوناك الى اغماد نصلتك في نحور الشانئين يا احمد ؟

فابتسم الجزار ابتسامة المتباهي ببعيد صولته .وقال بعجب المستهين بالاعناق : ألا يدري مولاي الأمير اني أودع فوراً من يجرؤ عليه أحشاء العدم ؟... ما جئت ناديه إلاّ لأستظل دوحته الباذخة . وما دمت في ظله فأنا لشدخ كل هامــة تتعالى انتفاخاً وتنزع الى العصيان ، وإلاّ فما كنت الجزار !

فقهقه الأمير يوسف . ان في صدر هذا المعتزّ بعنجهيته لصلابة خليقة بالاكرام . والتفت الى سعد يقول بفيض من البشر : ألا كيف تراه يا سعد ؟

فلم ترق المستشار الطاعن في السن المبالغة في الزهو وفي الميل الى التقتيل مع كل ما تتضرم به نفسه من صبوة الى اطاحة المناكرين. وما اكتفى بأن يسدد الى الأمير عينين مظلمتين دلّ بهما على نفرته من هذا المقبل المفاخر ببطشه ، بل قال بما وهبت له الأحقاب من بليغ الحنكة: أراه ذا حسام قاطع يا مولاي الأمير ، وكم في رحابنا من سيوف !

فانتفض الأمير والمملوك تحت وقـع الوخزة . ان سعداً لذو لسان أمضى من الشفرة الحاصدة . وقطب الشهابي . وجرض احمد بريقه . أيكون حيال أبي ذهب آخر ؟... ما تراءى له انه سيقع عند الشهابي على مثل هذا الحائل العنيد. واطلق في سعد عينين لائمتين ، موتورتين ، كأن الحرب أُعلنت بين الرجلين وكأن التنافس اندلعت شرارته وأنذر عفواً بالصدام .

على ان سعداً تعامى عن هذا المرتزق المغالي في التدليس كأنه لا يبصره ولا يشعر به يملأ الديوان بهيكله وبفياشه . وقال الأمير ببعض الغيظ يردّ به عن الجزار أثر اللطمة : أهكذا نكرم ضيوفنا يا سعد ؟

فأجاب مقتعد العتمة : ما اراني اسأت اليـه في مجاهرته بان فينا من امثاله يا سيدي وابن سيدي ، فهل يخلو لبنان من نظائر هذا الهمام الأنيق ؟

فأوضح الجزار وقد غلى في صدره من الكره لسعد قدر مستفيض : لست أجهل مقامكم في الغارات أيها السيد الموموق ، على أني لا أجد من الضير عليكم أن تضموا سيفي الي سيوفكم ولا همتي الى هممكم . فالنملة على حقارتها تؤذي إذا عضت . ولا عليكم وقد أزددتم بي نملة . فقد أعضّ !

فتمتم سعد: وهو ما أخشى !

فتعاظم الجرح وقد نفذت النبلتان الى الصدر تخترقان الضلوع . وجلجل الشهابي ساخطاً : أتزري به في ديوني يا سعد ؟ ... ألا أين إجلالك لمولاك الأمير ؟

فسكت سعد متماسكاً عن إفشاء ما تراءى له من أمر هذا العارض سيفه بانتفاخ كأنه يقود وراءه فيلقاً من الجند . وقال الجزار وما استطاع إلا أن يخفي غضبته والمقام لا يسعف في إعلان النقمة : دعه في امتهانه قدري يا سيدي . فهو يجهلني . ولا بد أن يتبدل رأيه وقد عرفني . فالغد كفيل بأن يعود به الى حسن الظن !

فانتشرت بسمة التهكم في أسارير سعد وما أفضى بنأمة . وقال الأمير لا يبتغي إيلام سعد ولا إغضاب أحمد الجزار : نحن قوم نكرم ضيوفنا . فمرحباً بمن يقبل إلينا على صفاء طوية . وما كان الشيخ سعد ليبدي الحذر

لولا وفرة من ازدحموا بأبوابنا يعالنوننا الولاء وهم منه على إنفاض. بوسعك أن تقيم بيننا عزيزاً مبجّلا !

فعاد يرتمي على يد الأمير يلح ّ في تقبيلها وفي الافاضة بالمديح والشكر. ولم ييأس سعداً. فانحنى تجاه هذا المعتصر كبد الليالي وقد ذاق حلوها ومرّها قائلاً له ببسمة عريضة، صفراء، تترجح بين الملاينة والتهديد، فقد تكون حرباً وقد تكون سلاماً: لا بد من لقاء أدعوك فيه الى إنصافي أيها السيد العالي المرتبة. فمن حقك أن ترتاب، ومن حقي أن أدلك على ما جاوزت فيه الأمد!

فهتف الأمير يوسف يزيل من حدة الجيشان المتفاقم: سنلتقي أبداً يا أحمد بك. وستجد من إنصافنا ما يحملك على الرضى عن الاقامة بيننا. ألا حدثنا عما لقيت من إخوانك في مصر. أنتم المماليك تدهشونني بغرائبكم. بالأمس تولى أمركم صالح بك فبزّه علي بك وحلّ محله ودعا الى قتله. واليوم ثار أبو الذهب على علي بك وأكرهه على براح مصر وهو الآن في حمى ضاهر العمر. فما هذا الانقلاب المستمر في حكامكم؟ ... أيكون بعضكم أعداء لبعض وعليكم أن تتساندوا لئلا تبيدوا؟

ونفحه بالأمان. وأذن له في الجلوس كي يتكلم بطلاقة. فزحزح الجزار عن نفسه ما دهمها من قلق وجلس إزاء الامير يقول بجهد في التماس الرفق وإزالة الريب: والله نحن المماليك قوم لا حفاظ بيننا يا سعادة الأمير. وماذا يرتجي مولاي من جماعة لا توثق بعضها ببعض وشيجة قربى ولا مصلحة وطن؟ ... فلسنا غير خليط من الناس اشتراهم سادتهم بالذهب. وما تحررنا من ربقة أوليائنا حتى سعينا للتطاحن والاستئثار بالسلطان. والأقوى فينا من ذهب بالقوي

وبالضعيف معاً . إن عددنا في مصر ليزيد على عشرة آلاف . وكلنا يتقاضى المال من مراتب يشغلها ويختلف بعضها عن بعض شأواً . إلا أن صغيرنا لا يحجم عن افتراس كبيرنا إذا سنحت له نهزة القضم . وكبيرنا لا يطيق من هم دونه لئلا يكيدوا له . فعلينا جميعاً أن نحترس من كل منا كأن الركون بعضنا الى بعض محال . علي بك ، وهو من ذوي الاقتدار فينا ، شاء أن يسودنا فهدم سلفه صالح بك . مع أن صالحاً من ذوي المحامد السامقة والخصال الفريدة . وما اكتفى بأن يدحرجه عن المقعد الوثير ويتسلم الزمام بل راقه أن ينجو من شبحه فيودعه التراب . وانتدبني للمهمة فأحجمت . واني تمتد يميني الى من غرفت من بحره ونعمت بحلمه ؟ ... فهل لي أن أكون كافراً بالمنّة ، منكراً للمعروف ؟ ... صالح بك رفع من شأني بعد إغفال ، وأصلح من التوائي أثر ضعضعة لم تكن تحمد فيها مغبة . وأنا رجل لا أشيح عن مأثرة ولا أنسى يداً ، فكيف أقضي على من أبصرني عرياناً فكساني ، ومغموراً فنوّه بي ؟

« وعاندتُ علياً فتلكأت عن الاجابة . وخيل إليّ وأنا أُعاند في الايذاء إني بررت في ذمتي وأسديت المعروف الى من وجبت له عليّ الأمانة . فإذا خسرت علياً فقد غنمت صالحاً وأبا الذهب وهما يعدلانه قدراً وسعياً . بيد ان الثعلبان لا يركن الى ختله . فما تعاليت فيه عن الشين ، نعمى عين ابي الذهب ، جرى فيه الموبوء على سجيته الدنيئة . فلم يتورع عن الفتك بحليفه صالح بك لاسترضاء خصمه علي . فحيّرني يا سعادة الأمير وكدت من وجلي أصاب بالغفلة . فكيف يعيش المحتال بوجهين وبلسانين ؟ ... فيحرضنا على علي ثم يتصاغر لديه ويبذل له دم خلانه . وعزّ عليّ البقاء في بلد سادته

المواربة ففررت من مصر متنكراً بملاءة إحدى نسائي وهجرت كل ما ازدخرت فيها من عز وثراء . وقادني طالعي الى الاسكندرية فابحرت منها الى استانبول ورجال علي بك يصادفونني في الطريق ولا يقدمون على إمساكي وهم يحسبونني إمرأة . فسخرت بهم وعبثت بقدر مولاهم واستقر بي المقام في عاصمة السلاطين . وما طال الزمن حتى سمعت ان المحتال أبا الذهب انقلب على ولي نعمته علي بك ودعا الى القبض عليه وضرب عنقه . فلاذ علي بالهرب وفزع الى عكاء يستجير فيها بحليفه ضاهر العمر !

وقهقه الجزار قهقهة الشماتة وقال : وهذا جزاء الغادرين يا مولاي الأمير . مكر علي بصالح ، وقد دفع أبا الذهب لاغتياله ، فاشتد ساعد أبي الذهب وطمع في روح علي . وهو اليوم سيد وادي النيل . وكبر عليّ أن يلي المخرق الأمر في مصر وأن يقبل سلفه الى عكاء لمصادمتك وللتصدي لحليفك عثمان باشا ، والي دمشق ، فهفوت الى جانبك أعرض عليك دمي وحسامي لقهر شانئيك وللانتقام لنفسي ممن أرادني على السوء وقضى عليّ بالبؤس والتشريد!

وتكلم بذلة الاسترحام معلناً : لم يبق لي سواك . فأنت وحدك معقد الامل . وسوف ترى وأنت تبلو هذا الخادم الأمين أي نصلة مسنونة تنقض بها على أعدائك فتخزيهم . ما أقبلت إليك لسوى شدخ هامات المكابرين . فأولني ثقتك وأنا جندي من جنودك الامناء !

وأيقن من نظرات الأمير الفتى أنه تغلغل في مطاوي هذه النفس البريئة من الدهاء والخبث وملك عنانها . على أنه ما زال يخشى يقظة سعد وما ندّ عنه إن الأمير الشهابي ليس سيد أمره وقد أمسك بلجامه سعد الخوري يديره بمطلق الرغبة . وأبدى الخنوع وكادت الدموع تغشى عينيه وهو الممثل

البارع . فأشفق عليه الأمير وقال مسوقاً بعاطفة الشفقة الراسية بين جنبيه بلصق نزوة الشدة وقد اجتمعت فيه الاضداد : ستكون عندنا على وافي الرحابة يا أحمد بك . فليست دارنا بمتنكرة لمن يلجأ الى حمانا . وسنجري عليك الرزق ونستعين بك في مواقف النضال . فمن يسمع روايتك لا يسعه إلا أن يكبر فيك حميد الوفاء !

قال وقد انتعشت فيه الرجاوة : ما كنت أرقب غير هذه الحماية يجود بها عليّ سيدي المهيب . فمن استقرت بحناياه المكارم لا يقوى على الشحّ بها على سائليه . غير اني وقد وقفت على مولاي صاحب السعادة نفسي سأجتهد في أن أبدو على قدر الثقة المخلوعة عليّ . فلن أنكص عن بذل ما يتقد به الوسع !

وهفا تكراراً الى يد الشهابي يقبلها بورع التقي . قال الأمير باسماً : ولكننا وقد أصغينا الى شكواك فدعنا ننعم بمفاكهتك . هات ما لديك من المؤنسات وقد سقط إليّ عنك ان في عطفيك روحاً خفيف الظل !

وشاقه أن يضحك وأن يتسع له خلو البال ، فينجو لبعض الحين من الجو الثقيل الضاغط وقد حمّله أعباءه سعد الأسود الجبة ، القاتم الوجه ، كأنه يأبى إلا أن يكون سرمداً ناسكاً في صومعة . فلا يلتفت الى سوى شؤون الأمارة ، ولا يفكر في سوى الدسائس ينظمها أو يحبطها . أما أن يجود بمباسطة ، أما أن يتحدث عن مغامرة هيام ، فهو مما ختم عليه شفتيه وأغلق دونه قلبه وعهد الشباب نفق ، وخفقة الهوى سكنت . وما كان سعد في عمره الغضّ وفي شيخوخته الناضجة غير ذلك المبالغ في الرصانة وفي العبوس

وشخصت عينا الشهابي الى الجزار وقد سالتا شوقاً الى بيان الأنس

الصفيّ . وتجلت فيهما نفس تتوق الى التحرر من القيود المشدودة عليها . وبدأ الجزار يطلق نكاته وهو يعدّ لها طريقها ويجيد اداءها حتى خلع عنه الشهابي بقوى الوقار وبات لا يتماسك لفرط القهقهة . فيتلوّى ويستلقي على قفاه وسعد ينظر ويكاد يتميز غيظاً . غلبه المملوك الفطين في الاستيلاء على روح الأمير . إلا أنه اعتزم إقصاءه عن الصرح ، بل عن دير القمر ، بل عن لبنان وقد أحس بخطره . واكتفى بأن يبتسم . غير ان ابتسامته حامت على شفتيه ملتاعة ثكولاً كأنها كشرة الموت . وأقبلت الأميرات على قهقهة رب القصر ينصتن ويقاسمن الأمير يوسف البهجة . فمن هو مطرب الأمير هذا ولسن يعرفنه ولا أبصرنه قبل الساعة ؟

وسألت عنه بعضهن بعضاً وجهلنه جميعاً . وما ظهرن له وهن المحجّبات فأبصرنه من شقوق النوافذ والكوى . ولم يسكت الجزار إلا وقد أبقى من الأمير يوسف كتلة رخوة ، خائرة ، رنّحها الضحك وهدّ فيها القوى . وشعر المملوك النافذ الأثر ، الباحث عن رزقه والساعي لتوطيد غده ، بجسيم وقعه من أمير لبنان فأيقن بأنه أضحى مكين الجذع في صرح دير القمر ، وبان ليس لسعد أن يستأصله

وهو نفسه تناهى في ملاينة سعد ليخرس فيه ظنونه . وما انصرف الا وفي يمينه صرة من الدنانير ورزمة من الثياب . ولاحت له من إحدى الكوى عين تجاوله . عين سوداء ، طويلة الأهداب ، في وجه متورّد مستطيل . لا ريب انها احدى أميرات الصرح . فافتتن الجزار بالصباحة المفاجئة بالاشراق وسدد إليها نظرة الولوع . مايزال فؤاده على اخضلال ونفسه على شوق الى الحسن . على أنه لم يستطع الوقوف ليتملى ذات الرواء . فخرج وهو موثق الروح بسببين ، بالحب الواعد العارض له كالوميض ، وبالجاه البشير وقد بدأ يغرف منه بملء راحتيه

٣

هل أحب الجزار ؟ ... وهل لهذه النظرة الخاطفة أن توثق وتعد ؟ ... وهل لأميرة من ذوات اليسر والمكانة أن تهوى جوّاب آفاق ؟

احمد الجزار نفسه ارتاب بهذه المعجزة وشاء أن يرى فيها خادع سراب . بيد ان الأمل رحيب الفسحة ، جمّ الاغراء ، يغالب اليقين ويصبو الى فرض نفسه كحق واقع حتى وهو ذلك الموّاه . قال المملوك الكهل والعين المحدقة بافتتان إليه ترتعش في خياله : ولماذا لا تهيم بي إحدى الأميرات وأنا المليح الطلعة ، الراتع في بقية من شباب ؟ ... فإن لم أكن في فتوّة الأمير يوسف فإن لي من وسامتي فضلة أرجح بها الأمير . والمرأة عبدة الوسامة تتبعها في كل محجة ، ولا سيما العقيلة المتوارية عن الناس ، الراتعة في خدرها لا تبرح مصونه . فإنها لتبحث عن الجمال بشوق المستهام وليست تكتفي بعزلتها ولا بمن لديها . وما يقع في مسمعها من أخبار من حولها يحفزها الى رؤية أولئك الدارجين في الأرض وليست تدري من أي لون هم ، وما هو شكلهم وهم الغرباء عنها ، المجهولون منها . وقد ترى في بعضهم من يفوقون الثاوي بجانبها فتحنّ إليهم بحافز الفضول ومن طبعها ايثار الأجمل على الجميل ، والفطين على المغفّل ، والبعيد على القريب !

والجزار وقد عرك الدهر واستحلبه التجارب والعظات آمن ، بل شاء أن يؤمن ، بكونه اهتدى في قصر الشهابي الى ما ينعش كبده . هنا يجثم غده . ووقف بين مملوكه وعبده يوزع عليهما الكسوة ويقول بثمل الموفق :

يبدو لي اننا ظفرنا بضالتنا ايها الرفيقان. فإليكما ببعض ما نعمنا به من خير الأمير الوهّاب !

ونفحهما بالعطايا. وما كان ذلك المسيك والجود من شيمه. فما يصيب من رزق لا يستبقيه بل يسخو به على اخوانه واجرائه. وهذه الخلة مالت بمن يتوفرون على خدمته الى الركون إليه طمعاً في نداه. قال مملوكه سليم: وهل رسونا في هذا الوكر؟

فأبان بخيلاء الواثق برحابة المأتى: هذا موئلنا !

– ولا نرحل عنه ؟

– ليس لنا الساعة ان نفكر في الرحيل !

وقال خادمه أبو الموت: ما أشتهي إلاّ أن ألقي رأسي الى وسادة غير قلقة، فهل وقعت على المرتجى ؟

فأعلن الجزار وهو يقرص اذن خادمه: أعتقد ان التوفيق حليفك يا ابن المخذولة، فارقد بسلام !

ولطمه بملء راحته وقهقه ومن عادته أن يداعب خادمه بالشتم القبيح وباللطم الموجع. فاكتفى أبو الموت بأن يلقي يده الى خده ويقول بجرد الطامع في الاسترضاء: اذن هات بدل أوقية من التبغ !

فنفحه بقطعة من الفضة اغتبطت بها نفس أبي الموت العريض الصدر والكتفين، الشامخ القوام، المزدخر في ساعديه المجدولين قوة عرف الجزار مداها في أثناء عودته الى جنوبي السلطنة العثمانية. ودلف ومملوكه الى مقهى سطوح الخرج على حين انصرف أبو الموت الى شبقه يملأه تبغاً ويدخنه على مهل في الخان القريب، فاتحاً اذنيه لأقاصيص رجال القوافل المقبلين

من دمشق ، ومن البقاع ، ومن بيروت ، وهو بينهم اهنأ مناخاً وأصفى بالاً . فيفهمهم ويفهمونه . ويتخاطب وإياهم بلغة لا تحتاج الى جهد في الوقوف على مراميها .

والشبق غليون طويل أشبه بالعصا راجت في ذلك العهد سوقه . والجزار والمملوك سليم اقتديا بأبي الموت في التدخين وقد ضمهما المقهى . وود الجزار أن يذيع سره في مسمع مملوكه ومن له سواه يبثه الخفايا؟ ... والتمعت في ذهنه وجوه ثلاثة مـا كان ليقوى على نسخها من خياله . وجه الأمير يوسف ، ووجه سعد ، ومحيا الغانيـة السنيّة اللفتة ، الوازنة الجمال . وما اكترث للأمير ولم يجد فيه من الرزانة والضلاعة ما تخشى به صولته . على ان بجانب الفتى الطيب القلب يداً محرّكة حازمة تقوده . وهذه اليد تحول دون سقوطه في بؤرة التلف واستنامته الى هواه . هي يد سعد المنيعة القبضة ، المحترسة من الالتواء ، البارعة التسديد . فإذا انساب الجزار الى قلب الأمير فلن يكون ذلك الطاغي على الفتى ، حاكم لبنان ، وهناك سعد يقطع ويمنع ، والأمير يميع حياله ويطيع . فالوجه البادي في مقعد الامارة وجه الامير يوسف بن ملحم شهاب ، بيد أن اللسان المتكلم به لسان سعد ابن الخوري صالح الرسّاوي . وقد يزلّ هذا اللسان عندما ينطق ببيان الأمير الغرّ ، الا أن سعداً حاضر الوجه والذهن لاصلاح الزلل ورتق الفتق

ورهب الجزار سعداً ، غير انه لم يجهر بضعفه . فسيكافح ليشق لنفسه طريقاً راهناً الى الصرح ، وعند ذاك تنشب بينه وبين سعد معركة التنافس على وجهها الصريح . فاما أن ينكسف سعد ، واما أن يجفل الجزار ويرحل عن دير القمر كابي الخطو ، نابي الوسع

ولكنه لن ينهزم وسيجد من ذات النظرة المشتهوية في الصرح ظهيراً على سعد. فتعينه على الفوز ويبيت المسيطر على نهية الأمير. والمرأة، ولا سيما المقيمة على هيام، ذات أثر مكين في ما تنتصر له من رأي وتحبو إليه من هدف. ولماذا يقبض سعد على الدفة ويتزعم سياسة الامارة لا المملوك أحمد بك الجزار؟ ... أفلا يملك الجزار من الحنكة ما يبيح له الاستعلاء وتدبير شؤون إمارة ضيقة الحدود، ضئيلة السكان؟

وما انفك يرى في الوجه السنيّ عوناً له على أمره. ونزع الى معرفة من يضم صرح الحكم من نساء. فمن هي هذه الناظرة إليه بشغف، الناطقة عينها بنداء الحس؟ ... وخشي أن يستوضح أبناء دير القمر عن حرم الأمير فيهدم بثرثرته وطيشه ما أخذ في بنائه. فمال على مملوكه سليم يستودعه من أسراره. قال: في هذه الامارة بأسرها رجل واحد يدرك ما يريد يا سليم، وهو مدبر الأمير الشيخ سعد الخوري. أما الآخرون فليسوا غير أخشاب مسنّدة. وما دام سعد مستشار حاكم هذا الجبل فلا قبل لنا بالتسلسل الى كبد الأمير، إلا إذا ملكنا من حسن الطالع ما يحقق الرجاء!

فاستفهم سليم: أيكون جبل الدروز أجمع في قبضة سعد؟

وجبل الدروز هو الشوف وبعض المتن، بل المتن كله حتى نهر الكلب. والأمير الشهابي المسلم يحمل اسم أمير جبل الدروز والدروز في تلك الناحية من لبنان وجه الأهلين ثروة ومقاماً. قال الجزار وهو يطلق الزفرة الحرّى: انه لفي قبضته يا سليم. وهو على قدر المهمة. فليس لغصن أن يميل بسوى مشيئة سعد. وليس لذرة من التراب أن تذهب في لبنان ضياعاً أو أن تبددها يد مسرفة وسعد مفتوح العين. وددت لو حللت محله كي أقود هذا الجبل الحصين على

هواي ، إذن لكنت ترى سيدك الجزار !

فضحك المملوك سليم وقال : وماذا سوف أرى ؟ ... ما على رب الامارة وأنت تتولى أمره الا أن يعجل في الرحيل إذا شاء أن يصون هامته من حد فيصلك البتّار !

وكانت قهقهة طويلة أطلقاها معاً . وأمسك الجزار بناصية مملوكه وجذبه إليه معنّفاً تعنيف التودد . والتودد في عرف الجزار يجاوز أحياناً اللطم واللكم . قال وهو في متمادي الفرحة : حزرت يا خبيث المهد . يبدو لي منك انك ملمّ بطباع سيدك الجزار . وهل لذاك الأبله أن يسود ولا يجد سيدك مقعداً يستقر عليه جنباه ؟ ... قضى علينا نظام الوراثة في السؤدد . فالسلطان يمتطي العرش لا لكونه ذا جدارة ، بل لكونه ابن من سبقه في ركوب السدة . وقد يكون أخرق الرأي ، بليد المهزة ، غير أن عيوبه تغتفرها له الأمة بأسرها وهو ابن من سبق وامتلك العنان . والأمير فرخ سلطان . والاعتقاد الطاغي على النهى ان ابن السلطان سلطان، وابن الأمير أمير، وهو ما رفع هذا الركيك المستضعف الى مقام الامارة ، فاضحك معي من هزل الاقدار . سيدك المالك من رهافة الفطنة ما يزعزع به دولة أيّدة مقضي عليه بأذابة عمره كالمستجدي ، متنقلاً من باب الى باب يسأل الصدقة ، على حين يستوي هذا الأحمق على أريكة الأحكام !

وصرف بأسنانه نقمة وجاد بضحكة يرين عليها التهكم القاسي . فقال مملوكه وقد أصلح من عمامته المعوجّة، ومن ناصيته المشعّثة : ما عرفتك تذل للأقدار وما فتئت تصادمها ، فما بك تلين لها وتستكين ؟

فأجاب وقد انتشر في أساريره الغيظ والحقد على الزمن الغشوم : ليس

لي أن أشق طريقي في هذا الجبل الوعر . فالامارة متسلسلة في أربابها . والرابع بسدتها لا غنية له عن مدبره. فقد يضحي بإمارته ولا يجرؤ على التضحية بسعد. وهو يعلم ان خصومه يخشونه ويتقونه لكون مستشاره هذا الداهية المقيم من الظلام نوراً ، ومن النور ظلاماً ، دون أن ترقص له حنجرة أو يرتعش جفن. قد أُصبح بمقام سعد ، ولكني أظل ذلك الجالس عن اليسار والمقعد الأيمن هو أبداً لذاك الشارب عصير السنين . وإذا قضى سعد ولي الأمر أبناؤه وحفدته . كأنهم الأمراء أنفسهم في تسلسل الوجاهة فيهم. وهم من أبناء هذا الجبل . أما أنا فغريب ، شريد . وكل ما لي في تدبير غدي أن أبحث عن ولاية في الجنبات الشواسع المنشورة حول لبنان . ولمن يعتليها أن يتقرب من الباب العالي دون ان يكون أميراً ابن أمير . وإني لمن خدم الباب العالي وسأسعى لاستمالته إليّ في تقويم أودي . أما في لبنان فمهما علوت فسأظل فيه صفر اليدين من سيطرة تلقي إليّ مقاليدها على جمام !

فقلب سليم شفتيه دهشاً وجمدت عيناه ذهولاً . إذن تداعت الآمال. فما أمّ الجزّار لبنان إلا ليحتل المنصب المغبوط ويمثل دور السيد العالي المرتبة . فإن لم يكن الأمير فهو تلو الأمير . غير أَنه لم يحسب حساباً لسعد الواقف سداً في الطريق لا تزعزعه الأعاصير، ولا تدكه القذائف على شراستها . قال المملوك سليم بعد لأي وقد حامت باصرتاه على مغنى الشهابي المطبق الجدران كأنه قلعة جهمة أو سجن رهيب : ألا يتفق لك أن تذهب بهذا الحائل فتطيحه كما أطحت ضحاياك في مصر ؟

فهز برأسه وأجاب : هذا ما خطر لي . على أني إذا كنت ثعلباً فهو ذئب . وأن أكن ذئباً فهو في الاستذئاب أقوى وأدهى. فما مثلت في حضرة الأمير

حتى شعرت بأني حيال نقيضين جمعتهما مصلحة واحدة . فالشهابي دمية تقتعد مكانها لتبهر الأبصار بروائها دون أن يكون لها رأي حتى في نفسها ، ومستشاره أشبه بالمنشار ، يقطع كيفما أطلقت فيه يدك. فإذا كنتُ الجزار فهو عزرائيل قابض الأرواح !

وضحك ضحكة حادة ارتعدت لها فرائص مملوكه . فقد تخطى بها طور المزاح ودل على توتر أعصاب . لولا سعد لكان الأمير . وومض في مخيلته الوجه السنيّ والعين السوداء الطفحى بالفتون فاستعاد بعض ما انهار من طماحه . قال : على أني لن أتباطأ في الذود عن المرجاة . ليس في هذا الميدان غير إثنين وهو لا يتسع لسوى واحد فرد . فإما أنا أو سعد !

وصمم على المناكرة وسلاحه العين السوداء الطويلة الاهداب ولن تخزيه . وجلّ ما عليه أن يقنع الآن بما أحرز وليس ما أحرز بالقليل . فيمالىء ، ويلاين ، ويخفي مخالبه فتمسي يداه من مخمل ، ويبيت لسانه أزهار زنبق وورد تتعطر بها الأنوف . ولا معدى عن المواربة والمداهنة للظفر . فالأمير يوسف عمود السماء ، وسعد باب الجنة ، وبعد ذاك فلكل مقام مقال

واستجاز لنفسه أن يجرع الخمرة ليضيع في النشوة . فالعمر لذة وانشراح . وتحلق عليه اخوان الصفاء يهنئونه بما بلغ من حظوة لدى أمير البلد . وارتفعت لديهم مكانته واتسعت شهرته والناس في فرحة كل ذي نعمى . وضاحكهم الجزار ولكن ببعض الاحتراس . فليس له وقد تفتحت أمامه أبواب القصر أن يدرج في صعيد الابتذال . فمن حاز اعجاب الأمير عليه أن يحاذر الاسفاف . ولاحظ على الناظرين إليه بالأمس نظرتهم الى مشعوذ يطلب صيداً تماسكهم حياله واجلالهم اياه يغالون في الاكرام ، فقال : والله ،

انكم لسعداء وقد بسطت عليكم القدرة لواء سعادة الأمير يوسف ونفحتكم بحكمة سعد. فمن يشرف على أمره هذان الهاديان يسلم من التهوّر والضلال!

وأفاض بالحديث المستطاب عن الأمير ومدبره سعد الخوري. فرفعهما الى مناط السحاب. وسمعه مملوكه سليم في دفقة الاطناب فهاله ما يأذن به وحدج سيده بعين تجحظ رهبة. وقال في نفسه برعدة اهتزت لها حتى عظامه: ما أقدر هذا الدجّال على الكذب والنفاق!

وانسلّ الجزار ومملوكه من الحلقة المكتنزة يودعان القوم ويدلفان الى الخان. فالخان نزل إخوان السفر ومأوى الدواب. فالركاب والركائب يحتشدون فيه وهو موئل النازحين. وبدا لهما أبو الموت في رهط من أمثاله الخلطاء يدخن الشبق ويصغي بإذن جشعة تطمع في التهام ما تسمع. كأن ما يلقى إليها يشفي نهمة الفضول في العطاش الى الاستنباء. فلفت إليه مولاه الجزار باستنامته الملحاح الى الانصات. بمَ يتحدث سائقو المطايا وقد رانت على الجميع الاصاخة الرهيفة الاحساس؟

ولاح منهم أنهم لا يرفعون الصوت كأنهم في محفل خاشع. فالهمس تولى البيان. ومرّ بهم الجزار ومملوكه فسكتوا كأن ما يتداولون من مقال يدعو الى الحذر. فزادوا في شوق احمد بك الى المعرفة. أيكون ما تجول فيه الوشوشة ينقع الظمأ؟

ونهض أبو الموت يؤدي لسيده التحية بانحناء. ووقف الآخرون إجلالاً ولم يكن السلام مما تتحاماه الخواطر تيهاً وزهواً. فردّ لهم الجزار التحية باسماً بسمة الرضى. فهو مع استخفافه بالمهج لم يكن يتحرّز من ملاينتها كي يستميلها إليه ويدفعها في نصرته وموقفه الرجراج يحفزه الى البحث عن الاعوان

وأومأ الى أبي الموت ان اتبعني. فامتثل أبو الموت وهو الخادم المطواع.
وما ان أمسوا على خلوة حتى استوضح الجزار عبده بصوت أجشّ جالت فيه النبرة الآمرة : ألا ما استأثر بوعيك مما كنتم تتساقطون من أحاديث يا ابن المتنكهة الحرمة ؟

ولا معدى عن الشتيمة يفيض بها الجزار. فهي في أحاديثه أشبه بالملح في الطعام. وأبو الموت مع عرض ألواحه ، وضخامة هيكله ، وقوة ساعده ، كان يرتعش لدى وقوفه في حضرة مولاه. فتزول عنه كل همة وصلابة، ويبيت أشبه بالسنبلة تجاه دلال الرياح. فيلتوي ويحس بكونه أحقر من نملة. نظرة واحدة من الجزار تذهب بصواب هذا العبد الرقّ. فتغور بها عيناه ويتسع فيهما البياض كأنهما على انطفاء

وما سأله سيده عن حديث الرفاق حتى اعتراه الوجل. ماذا له أن يعلن من تلك الخفايا وليست تنطوي على ما يجرؤ على النطق به ؟... ولكن عين الجزار الحادة كرأس السنان محت عن أبي الموت كل اعتصام بالكتمان وأطلقت على رغمه لسانه بالقولة الصادقة. فأذاع بلهجة فشا فيها الالتباك والجبن: كنا نتحدث عن صرح الأمير يا مولاي !

فهتف الجزار غاضباً كأنه يستكبر أن تفيض ألسنة الرعاع بما يعدو مستواها: وهل لمثلكم أن يرفع عينيه الى القصر العالي المناف ؟... ولكنكم تخدشون وجه الجلال وأنتم تطلقون فيه القول المباح. ألا بماذا تجاسرتم عليه من سرد يا أبناء الثعابين ؟

وكاد يلطم عبده. وهذه الصيحة الخشنة طريقه الى حل الألسن من عقالها فتبوح بالاسرار. واشتدت الرعدة بأبي الموت فقال بلجلجة المرعوب : ما سعينا

للغمز بسيد المكان. فالرفاق رددوا ما سقط إليهم وهم أبرياء من تبعة النقل!

فهدر الشريد البشناقي: إذن لقد جاوزتم حد الاكرام المقدور علينا لرب هذه الامارة يا ابن الكسيحة. والله، لاطعمن الأرض لحمك وعظمك. على مَ دار الحديث الفضّاح؟

وأمسك بخناق العبد يكاد ينتزع منه خلجة الروح. فاحمرّ وجه أبي الموت وجحظت عيناه. وانتفخت عروقه بالدم المحقون ووهنت قواه حتى خيل إليه انه تلاشى. على انه رفع يديه يسأل الأمان. فانحلت عن عنقه يدا سيده الصائح به متوعداً: إذا لم تطلعني على ما تطارحتم كلمة فكلمة فودّع أيامك وقد أضحت على وشك الاضمحلال!

فقال وهو يتنفس ملياً ويغالب فيه الوهن وقد أبصر بعينيه المنايا تواثبه وتكاد تختلسه: ما وقع في أذنيّ ما يشيع به الاعجاب بالأمير. فالقوم يرون فيه تُكَلَة نؤوماً. سكن الى سعد الخوري وغفل عن شؤون الامارة وما يطيب له غير التنعم بالأفاويه. فعشق اللهو والمرأة وفي صرحه أربع نساء بينهن جاريتان شركسيتان. وشاع أنه فتك بإحدى هاتين الشركسيتين لريبة دهمها فيها. فصبّ لها السم في فنجان القهوة ودعاها الى حسوه وإلا قتلها أشنع قتلة. فينتف شعرها، ويسمل عينيها، ويصلم أذنيها، ويجتثّ لسانها، ويقتلع أضراسها، ويبتر ساقيها. وراعها أن تموت ألف ميتة فآثرت أن تجرع السم. غير انها نادت ببراءتها قبل أن تحبو الى منيتها. فما أصابها من تهمة بعيد، في زعمها، عن الواقع وهو مدسوس عليها!

فاستيقظت في الجزار الرغبة اللجوج في الالمام بالمطاوي وقال مستبشراً خيراً: أسمعت هذا كله وتكتمه عني لا أبا لأبيك؟... والله، لولا

يقيني بولائك الصادق لقتلتك . أفلا تدري أن لي الطائل الجم من كل قولة تروج في هذا البلد ؟ ... لا تحجز عني غمغمة أنـّى كان مبهمها وإلا أذقتك الردى . فمن فتك بالمئات لا يهاب نحر خنفساء من منجمك . هات كل ما تهادى الى وعيك من خفايا !

وإزهاق الأرواح لم يكن ذا قدر . فمن حق السيد أن يقضي على عبدانه دون أن يتصدى له من يعاتبه . فالناس يباعون ويشرون ككل متاع ولمن يملكهم أن يتدبر أمرهم بمـا يستطيب وهم له بأرواحهم وأجسادهم . فالعهد يبيحهم حلالاً لمن يسترقـُّهم كقطيع من النعاج والعبودية ما تبرح مرفوعة القباب ، وسوق النخاسة مشدودة الأطناب . قال أبو الموت بخضوعه الأعمى لسيده المملوك أحمد بك الجزار ، واعجباً لمملوك بات مالكاً : لم يكشف رفاق ذلك المجلس عن نيتهم الخالصة وهم يتفادون من الابادة. على أني لمست في حديثهم الحسرة كأنهم يتشوّقون الى عهد الأمير منصور، عم الأمير يوسف، والى عهد أبيه الأمير ملحم . فالأمور لم تكن يومذاك في مثل هذا الاسترخاء . فالأمير كان يقود بنفسه قومه دون مستشاره . أما اليوم فالمقود يقبض عليه سعد الخوري ويتحفز للاستيلاء عليه ابنه غندور، كأن الشهابيين باتوا أصفاراً من السؤدد لا يصلون ولا يقطعون !

فقهقه الجزار وقد أطربه بيان عبده وصاح به يتهكم عليه : هل أمسيت بارعاً في شؤون السياسة بهذ المقدار يا ابن الزريّة ؟ ... إذن لم يبق عليك إلا أن تتسلم ذروة السلطان !

ولطمه تحبياً ليذهب عنه بكل وحشة وهو يقول له : زدني من همسات أولئك المكارين. ففي صدورهم ما يحلو سماعه . أي تهمة رشق بها الأمير جاريته

الشركسية ؟... أما فاض رفاقك بالدافع الى القتل؟... فمن عشقها في الصرح؟

فأوضح أبو الموت وقد صمم على جلاء المكنون : في القصر يا مولاي جماعة من الخصيان . وفي هؤلاء بعض الشراكسة . وسكنت الجارية المقضي عليها بجرع السم الى أحدهم وهو من بني قومها فلاطفته . وبلغت في الملاطفة أمد الممازحة . فوشت بها وصيفتها الى الأمير فأودى بها وبالخصيّ معاً وقد فتك به بنفسه بطعنة خنجره . وخشيت الشركسية الأخرى على نفسها فالتمست الخلاص من سجنها . غير أن عيون الأمير ترصدها . وهي في بهاء عزيز المثيل كما ذاع عنها !

فقال الجزار في نفسه : أتكون هذه المستوحشة من سددت إليّ مقلتها الهائمة ، السوداء؟... ولكني أعرف الشركسيات على بياض وشقرة وزرقة ناظرين ، فأنى تألقت تلك الوسيمة بالحوَر الفتّان ؟... أشركسية أم أميرة شهابية؟

والأمراء الشهابيون استقروا في معظمهم بدير القمر يقتعدون صروح المعنيين الواحدة الطراز ، او يبنون على مثالها ، وقد تشابهت في المداخل ، والعتبات ، والحجارة ، والجدران . فلا بد من قنطرة عالية يقوم عن جانبيها مقعدان من حجر تقود الى رواق من العقد مقوّس كالقنطرة نفسها ثم الى صحن الدار

والأمير يوسف تزوّج الأميرة بدّورة ابنة عمه الأمير منصور بعد عقد المصالحة بينه وبين عمه المحتجب في مدينة بيروت . واحتشدت في حرمه شهابية أخرى وبنى بجاريتين شركسيتين . وودّ الجزار أن تكون الشهابية تلك الناظرة اليه باللّحاظ المراض فيبلغ في شغفها به من العزة ما يعدو حظوة سعد الخوري . على انه خشي ان يعرّضها لسخط الأمير يوسف اذا ما افتضح في هيامه بها . واعتزم ان يدرج في غرامه على تؤدة ووقاية ،

حتى اذا ما استحكم الهوى لقي للشدة منفذاً تهون به . ولكنه مع تفكيره في هذه المتلألئة المباهج في قصر الأمير لم يزل منها على قلق وما فتىء يسائل نفسه أتهواه، أم رشقته عفواً بنظرة الاستهواء؟...وليس يندّ عنه ان في عيون ذوات الروعة من قوة الاسر ما تمسي به كل التفاتة منهن وثاقاً يقيد بهن الالباب .

ومضى أبو الموت في بيانه الكاشف عن المستور فأعلن : لا أرى اللبنانيين راضين عن أميرهم وهو البليد الذهن والروح ، المستطيب سفك الدم ، الأهوج في ساعة اللين كأنه العاصفة الرعناء ، الممتثل لمشيئة سعد الخوري امتثالاً سحيق المدى كأنه من الدواجن. وجلّ همه أن يميل على لذائذه يرتع في ثمالاتها . فما أن يجيئه قومه لعرض ظلاماتهم حتى يقع في مسامعهم انه غارق في النوم . وليس بالأهمال يساس الناس . هذا كله ختمت عليه وعيي . وما دام سيدي أحمد بك يصبو إلى الالمام بآراء من جلست اليهم في أميرهم ، وهم من اللبنانيين في السويداء ، فإني لانقل اليه كلامهم بلا تحريف ولا غلو في الاداء ، على ان يصونهم مولاي من نزق الأمير . فلقد اجمعوا على ان أباه مع شراسته وكلفه بالنساء لم يكن ذلك العاطل من الحصافة . فكان يريق الدم، ولكنه لا ينسى فضل ذوي القدرة والمكانة. ويستشير من حوله ، بيد ان رأيه الرأي الأعلى . وما نظر إلى سعد الخوري نظرته إلى صاحب الكلمة القاطعة ، بل نظرته الى الخادم الأمين . وسعد لم يكن في عهد الأمير ملحم غير رجل يحسن الطاعة . فيؤدي لمولاه فرض الخضوع وهو أبكم . ويغالي في الزحف وفي لملمة نفسه في حضرة سادته كي يبدو اشبه بالخيال . فلا يزعج، ولا يملأ فراغاً يتحرّز من احتلاله

وهو الموقن بكونه من الحشم لا من الأرباب . أما اليوم فانه ليتسلطن وقد أمسى القابض على الناصية . فهو الحاكم ، وهو المدبر ، وهو الباني سياسة لبنان . ويقول سائقو المطايا – وقد أبصرهم مولاي يقتعدون الأكياس والأعدال بسراويلهم السود ، وزنانيرهم الحمر ، ولبّاداتهم المطوّقة بالعصائب ، وأحذيتهم المثقلة بالمسامير الضخام وما ينتعلون غير المداس – ان سعداً القاسي بعد لين ، الضارب في صدر الاسرة الشهابية إزميلاً اتسعت به شقة الخلاف ، الآمر الناهي بعد طأطأة هامة وتقبيل أيدٍ ، سيقود الأمير يوسف الى حيث تزل به القدم وتسوء العقبى . فالشهابيون أيقنوا بأن الامارة أفلتت منهم وقد تولى سعد الحل والربط . فهي اليوم لسعد ، وغداً لابنه غندور ، وبعد غد لمن سوف يقبل في أثر غندور من الأبناء والحفداء !

ففتح الجزار فمه ذهولاً . أيكون اللبنانيون على بكرة أبيهم ممن أُوتوا حظاً من الادراك وليست تخفى عليهم في السياسة خافية ؟... وتعجب المملوك البشناقي من هذه الفطانة في الجمهور اللبناني . فكأنه المثقف فطرة وليس يحتاج الى من يحيي فيه حاسة الدهاء . واستوضح الجزار عبده أبا الموت : وهل بلغتَ فيهم هذه المنزلة السامقة يا ابن الدهماء، فأطلعوك ساعة أبصروك على بواطن السياسة في جبلهم الحصين ؟

فاجاب أبو الموت : ألا يذكر سيدي أنه نقدني بدل اوقية من التبغ ؟... بهذه الأوقية فتحت لهاهم فتكلموا . واليد السخية لا تغلق عليها الأسرار !

فتناول الجزار من كيسه ربع دينار عثماني ذهباً ورمى به أبا الموت في وجهه وهو يصيح وملء عطفيه الجذل : إليك بما تشتري به حملاً من الدخان .

فوزعه على جميع من تجالسهم من أبناء هذا البلد وانفذ الى أعماق قلوبهم . ما جئنا لبنان إلا لنطلع على ما يحتجب فيه القوم من الأحاجي والألغاز !

فأغار أبو الموت على ربع الدينار يلتهمه . فهو من الذهب . والذهب بين أمثال هذا العبد القن على ندور . وهرع الى رفاق الخان يهتف بهم : سنعيش على كيس الأجاويد . كلكم الليلة في ضيافتي !

واشترى فخذ خروف ، وزقاً من الخمر ، وأضرم النار ، وملأ الكؤوس ، وأقام يشوي ويسقي من خير أحمد بك الجزار

٤

ما انصرف أحمد الجزار عن ديوان الأمير يوسف في صرح دير القمر حتى أطلق الأمير في مستشاره سعد الخوري عينين ناتئتين كالمسمار الرهيف ونبر: ما كنت راضياً عن مطاعنك على ضيفنا يا سعد. فليس لك أن تهين في حضرتي من يمثل بين يديّ. فأنا السيد في هذا البلد ولي عليك حق الطاعة. أأكون شبحاً هزيلاً في امارتي كي تزدري ضيوفي؟

وساده الخنق. فليس يطيق أن يكابد المقبلون الى حماه الامتهان. وحدجه سعد الخوري بنظرة الدهش والخيبة. ما كان لهذه الكتلة الظاهرة البدانة، النزرة الفطانة، أن تعارض في امر وقع، فما بها تبدي السخط وتجهر بكونها صاحبة المشيئة المطلقة؟

وبلع سعد ريقه امتعاضاً. هل يكون جلاده أحمد الجزار، فانتقل من مصر الحافلة بضحاياه الى لبنان ليغتال فيه الناس؟... ولكن ابن الخوري صالح الرشماوي يستّني من بعده لابنه غندور. فيغيب نجم ويتألق نجم. وما عرف الأمير يوسف يؤثر عليه ذا مرتبة ولا يعاتبه في قولة. فما يحمله على التنديد والاستمساك بالسيطرة، هل نسي فضل مدبره؟... وهل له وقد نسي هذا الفضل ان يتولى بنفسه قيادة الامارة الوافرة المزالق، الصعبة المسالك، المطوّقة بذوي الأطماع؟

وهاج في سعد الارتماض. الا انه تمالك وهو الداهية وليس لكلمة حرد عارضة أن تهزه وتميل به الى اعتزال المنصب النابه. وهو اذا اعتزله فلن يستعيده وسيقضي ما بقي له من أيام نادماً على العجلة. ولن يشق لابنه طريقاً الى

الرفعة فتفقد ذراريه متعة الجاه. وابتسم للأمير ابتسامة الواثق بوفرة حجاه، المسامح بما يلقى من جفوة، وقال : اعتقد ان صاحب السعادة مولاي موقن بسعة معرفتي الناس ، وبحرصي على غده . ودرايتي وبخلي بمولاي حملاني على انتهاج المسلك الجافي . فليس لأمثال أحمد الجزار أن يأووا الى هذا المغنى الحريز وما انطووا على صفاء دخلة . صرحنا يتنكر للغش والخداع !

فضحك الأمير مستهيناً بالمبالغة في الحذر وقال: وماذا تخشى من الجزار يا سعد وهو المهيض الجناح ، المنتوف الريش ؟

فأجاب المستشار الضنين بسلطانه: أخشى منه على الامارة اللبنانية جمعاء يا سعادة الأمير . فمن استطال على سيده علي بك الحكيم والي مصر ، وحقد على محمد أبي الذهب لكونه يعلوه منزلة، لا يبذل لك الولاء الصراح، بل يصانع ويختال ليغدر بك ويبلغ شأوك . ان خير ما نعامل به الجزار إبعاده عنا بسلام . ولا بأس أن تجود عليه ببعض العطاء ، أما أن تستبقيه فهو الضلال الزعاف !

فامتد بالأمير الضحك وقال : أتدعوني الى الوقوف على ارتياب ممن جاءنا طريداً لا تصونه رعاية ، ومقهوراً لا يشرق له أمل ؟... ولكننا غلاظ الأكباد اذا نبذناه يا سعد . وأي صولة له فنرهبه وليس وراءه دولة تسنده ، ولا حوله جيش ينصره ؟... ألا يهزأ بنا من يسمعنا نقول إننا نخاف شر كسيح أعزل ؟

وأطلق للسخر مداه . فقال سعد متماسكاً على الصدام وقد أمسك بشعرة معاوية يجاذبها الغلبة في المد والجزر : إني لأدعو مولاي الى الوقاية. فالرجل حلو اللسان ، الا ان في حناياه فيضاً من مكر وطمع . فسيجارينا على ما

يشوقنا ما دام بحاجة الينا، غير انه لا يكاد يمسي رهيف الناب حتى يعضّنا . وان يكن مهيض الجناح فسيستعيد طلاقة جناحيه ونحن نخلع عليه عزتنا . واذا بـدا لك منتوف الريش فسينبت ريشه وسعادة مولاي يحنو عليه وتنمو فيه القوادم والخوافي،فيصعب علينا كبح جماحه وما أراه ممن يصطلى لهم بنار!

فهتف الأمير ساخراً بما تلتقط أُذناه : ولكن حياته في قبضتنا . فاذا راقنا ان نزيد في أيامـه أطلقنا له في العيش الرخيّ ، والا قطعنا رفقنا به ورذلناه !

فأعلن سعد باحتراس من يرهب شر المنقلب: واذا أقدم على ما لا تنجح فيه حيلة فما يكون منا؟...ألا نندم حين لا ينفع الندم؟...هو غريب عنا، وليس للغريب أن ينسلّ الى حمانا ومن الخطر علينا أن يطلع على سرنا . فقد يكون جاسوساً من جواسيس أعدائنا وما للجواسيس أن يسرحوا في رحابنا . حذار ، حذار يا سعادة الأمير !

فما انفك الأمير يوسف يهزأ بحكمة سعد، هـذه الحكمة البعيدة عن موضعها . فأي شر يهدد به الجزار وهو فرد حيال إمارة لا يضيق بها عند استفحال الخطب أن تحشد تحت البنود أربعين ألف كميّ ?... قال الأمير يدعو مستشاره الى الطمأنينة : يتراءى لي أنك تخشاه على نفسك يا سعد . فهالك أن أرحب به وأدنيه مني فأرفعه إليّ واسلوك . ألا باعدت في الظن الأثيم يا صاحبي.اذا أبحت لهذا المملوك الشريد المثول بين يديّ فلن أُجيز له أن يتقدمك في تدبير سياسة البلد. كن مما أعالنك به على يقين.وتربة الأمير ملحم أبي ، وكرامة الأسلاف الصالحين أجدادي ، ليس لرجل أن يرجحك عندي . وجلّ ما أنهد اليه في المملوك الجزار ان أصغي الى مفاكهاته وهو

الخفيف الظل. ولا بأس عليّ أن أخلع عني لبضع هنيهات جلباب الوقار على مرأى ممن لا تربطنا به رابطة الوطن ولا عروة السياسة. أفلا يشوقك أن أقيم على ضؤولة من مسرّة؟... ان في هذا المملوك من لطافة القول ما يملأ نفسي ابتهاجاً. فكن للسياسة تنظم أحكامها برهافة بصيرتك، وليكن للمباسطة ينفي بها عني ما يدهمني من ملال!

فأبان سعد الخوري صالح الرشماوي بلهجة شاء أن يكسوها وفراً من إخلاص: لست ألتفت الى نفسي بمقدار التفاتي الى مصلحة مولاي. فالجزار لا يقوى صاحب السعادة على الركون الى ولائه وهو المعتلّ الولاء. فالثقة بنصاعة سريرته لا تشفع فيه وقد عرفته مصر ذا اعوجاج. فما نعم برضى علي بك الحكيم ولا بعطف محمد بك أبي الذهب مع كونهما خصمين. فاذا فاته الأول فلم يكن له أن يعدم الآخر. ولكنه يرشح باللؤم فانفضاه عنهما معاً يتجنبان كيده. وإصفاؤه منهما وقد نبذاه قاده اليك. وما جاء سليم النية، بل جيّاش الغلّ، لا يميل الى سوى تعكير الماء. فاصرفه عنك وانقذ نفسك من روغانه ومن زوغانه. ففي أنيابه العطب وهو أخبث من ثعلبان وأفتك من ثعبان!

فترجح الأمير يوسف بين المواءمة والمنافرة. أينحني أبداً تجاه رغبات ولي أمره وقد بلغ أمد الحلم وأمسى في مراتب ذوي الحجا؟... هو السيد النافذ الرأي وليس في إمارته لرجل أن يستطيل عليه في مشاكسة. ولقد سئم مجالس سعد الباردة، الجافة، وتاق الى أحاديث الأنس المزقزقة، الملوّنة، الطائرة به على بساط من الطرب السبوح لانقاذه من الضجر الفاشي في الصرح المطبق الجنبات. فكأنه القفص وليس يلوح منه غير جبال دكن تغور

سفوحها في أودية على نزر من اخضرار

إنـه ليبصر غابة الشربين عن يمينه وقـد كللت مغاني المعنيين كالعصبة الخضراء في جبين ذات الوسامة . وبعـد الشربين هضـابٌ تراكمت فيها وتلاصقت صخورٌ بلون الرماد كأنها بقايا الأحقاب المنطفئة في لجة الفناء. وامتدت في بعض الحواني الحمراء التربة كروم من الزيتون والتين والدوالي تهب للقمم العوابس بعض الانشراح ، فتتنفس في الجهمة وتلتمع فيها بوارق الحياة

وتنتصب عن يساره بعقلين ابنة الشوف البكر السارحة في القمة كقطيع من الشياه انتشر في الأكمة يرعى. وما تحت بعقلين غير جلاميد وكروم وأشجار من سنديان وزيتون . على أن الوعورة واليبوسة تغلبان السماحة في تلك الأرض الشبيهة بمقالع الحجر وقد عطلت من النداوة. وبجانب بعقلين جبل أصلع حاولت يد الانسان أن تستنبته الدالية فشيدت فيه الجـدران ومهدت فيه الحقول ، إلا أن الصخر الصلد ذهب بالمجهود وكان للشوك اللئيم الناب في ذلك المنحنى الأربد حصة الضرغام

وقامت بيت الدين على رابية انتعشت فيها الدوالي،ولكن بهمة السواعد الجبارة وليس من مورد لمن نشأ في هاتيك الأعالي الضنينة بالعطاء غير مـا تستولده الأرض على رغمها من جنى وحصاد

ومن ضمته الصرود الشحيحة بالبسمة ينهد الى تفريج ثناياه عن ضحكة خضلة. وان يكن للأمير خول وخدم،وجند ونساء حسان،فليس له في هذا الحشد من يحيي فيه مرح الشباب . وتململ وهو يجيل عينيه في سعـد المظلم الحلة والوجه. وتراءى له مستشاره على مغالاة في مخاوفه من المملوك الشريد. فأي غول هو الجزار المفلول الأظفار والأنياب وقد أقبـل الى دير القمر

يستجدي العطف والرفد؟... واذا تمرد فسيجد في رب الامارة أسداً يهصره والأمير يوسف يقبض منه على الرسن. لا، ليس لأمير جبل الدروز أن يرهب جانب ذلك المستجير به، الواهي العزم، الناضب اليد. فان سعداً يحاذر أن يتقدمه الجزار في خاطر مولاه فأقام الحوائل والسدود

وطاب للشهابي أن يصدم مستشاره صدمة تجنح به عن الوقوف دون شهوات سيده كلما همّ باجتذاب المرح. إلا أن الجرأة فاتته وما يزال يحس بأن لسعد عليه وفراً من سلطان. فهو يعرف أنه سيد هذا الشيخ الهمّ، وان روحه بيده. فليس له إلا أن يومىء كي تطير أنفاس سعد الخوري صالح الرشماوي عن هيكل التراب. ولكنه موقن ان لا غنية له عن هذا الملتحف بزيّ الكهنة وليس فيه منهم غير الزيّ. فالسياسة كوته بميسمها وقادته في مزالقها فالتهب بنيرانها لا يرعى سوى حرمة الامارة، وكل ما يصون هذه الحرمة مباح سواء كان حلالاً أو غير حلال

وتكلم الأمير ببيان قلق حاول به أن يؤيد سعداً وتجنب تأييده فقال: سوف نرى يا سعد. إذا بدا لنا من هذا المملوك اللاجىء الينا أنه غير سليم الدخلة أبعدناه. فلسنا بحاجة الى الخونة يرتعون في رحابنا. دعني أعجم عوده وسنقرّ أمره كما تستحب!

ونهض يبقي سعداً لحيرته. فأيقن المستشار الداهية انه لم يبلغ من نفس الأمير مبتغاه. فما زال الجزار أمنع جانباً. وليس بوسعه وهو الشيخ الرزين أن يمزح ويلهو كابن ثلاثين. فالطبع يخونه. وساءل نفسه عمن يدفع الى الأمير يضاحكه ويأمن شره. والتفت الى الجميع فلم يقع على أحد. ابنه غندور ليس في عمر يبيح له مجالسة الأمير وممازحته. وابن شقيقته جرجس

باز لا يرجح غندوراً سناً. ومشايخ آل جنبلاط وابي نكد وعماد يلتزمون جانب الوقار ومن المحال أن يدرجوا في صعيد المزاح. واذا قام فيهم ذوو مفاكهة فان سعداً ليتفادى من دعوتهم الى مؤانسة الأمير لئلا ينافسوه في خطب مودة الشهابي

وبحث ابن الخوري صالح الرشماوي الرحب الخيال وشخص له أنه اهتدى. ففي دير القمر أبو عجاج الساخر وهو على جانب خصيب من خفة الروح، إلا أنه من الخلطاء وليس يحسن الجلوس الى سيد البلد. فانه ليجيد إضحاك أمثاله، أما أن ينفذ الى نفس الأمير فانه لينوء بالمطلب وكل ما فيه يقصيه عن الصرح. فلا شكله يسعفه، ولا منطقه، ولا سمو فكاهته. فما زال الأمير يوسف، مع فرط بلادته، في مقام يعلو به عن الزعانف في مجال الذوق والفهم

غير أن سعداً شاء أن يحاول ولن يبيح لغريب ولا لقريب أن يتقدمه في مجلس الأمير. خسىء الجزار!... ونادى اليه أبا عجاج. ولا بد من كنية ينعم بها كل من حبا تحت تلك السماء. فهذا أبو طحال، وذاك أبو كرش، وذلك أبو اصبع، والآخر أبو حشيش، حتى منتهى السلسلة. وأبو عجاج ذو وجه ممسوخ يحمل الراني اليه على الهزء لغرابة المشهد وقبح الصورة. فقد التوى الفكّان، وجحظت العينان، ونتأ الأنف كأنه الشفرة، وتهدل الشاربان، وضاق الجبين، وضمر الجسم. وارتفعت على الرأس لبّادة سمراء طويلة كقبعات المساخر تبتغي أن تشدّ بصاحبها صُعُداً وهو اللاصق بالتراب. فما كان ليرتفع غير أشبار قلائل عن سطح الأرض حتى ليكاد يكفيه من النسيج ما دون الذراع. هو لبّادة أكثر منه إنساناً

وليس لمن يبصره إلا ان يقهقه ضحكاً قبل أن يسمعه . وما أن يسمعه حتى تشتد به القهقهة ولكل كلمة يطلقها أبو عجاج نصيب من الفكاهة ورقّة الظلّ . وما خلا هذا الدحداح من لسان اطول منه . فيقذف به عضوضاً نهّاشاً متطاولاً على الكرامات ولا يبالي كأن له من دمامته ومن رهافة مباسطته شفيعاً . بل أن الملذوع ليتقي الاساءة اليه مع عنف اللذعة إشفاقاً على الهيكل الهزيل من قسوة الضربة وليس يطيقها

والى هذا البُحتر المُزَأة فزع سعد الخوري في كسف الجزّار . فناداه اليه يستطلعه رأيه في ما يندبه له . فغار أبو عجاج في الأرض رهبة وإجلالاً . فمن هو كي يدعى الى نادي السيد الرحب الفناء ؟.. وهشّ له سعد وبشّ وقال: جاءني عنك أنك ريّان المداعبة ، حلو القولة. وشخص لي أن أزجيك الى مولاي سعادة الأمير تسرّي عنه ولك جائزة ثرية !

فأعلن أبو عجاج وهو يرفع يده الى صدره ، ويطوي رأسه ، ولم يكن يبلغ مع وقوفه وطول لبّادته هامة سعد الخوري المستوي على مقعده : أطال الله عمر مولاي الشيخ ، ان في لساني الحلو لمرارة لست أدري كيف أتقيها بين يدي سعادة الأمير ولا حلو بلا مرّ . وأخشى أن يجمح بي هذا اللسان فيصيب بعض رشاشه سيد البلد فلا تحمد عند ذاك المغبة . أطلب الى مولاي أن يعفيني من شر التجربة !

وتبسم أبو عجاج لهذا المتنكر للبسمة وما يبديها الا وفي صدره عليها حقد. فشدّد عليه سعد في المثول في حضرة الأمير قائلاً بنبرة صلبة: أُريدك على دخول الصرح واضحاك سعادة الحاكم . وهل لمثلك أن يطمع في هذا الشرف ؟... هي فلتة من فلتات الزمن قد ترفعك الى حيث تبلغ أوج السعادة، فلا تتقاعد

عنها وفي انتهاز السوانح مغنم !

فقال أبو عجاج وما زال يبتسم : وقد تطوّح بي الى حيث أغيب في الحلكة . ان لساني لذو حدين قاطعين . واذا سلمت حتى اليوم من أذى الناس،وهم يغفرون لي لدغاتي،فأنّى أسلم من سخط الأمير وهو المتمادي النقمة، الصعب الارضاء ؟

فهتف سعد : أتخاف وأنا حاميك؟.. فما أجرّك الى الموت فيما أسوقك الى الأمير ، بل أقودك الى موئل الرغد والثروة . هؤلاء الشهابيون ملكوا الأرض ومن عليها . وانهم لعلى سخاء جموح وما نزال نتمثل بعطائهم جود الخلفاء الميامين . يعطون وينسون ما أعطوا . ويغنمون ويجهلون ما غنموا . فاللائذ بهم يستولي على بساتينهم وقطعانهم وغلالهم وهم عنه في وادٍ سحيق. فادخل باب الثروة وقد فتحته لك بيدي،واعتب عليّ ان تكن من الخاسرين !

وبكر في الصباح الى الأمير يوسف يفيض بالحديث عن أبي عجاج وبدائعه . قال : إنه لسيد النكات والمُلَح يا صاحب السعادة . فما يبقى ذو حس يصغي اليه الا ويغرب في الكركرة . وقد تهافت الناس على مجالسته حتى ليقضي نهاره وليله في بعث الانشراح في القلوب الصدئة . وأرى أَن يعتمده مولاي في احياء ساعات البهجة وسيكون عنه وافي الرضى !

فازدرى الأمير ذلك الشبر السائر في الأرض وكأنه نملة .أيقيمه سعد بمقام الجزار الرائع الطلعة ؟... وماذا يملك أبو عجاج من أساليب المفاكهة غير التهويش والتجريح ،مما لا تطمئن اليه الصروح الطامعة في المزاح الأنيق يجهر به ذو قدر ، لا سَقوطٌ زريّ يتجنّبه ذوو الحمية؟... قال الأمير يوسف بنبرة ران عليها الامتعاض:أنستجيز لهذا الدميم أن يحضر مجالسنا يا سعد؟...

ولكن أنفتنا تشقى بـه إن نحن فسحنا له البنـا . سمعته ذات مرة فما أنكرت عليه إجادة الممازحة وهو الساخر في شكله ونظرته ولهجته ، الا ان حقارته صدّتني عنه فلم أحتمل رؤيته مرة أُخرى !

غير ان سعداً أبى أن يتراجع وغده ومكانته في خطر . قال : ماذا على مولاي وقد جمع بين أبي عجاج والجزار ، أفلا يشهد مجلساً يروقه وهما في حضرته يفيضان بمزاحهما ؟

فطرب الأمير للفكرة . أجل ، ماذا عليه وقد جمع بين الاثنين وأصاخ الى مباسطتهما،فيعرف أمضاهما قولاً وأشهاهما هزلاً ؟...قال بادي الفرحة : نعمَ الرأي يا سعد . سنحيي في القصر إحـدى الليالي الماتعـة ونحن نلقي اليهما مسامعنا !

ومهد سعد الى هذه الليلة . وما ابتغى منها سوى قهر الجزار وفي عرفه ان أبا عجاج أرهف ذهناً ، وان الجزار يتكلف الممازحة وهي ليست فيه طبعاً أصيلاً.ودير القمر بأسرها درت بالليلة الأنوس وسيتبادل فيها أبو عجاج والجزار الفكاهة ، ويثيران الضحك ، وينعشان الصرح الحزين .والامراء في سوادهم الأعظم هرعوا الى الاستمتاع بالمسامرة وليسوا يجهلون أبا عجاج . أما الجزار فهم منه ازاء مغمور.وراق المملوك أحمد بك أن يبدو في الحفل وأن يتدفق بما لديه من القول الفكه فيخطب مودات القلوب،ولا سيما قلب ذات العين السوداء المتلألئة المفاتن كأنها ينبوع الحسن

ودلف الى القصر وقد ارتدى صدرة مطرّزة بالقصب، يتدلى منها كمّان تلمع فيهما خيوط الفضة في حبكات ودوائر جمعت بدائع الصناعة .وانتصبت على رأسه عمامة ضخمة كعمائم المماليك المتعددة الطيات، المرتفعة كالهودج.

وتعطر وفتل شاربيه وأصلح هندامه كأنه أحد الولاة العظام. وشاهده الحفل فراقته طلعته المجلببة بالبهاء والوقار. ووقف له الأمير مرحباً فنهض له الجميع حتى سعد الخوري .. وأدى التحية بسماح لا يستثني أحداً. وابتسم لأبي عجاج الغارق في الأرض ولم يكن يعلو ساق منافسه. وعلت غمغمة طروب من وراء الستائر أطلقتها النساء وقد رغبن في الاستمتاع بالليلة الضحوك

وأخذ أبو عجاج والجزار ينثران مداعباتهما. فغلبت الكركرة على الجميع ولم يكن ثمة غير ضحكات تتزاحم فتملأ الصرح، وتميع لها القدود وقد أبدع بطلا المؤانسة في القول البهيج. ولم يقوَ أبو عجاج على الامساك بلسانه عن القدح والطعن. فالتفت الى الجزار يقول هازئاً برفيقه وقد غمزه عليه سعد الخوري: أراك بالغت في تضخيم عمامتك، فهل خشيت ان يطير عنك صوابك فرفعت عليه هذه الأكداس كي تثبته في مكانه ؟

فاندلع الهزء بالجزار. وتطايرت قرقرة سعد الخوري كقذيفة انفجرت فتجاوبت أصداؤها في رحاب الصرح. والتفت اليه الجزار بعين تبطن النقمة. وردّ على أبي عجاج بقولة المزدري: ما بالغت في تضخيمها الا لأخفيك في مطاويها وهي لمثلك أشبه بمجاهل لا قرار لها، فتضيع في شواسعها!

وأمسك به يرفعه اليه كأنه الابريق ويلقيه الى رأسه ويطوف بـه في الجالسين والقهقهة تأخذ بالقهقهة، والجزار يصيح: أين أبو عجاج ؟... هل من أبصره فيكم ؟... لقد ضاع المسكين، مع ان البلد بحاجـة اليه ليردّ عنه هجمات الزرازير!

فمادت الصدور لفرط الجذل. وأيقن الجميع ان الجزار أرحب باعاً في احياء الانس. وصاح الأمير يوسف: عشت يا أحمد بك، أنت سيدها!

وعلا التصفيق في القاعة الفسيحة وهتف القوم للجزار. وشعر أبو عجاج بالخيبة فانتابه البكم. ليس له ان يجري في ميدان هذا المملوك اللاجىء الى حمى الأمير. ووقعت عين الجزار على عين سعد الخوري في وميض ينذر باتقاد النار. فالقلبان انطويا على كاسح الغلّ ولن يخمد لسخائمهما أوار. فما عالن به الجزار مملوكه سليماً هو ما أضمرت النيات. فالمجال لا يتسع لاثنين، فإما سعد وإما الجزار

وأعاد أحمد بك منافسه أبا عجاج الى الأرض متهكماً به على مرأى من الحشد الغائر في الضحك المديد. فتوارى أبو عجاج في إحدى الزوايا يخفي هزيمته وقد تعجب من خمود ذهنه. فالكلام خانه كأنه العييّ مع انه لم يتلجلج في وقفة. الا انه سوء طالعه وحسن حظ الجزار. لقد طوّح به سعد عفواً مع انه طلب اعفاءه من المغالبة الصائرة به الى المخزاة

ودعا الأمير يوسف المملوك أحمد بك الجزار الى الجلوس على مقربة منه وخلع عليه عباءته وكيساً من المال. وما تناسى أبا عجاج فخصه ببعض العطاء. وتألم سعد الخوري وقد شعر بالطعنة تنزل بصميمه وهو يشاهد ما صار اليه صنيعته من اخفاق. وما كان هذا الاخفاق ليهزّ أبا عجاج بمقدار ما هزّ سعداً والجرح فار في كبد مستشار الأمير حتى خضّب الحواني. فليست الهزيمة هزيمة مضحك حقير، بل هزيمة من بنى إمارة وأمسى يحاذر وقد وطد دعائمها ان ينقلب فيها عن مقعده الوثير

وطغت عليه الكمدة وتوالت على حنجرته الغصص الشوائك المناديات بقرب الأجل. ولكن سعداً ليس بمن تقوّضه كبوة وصدره الرحيب يتسع لوقع الدواهي. فمال على الجزار يصافحه وما عزّت عليه البسمة. ففي نفس

ابن الخوري صالح الرشماوي من مذخور الحنكة ما لا يضيق به عن المسير في كل مدرج . والطرق جمعاء في عرفه تصل به الى هدفه ولن يصعب عليه تسخير أحكام الزمن لشهوته . فما دام الجزار أمسى ضربة لازب فمرحباً بالجزار . ولكن الى حين . سيحتمله ريثما يتفق له أن ينصب شركاً آخر لاقتناص هذا الخصم العنيد

وأبصره الأمير يوسف يصافح المملوك أحمد بك وينفحه بالتهنئة فهتف به : هل أيقنت يا شيخ سعد اننا لسنا مغبونين في انضمام أحمد بك الينا ؟

وخلع عليه لقب « شيخ » . وللأمير لبنان ملء الحق بمنح الالقاب لمن يراهم بها على جدارة . فيهب لقب « أمير » ولقب « مقدّم » ولقب « شيخ » لمن يصطفيهم فتحملها ذراريهم على مرّ الأحقاب . وهو ما أصاب الساعة سعد الخوري . فأمسى شيخاً على المدى ولسلالته ان تجد في لقبه عنواناً دائماً لها . وقد يتفق للأمير اللبناني ان ينادي عفواً بهذه الألقاب من حوله من الناس ، لا ليخلعها عليهم ، بل في ساعة من ساعات الغفلة ، فيمسي النداء عطية خالصة وليس لكلمة يعلنها الأمير أن تتقهقر عن مرماها ، وكلام الأمير أمير الكلام

وانفرجت أسارير سعد للقب وطمأن ظهره في حضرة مولاه يقول : شكراً لسيدي وقد حباني من نعمه ما يجاوز كفايتي . فاني لفخور بكوني ظفرت بالتفاته إليّ . أما أحمد بك الجزار فهو منا في السويداء . وما دام سعادة الأمير يرى فيه ذلك الوجه الكريم فكلنا على دين مولانا الأمير !

ولم يجهل انه يخاتل في القولة وقد تعمد المداهنة لاخفاء انكساره ونيته . فالأمير والجزار سيخضعان معاً لرغبته ولا عليهما أن يصولا الآن وسيستعدي

عليهما الزمن . والزمن سلاح كل من يجد في الصبر عوناً له على الشدة وهو الموفق في معظم الأحايين

وما تمالك الجزار ان يسائل نفسه وهو يبصر سعد الخوري يهفو اليه مهنئاً ويسمعه يخاطب الأمير بالقول الدميث المعسول : من هو الأدهى ؟... أأنا أم هو ؟... ان الوقح ليحبوني الود مع إيماني القاطع بأنه يكرهني حتى يتمنى لو يصعقني على الفور الردى !

وردّ الى سعد بضاعته . فهو يتدله هياماً بهذا الأبيض الناصية ، الأدهم البردة . قال : كلنا يستظل جناحك أيها الشيخ الحكيم . فما لرأي تبديه ان يلقى فينا المناهضة وجميعنا لك من المؤيدين !

وجنح كلاهما الى التغرير بالآخر وقد انبسطت البسمات الخوالب في الأسارير . وشخصت أبصار النساء الى الجزار وهو وجه ليلة الأنس . وتكلمن فقلن فيه انه على رجاحة من رونق ولطف وشباب ، وانه يكاد يكون في حسن طلعته سيد الحفل . وأطنبت في امتداحه ذات العين السوداء والمحيّا البهيّ قائلة في أترابها : انه لمن النخبة . فلم يكن للقصر ان يتألق بهذا البشر لولا المملوك الفطين !

واشتهين محادثته ومرآه . وأغمضن عليه عيونهن . ما كان أحراه أن يربع بدار الامارة وبمثله يحيا الصرح ويطيب العيش . وفي الصباح الباكر ، برحت إحدى الوصيفات قصر الشهابي الى الخان تسأل عن المملوك أحمد بك الجزار وفي يمينها منديل من حرير معقود على زجاجة من العطر ، وعلى أسلة لسانها حديثٌ منمنم سمح ، كأنه حباب الندى على خضل الزهر

٥

استوى الجزار في دير القمر على أريكة من الشهرة وارفـة الأمد ، وطيدة الاس . فبات الجميع يعرفونه وقد أخذوا يتداولون اسمه ويروون عنه الاقاصيص الزاخرة بالطلاقة،الباعثة في النفوس الحبور المرنان.وانتقلت عدوى قهقهته الى كل حنجرة وما ان تذكره الأفواه حتى يغلب الضحك على كل روح، ولا يتمالك حتى الحزانى المهج عن الاختلاج بهزة الاغتباط

وزادت قهقهته في نباهته . هذه القهقهة الجارفة كأنها هدير ساقية نبعت في فيض الأمطار. فيؤديها في وثبـات سوابح كقرقرة الجن والعفاريت . واذا لم يأذن سامعها بما حفز اليها ضحك لها عفواً دون ان يدري بما دفع الى السخاء بها بلا إمساك

وانتفض في سويداء الجزار العجب الحفيل وقد نعم بالفوز في الليلة الساهرة وهزم فيها سعد الخوري لا أبا عجاج وحسب . ومن هو أبو عجاج ، هذه الخنفساء السارحة في مدارج الاقدام ، الشبيهة في بعض مظاهرهـا بالناس والغريبة عنهم في معظم أشكالها؟... أتجرؤ على دخول صرح الأمير لولا أن يسهّل لها سعد الى حاكم لبنان ؟

ولم يغب عن المملوك الشريد مرمى سعد وهو يسنّي لأبي عجـاج الى مولاه.فما رام سوى إبعاد الجزار واقناع أمير جبل الدروز بان له في قومه عن ذلك الطريد المستظهر به غناء . ولكنه أخفق في المسعى وعزت عليـه الرجاوة.وأبصره الجزار يتحرق غيظاً ويجرض بريقه لجسامة الخيبة . الا أنه نام على الغضاضة وجاد بالتهنئة على ابتسامة صفراء تضمر التنكيد.وهو دهاء

أقرّ به الجزار ، غير انه سيفلّ من غربه ويكعم سعداً في طلاقة يده. فلا يبيح له الاستمرار في السيطرة على الأمير ، وسيكون للجزار من الأثر في سيد لبنان نصيب الحظيّ وقد وفق لاجتذابه الى الايمان بطول باعه ، وسعة حيلته

وما لاحت له وصيفة القصر تتمايل بين يديه على غنج وتلتمس منه الخلوة حتى أيقن بخصب الجنى . سيصيب من الخير قدراً راجحاً وقد حطّ به القدر في أكناف رجل ميمون الطالع ، الا انه سقيم النظر. وما سأل الجارية عما يسوقها اليه على مسمع من مملوكه سليم وعبده أبي الموت، والموقف يفرض الحذر ، بل أبعدهما عنه وأغلق عليه وعلى الوصيفة باب الحجرة ، وأدناها منه يقول ببشاشة: ماذا تبتغين أيتها الصغيرة المليحة؟... بوسعك أن تتكلمي بلا خشية . فليس لاذن ان تعي ما تفضين به إليّ !

فقالت بصوت خافت وهي تتلفت الى ما حولها كأنها ما تزال على ريب بوفور الطمأنينة : أزجتني اليك مولاتي نسل شاه احدى نساء سعادة الأمير كي أتحفك بهذه الهدية . وألحّت عليّ في ان اخاطبك بمعزل عن الجميع. فهي بحاجة الى مرآك !

وألقت بين يديه منديل الحرير الملفوف على زجاجة العطر . فرفعهما الى رأسه وانحدر بهما الى شفتيه يقبلهما استكباراً وهو يقول : ليس مثلي حقيقاً بهذا التبجيل . لقد أولتني مولاتك شرفاً عظيماً يرجح كفايتي. فشكراً لهذه النفحة الزكية !

والوصيفة لا تعدو الرابعة عشرة ، الا انها على فطانة ونضارة . وتمثل الجزار وهي تحدثه عن مولاتها تلك السوداء العين، الطويلة الهدب، البادية له

في صرح الأمير. فقال بفرحة اجتهد في كتمانها: ولكن أين هي مولاتك؟... وأنى يتوافر لي أن اراها ؟

فعادت تتلفت وأعلنت بهمس : مولاتي في القصر ، وهي مع كونها إحدى نساء الأمير ليست شهابية العرق !

فهتف يتكلف الدهش وقد استقر بخلده انه ازاء من ترعى في ذهنه من الحواري العين: وأين بدوتُ لسيدتي مولاتك فعرفتني وطاب لها أن تلقاني؟

فقالت الوصيفة: أبصرتك وأنت تدخل القصر. وسمعتك في مجلس الدعابة فشاقها ان تراك . فهل أنت على أُهبة لموعد تضربه لك ؟

فأعلن بوارف البشاشة: وهل لي أن أقع من مولاتك هذا الموقع الأثيل وأن أشيح عن السمو المنيف ؟... كل موعد يلقاني في رحابه . ولمولاتك النهي والأمر. ولكن هل لك ان تصفي لي هذه السيدة الكريمة الخالعة عليّ منّتها ؟.... ففي أي قسامة هي ؟... من الجليّ انها في فتنة آسرة !

قالت وقد أشرق وجهها ابتهاجاً وإكباراً : أنت لو عرفت مولاتي لقلت هي البدر هبط الأرض. وما كان النور ليسطع لولاها. ففي عينيها السوداوين عتمة الليل، وفي جبينها الوضّاح بلجة الصبح. في قدها شموخ السنديان ، وفي خصرها انعطاف الخيزران . في أناملها لدونة الزهر الطريّ الأكمام ، وفي صدرها الناتىء صلابة التفاح المعطار. أهدابها السود من مخمل ، وبشرتها من نصيع الرخام !

فهاجه الوصف الخلوب الى ذات الأناقة وصاح: اذن هي من ساحرات الجنة!

فأبانت بجزالة في الاداء : ما أفلتت الا من هناك . ظبيةٌ ضلّت طريقها فهوت في النار !

فأوجعه ما يسقط اليه واستوضح : أتشقى سيدتك يا ... يا ... ولكن ما اسمك ؟... زاد الله في حلاوتك . لم تطلعيني على اسمك !

فأطرقت الوصيفة باستحياء وأجابت بلهجة امتدّ فيها الخجل : عبدتك جؤذر يا سيدي !

فشدّ بها اليه وقبلها في جبينها وهو يقول بنشوة من متعة : ما أشهى الاسم والجسم . لكأني أرى فيك مولاتك وأنت تتناهين في سرد آيات الصباحة فيها . وممن هي السيدة نسل شاه ، من أي قبيل ؟

فقالت جؤذر : هي شركسية من غادات الأناضول ، أهداها وأختاً لها الى الأمير يوسف وليّ نعمته عثمان باشا الكرجي ، والي دمشق ، لما استنفره لمقاتلة أبي الذهب فلبّاه . غير انه ما لبى الا بعد الأوان !

وابتسمت ساخرة . فقال الجزار مستنبئاً وقد تبين من ابتسامة الوصيفة مقدار الكره الراسي في صدر مولاتها للأمير : وهل تحب سيدتك نسل شاه سعادة الأمير يا جؤذر ؟... ألقيت في نفسي الريبة بخلوص هذا الحب !

فأجابت وهي على دين مولاتها : ليس في نفس سيدتي من الأمير أثر وقد خلت منه كالسماء الصافية من الغمام . وما ترتع فيه عنده من نعيم لا يرجح ما كانت تستمتع به لدى والي دمشق عثمان باشا . ثم هو غليظ في معاملتها ويأبى الا أن يذلها ولم تتعوّد نفسها الذل . ففي هؤلاء الشركسيات من الانفة ما لا يقصرن فيه عن الأميرات . وكان لمولاتي رفيقة هي « هان زاده » فذهبت ضحية انتصارها لكرامتها . عصت الأمير ، وقد امتهنها ، فخيّرها بين أمرين ، إما الطاعة وإما السم . فاختارت السم لفرط نفرتها من العسف وحقدها على مولاها !

فاتسعت عينا الجزار دهشاً . إذن لقد صدق رجال القوافل في ما قصوا على عبده أبي الموت . قال يخاطب الوصيفة : وهل تعتزم مولاتك عصيان الحاكم يا جؤذر ؟

– لا أدري . فكل ما تجنح اليه الآن ان تلقاك !

فأعلن وقد لاحت له في أحشاء القصر فضائح يقوى على الاستعانة بها في بلوغ المطمع : أنا في خدمة مولاتك يا مليحتي . فلتنشر في مسمعي أمرها وأنا المطيع !

فاستفهمت الوصيفة : أأعود اليك في ابلاغك الموعد ؟

– افعلي بلا ابطاء . أنا أبداً هنا وساعة تأتين فيها اليّ تجدينني !

فانسلّت منه الى القصر وما يبعد عن الخان الا خطوات قلائل. وحبت الى مولاتها تروي لها في وشوشة خفيّة ما تبادلت والجزار من حديث . ونسل شاه تصغي اليها بأذن مرهفة ونفس تفيض بالجذل الخصب . لم يخذلها المملوك أحمد بك. قالت تستوضح وصيفتها: وهل طرب وأنتِ تحدثينه عني؟

فأبدت جؤذر متحمسة : لقد ماع طرباً وعالنني بانه لك عبدٌ قنّ !

– أيقبل اليّ ساعة أناديه ؟

– ساعة تتحرك شفتاك لدعوته فهو بين يديك !

– وهل رويت له ما أعاني من خشونة الأمير ؟

– ما كتمت عنه خبراً يا مولاتي !

فساءتها هذه الاستطالة في الايضاح وآثرت لو علم الجزار انها ترتجي لقاءه عن خالص هوى لا عن رغبة في النجدة . الا انها لم تحنق على وصيفتها ولن يضيق بها ان تنفي في حضرة المملوك الشريد ما صارحته به جؤذر . قالت:

عودي اليه في الصباح وعالنيه ان اللقاء بعد غد،يوم الجمعة،في عين الحيّات. فأجري واياك امامه ويلحق بنا !

وعين الحيّات تحت القصر في بطن الوادي. انفجرت في الصخر على شطّ غدير يظمأ في الصيف الى قطرة من الماء تبلّ حلقه . وحول العين حقول نما فيها الزيتون والتين والدالية ، وكهوف تأوي اليها الثعالب والثعابين. وفي صدر الغدير يرتمي الجمّ من السواقي. وثمة ظلال لينة المثوى ، هانئة المقيل. ومن عادة الأميرات ونساء القصر ان ينحدرن اليها لقضاء ساعات من شهيّ الأنس. فيظهرن فيها سوافر وليس لبصر وقح ان يجول في ما تكشّف من اطرافهن . ويأخذن في المفاكهة وفي الغناء . ويحملن التوابل والموالح . وينقرن العود والدفّ : ويرقصن ويضحكن غير متحرّزات

وجؤذر درجت في البكور الى الخان تقرع باب الجزار . وما أبصرت أحمد بك حتى أومأت اليه بابتسامة رضيّة ان تعال . فهفا اليها يقول وهو يبادلها البشاشة : مرحباً بك يا جؤذر ، هل من خبر ؟

فأعلنت بما يفرض الموقف من همس : كن في صباح غد تحت القصر والحَقْ بنا الى الوادي . هناك مكان اللقاء !

– أتكونين فيه وسيدتك ؟

– أنا وسيدتي . أما أنت فكن وحدك . استودعك الله !

وطارت الى القصر كالفراشة. لقد قامت بما عليها وسترضى عنها مولاتها. ووقف أحمد الجزار كالمشدوه. ان المقادير لتسوقه في معابر لم يحاول انتهاجها. ورأى أن لا يتماسك عن الاندفاع فيها . فهو ليس في لبنان حيال علي بك الحكيم ومحمد بك أبي الذهب الناطقين بلغة السيف والبارود، بل تجاه قوم

يتخاطبون بلسان العنبر والياسمين . وانه لمنطق يجيده أحمد بك كما يبدع بيان السيف القاطع

وعاد يتوسط الحجرة مسترسلاً الى خواطره وقد خضّبت له الحياة في دير القمر بكل لون برّاق. وتراءت له المباهج زاحفة اليه على فيضان ، فهل انتهى عهد الشقاء ؟

وسرّه أن يكون اختار لبنان مستقراً وقد نبت به كل ارض تحت كل سماء. وصمم على الوقوف بعد غد تحت القصر واللحاق بالجارية والوصيفة الى حيث تقودانه ولن تجازفا به . فقد يكون غده المستطاب في خطو نسل شاه . ومشى الى مقهى سطوح الخرج وشبقه يتنفس عن كثيف الدخان . وجلس في حلقة نهض له جميع من اتسعت لهم من هؤلاء الطامعين في الالمام بالانباء. وتكلم يعطي من مزاحه ومن جده . وأيقن ان منزلته جاوزت الأمد وقد أضحى كلهم يناديه : « يا مولانا ! » . ولم يشأ ان يبدو دون ما رفعوه اليه من قدر فانبسطت يده تؤدي عن هؤلاء جميعاً كل ما عليهم لصاحب المقهى من بدل دخان وشراب

وللكرم أثره المكين في النفوس. فما بقي في ساح دير القمر ودورها من لا يشيد بمنزلة أحمد الجزار. وهو ما ابتغى المملوك الطريد اللائذ برحابة الشهابي. وما ان يخلو بمملوكه وبعبده حتى يأخذ في لطمهما واهانتهما بالقول القارص إمعاناً في اعلان فرحته . وينفحهما بالمال في مقابل ما انهال به عليهما من ضرب وشتم

وما تخلف عن الموعد وقد أقام منه على حنين المشتاق . فما طلع عليه البكور حتى كان يدلف الى المنحدر المنزلق تحت القصر الى أحشاء

الغدير . وبـدت له جؤذر عـلى سفور فعرفها وحبا في أثرها وأثر سيدتها وقد تقدمتاه . وصادف في طريقه الحمّالين والدواب يجرون الى دير القمر بالفاكهة وبالخضرة والحطب . وحياه الناس وسألوه في أن يجـبر خاطرهم بأكل عنقود من العنب أو حفنة من التين . وما استطاع ان ينجو منهم دون ان يملأ يديه بعطاياهم . فالضيافة لا محيد عنها في لبنان وخصوصاً حيال الغريب

وبلغت جؤذر ومولاتها صدر الوادي وتغلغلتا في جانبه الآخر في حقول من الزيتون والتين تعلو الكهوف . ودخلتا شبه كوخ ترقبان الجزار . ولم يطل انتظارهما وقد بدا أحمد بك في هنيهات خواطف ينحني كأنه في ديوان الأمير نفسه . والتفت الى رفيقة جؤذر وقـال بجمام الخشوع : سمعت فأطعت . ها أنذا بين يدي سيدتي !

وابتسم ابتسامة الاجلال . فسفرت رفيقة جؤذر تردّ التحية وإذا بها هي هي . ذات العين السوداء والهدب الطويل المتجلية له في صرح الأمير على فتون . وحدق اليها يستطيل في اكبار الحسن النضيد . لم تبالغ جؤذر في الوصف لما أسكرت سمعه ولبه برسم مواتع سيدتها . ومع الجرأة الجموح الكامنة في المملوك أحمد بك الجزار لم يجسر على الدنو من ذات الوسامة الريّا لولا ان تدعوه اليها بصوتها النغوم كأنه أوتار عود صادق المجس

وترنح وهي تأذن له في الاقتراب منها ، لا لكونها ذات روعة ونضرة وما خاب في هوى الرائعات النضرات وكان منهن في مصر على تخمة ، بل لأنها إحدى نساء الأمير ، وللمقام طاغي الأثر في الأرواح . فمن يجد ذات قـدر وخطر تتولـّه به غير من تهيم به احدى المبتذلات

وشعر الجزار وهو يدنو من نسل شاه بانه يجهل أين يلقي قدمه والفتنة المتلألئة لناظريه أضاعته عن نفسه . الا انه غالب فيه سلطان الصباحة العالية المناف كي يقوى على الوصول الى ذات الاشراق ومحادثتها بلا ارتعاش . ومدت له يدها، وقد أمسى منها وجهاً لوجه،تصافحه ومحياها يتوهج غبطة،وهي تقول بوفر من ايناس : أبي عليّ اعجابي بك الا ان ألقاك ، ابثك اكرامي.فأنت في خفة روح لها بعيد السيطرة على النهى والأكباد !

وأبقت يده في يدها . وما سعى لنزع يمينه من الراحة الرخصة القابضة عليها وقد شعر بخدَر مريء منعش في أعصابه ارتاح اليه. فطال عليه التنائي عن هذه النشوة العامرة تحيي فيه .كابي العاطفة وقد جنحت به متاعبه عن الانصراف الى متعة فؤاده المثقل بالاشجان.قال يشكر لهذه المتقدة النضارة حسن ظنها به : ان شهادتك لترفع عن منكبيّ اعباء الزمن الغدور . فما عرفت بلسماً ينجع في شفاء كلومي كهذه الكلمات المنسكبة من شفتيك النديّتين على قلبي الجريح !

فراعها مقاله . أيكون شقياً هذا المكركر كالشلال ، الفيّاض بالمزاح القاصف؟...ورنت اليه متعجبة مما يجاهرها به قائلة بألم:هل أوجعتك الأيام؟

فأذاع بصوت يبطن الحسرة: ما عرفتُ نفسي على هناءة الا يوم أقبلت اليّ جؤذر تحدثني عنك !

ومال الى الاستيلاء على كل عاطفة فيها وهو يعرف النساء ذوات اشفاق على البائس المنكوب ، وذوات هيام بمن يمتدح فيهن وقدة الحسن . فقالت بتأثر رهيف : ألم يكن للانس سبيل الى خاطرك ؟

وأرخت يده وهي على لهفة سبوح . وسرّه ان تبدي هذا الأسى وقد

دله على مبلغ حنينها اليه فقال : لم يكن له فيما مضى سبيل الى خاطري ، أما الآن وأنت تخلعين عليّ رفقك فقد زالت عني الكربة كأنها استقرت بضميري مدى ومضة طائرة !

فزادها به اغراء وقالت بابتسامة كئيبة تتماوج روعتها فتباعد في سحرها: اذن أنت مثلي. كلانا أدركه الغمّ وما عرف بعضنا بعضاً حتى تناسى مضض الوحشة !

فهتف ينكر ان يكون ثمة من ساواه في التعس : أأنت تعادلينني في مكابدة التباريح ؟... لا سمح الله . لست أرضى لك بهذه المحنة . فان ما عانيت من زمني لم يذق طعمه ذو حس . أنا مملوك ولا يخفى عليك أمر المماليك. ان هم إلا عبدان أرقاء شاء حسن الطالع ان يتنمّروا ويسودوا . غير انهم في سيادتهم عبيد بعضهم لبعض . وكنت عبداً لاخواني مع شديد سعيي للتحرر من ربقة الاسترقاق. وما اهتديت الى طريقي الا وقد رسوت في هذه القمة من لبنان . أما أنت فقد تنقلت من قصر الى قصر . وليس لربات القصور أن يقاسين البؤس والنكد . اتفق مراراً لأحمد الجزار أن يطوي ليلة على ليلة بلا عشاء !

فأبانت وهي ترى نفسها في عذاب لم يتقلب في جحيمه سواها: ألا ما أرحم الجوع ازاء السيد المفروض علينا عنوة . وددت في متعدد الأحايين ان أفرّ من سجني وأطوف في الأزقة والسبل مستجدية اللقمة . فامشي حافية، شبه عريانة ، مرذولة من الجميع ، الا اني في عرف نفسي ناعمة بالحرية وهي مما تخلو منه صروح الأرباب. ومن هي المرأة، ولا سيما الجارية، في هذه الصروح؟... خيال سريع الامحاء . واذا شئت فهي ثمرة طيبة المذاق، ولكنها تحت رحمة

ماضغها. فيطحنها باضراسه ويوجع منها الانفة ليطرحها نواة تغور تحت مواطىء الاقدام. هكذا كنت في صرح عثمان باشا الكرجي والي دمشق، وما أزال على حالتي من المهانة وانا في صرح الأمير يوسف حاكم لبنان. وقد يخطر لي أن أنام قبل الأوان فيسقط في يدي والعبودية غلّ يلازمني حتى الأمد. عشت عبدة وسأموت عبدة. أما أنت فما تعبّس لك الخلاص!

وبكت وتدحرج دمعها على خدّيها ينادي بحرقتها. وأدركت الرأفة الجزار مع عبثه بكل حنوّ فقال وهو ينظر الى عبراتها المتظلمة: أتقطنين بالقصور ولا تشعرين بالراحة؟... اذن أين تكون هذه الراحة ولم أبصرها في مكان؟... هل لك ان تدليني عليها؟... يحسد الجميع نظائرك على ما يغصن فيه من نعمى، فاذا بك تعالنينني انك تؤثرين الفقر مع الحرية على اليمن مع الاستعباد. أتعرفين أهلك؟

فأوضحت وقد اشتدت بها الكمدة: ليس لي أهل. ولو كانوا يعطفون عليّ لامسكوا عن مبيعي في سوق الدلالة. اني لوحيدة عزلاء في مغالبة النوازل. وربما اهتديت فيك الى رجل الانقاذ!

فراعته استنامتها اليه. انها لتثق بنصاعة ولائه. وأبى الا ان يكون ذلك المنقذ فقال يبذل من نفسه ولا يتوانى في تضميد الجراح: يشجيني ان تتبين لي فيك طعنة القدر اللئيم وما أبقى في جوانحك فرجة للعزاء. مع ان من يبصرك لا يجرؤ على الارتياب بانبساط الجذل في سريرتك. ألا كم تحجب الوجوه من شدة تحبسها الاضلاع. ولكني لن أتقاعد عنكِ. فلك ان تؤمني بمستفيض سعي للذود عن مهجتك وللحرص على اسعادك. فما كان الجزار ليتنكب عن اجارة اللائذين بنداه!

وجالت عيناه في عينيها تزفان اليها الشوق والاعجاب ، بل تنبضان بالافتتان مع جمودهما كأنهما في ذهول . فقالت وهي تمسح دمعها وتقدر على نفسها الابتسام : شكراً يا أحمد بك ، شكراً أيها السيد الأروع !

وخاطبته بالتركية لئلا تدرك جؤذر ما يتبادلان من حديث . قالت : ما كذب من أعلن ان الغريب نسيب الغريب . فكلانا بعيد عن هذه التربة وعلينا ان نتقارب كي نتساند. واني لاعهد اليك في أمري ولا أحسبك تبخسني حقي . فكن عوني على طمحات الزمان !

وتذللت له بلهجة بكيّة . وأمعنت في إيلامه وهي تستوسل بضراعة الى حميته ومعروفه. فقال بشدة في الاداء تحفل بمكين العزم على النصرة: لن تخونك مساندتي. فأنت في خاطري ورعايتي أنى كنتِ . ولا يخيل اليك اني ذلك الضعيف وقد أظهرت في مواقف الشدة مضاء الهمة . وسيبدو لك مني في هذه البقعة من الأرض اني لست عبئاً على الفضل والمجد . فاذكريني ساعة تحتاجين اليّ ولست لك غير الخادم الأمين !

فارتاحت الى هذا البيان المفرط في التأييد وقالت : ما خيّل اليّ اني سأخيب في اتكالي عليك . فما وقعت عليك عيني حتى أيقنت اني اهتديت فيك الى المودة اللباب . ولي زمن طويل أبحث فيه عن الخلّ الوفيّ ولا أوفق للمرجاة . فالحمد لله وقد ألقاك اليّ بلا عناء !

فطافت بأساريره البسمة الرخيّة . حان موعد الافضاء بالمنازع . قال : وانا ما أشرقتْ في عيني من توجحك حسناً . واذا كان للنواظر ان تضيء باشعة القلوب فأراني موفقاً بلحظاتي للجهر بما بي منك. فما كدت أراك حتى اتسع أملي وأيقنت اني لست بالمخذول في صرح الشهابي وانت مسعفتي في

مقارعة الخطوب . وانها لامنية شهيّة ان أراك بمعزل عن الناس وان أبثك اعجابي بمناقبك . فأنت ني نضارة الورد في موسمه، وفي بهجة الافق الصاحي في الشروق . وما اجتمعت هذه المفاتن لسواك من ذوات الرواء !

فاختلجت نفسها بالمديح الخلوب وزاد كلفها بالمملوك أحمد بك الجزار . قالت : لقد كنت سريعة اليك . بيد ان ما اكابد في صرح الأمير من ضنك أهاب بي الى العياذ بك بلا ابطاء كأني أعرفك منذ فارط عهد . وهذا شأن النفوس الناشئة على هيام بعضها ببعض دون ان تتعارف . فما ان تلوح العين للعين حتى يهفو الحبيب الى الحبيب كأنه لقي من يرقب مرآه ويوثقه به الحنين . وأنا مذ رأيتك قلت لنفسي : « هذا من تشتهين ! » . وسمعتك في ليلة السمر فما تماسكت عن ابلاغك شوقي الى مرآك . ولا أجدني على غلو في الايمان بان مودتنا لن يأتي عليها الحين !

فهتف : أجل ، نحن على وئام لن تفنيه لواعج الشجون. فالحاضر الموائم يوثقنا بالغد الواعد. وليس للحوائل الكامنة في القصر ان تقف دون طلبتنا . فسنتلاقى على رغم العقبات العُنُد القائمة دون جلوس بعضنا الى بعض. ولن تخفى عليّ الطرق الآمنة ولا عليك. وان تكن باكورة مجالسنا تنبض بهذه الحلاوة الزكية فماذا سوف نستمتع به من مباهج الآتي ؟

فاغتبطت وهو يعللها بامتع القوابل . لقد سئمت هوى السيد المفروض عليها وباتت تجنح الى طلعة الحبيب الصفيّ. فليست تطيق ان تبدو مجرورة بالرسن في أشواقها وهي ذات شعور يأبى الأسر . فاذا كانت مكرهة على الطاعة وعلى وأد ميولها ، وهي الجارية ، فمن حق هذه الميول ان تجاوز مرة

واحدة في العمر الطويل نطاق الكبح وان تسلك طريقها الى شهوتها بريئة من العنف . قالت نسل شاه وهي تموج في مسرتها : بصيص الأمل يكفيني في ظلمة يأسي . فقد أخذت أحس الآن بأني لست غائرة في ضريح النسيان وهناك من يقيمني منه في البواني . فاذا ما عشت مكعومة في سجني فحسبي ان اذكر ان ثمة قلباً يخفق بالحنوّ عليّ !

فأبان ولم يجد له غنية عن الاستظهار بالجرأة على استدراجها الى الافصاح: بوسعك ان تتمادي في الكشف عن الصبابات. فان ما بيننا من مخالصة تخطى الحنو وليس ما يقف بنا عن ان ندعوه حناناً ، وعن ان نجلو عنه كل غموض فنسمّيه حباً . وهل يضيم السيدة نسل شاه ان نكون حبيبين ؟

فصبغت محياها اللدن ، الأسيل، حمرة الخجل. بيد انها لم تتنكر للقولة المعلنة . وما يمنع ان يكون هذا الوئام ولوعاً ولم يبصر النور عن سوى جنوح الى خلع النير والسكون الى أُلفة تنعش القلب المكدود ؟... قال الجزار وقد لمس فيها انتفاضة الخفر: أأكون عدوت الحد المضروب فتفوّهت بما تنبو عنه اذنك ؟

فأجابت بعذوبة مستفيضة وهي مطرقة لا ترفع عينيها عن الارض: لك ان تبدي ما شئت وما أطيق الكتمان عنك اني لست غريبة عن هواك . والا فما كان ينزع بي الى الدعوة الى لقائك لو لم اكن منك على دكين جوى؟... أحبك ومن له أن يلومني وقد كلفت بك ؟ ... وهل لي ان التمس الحب الخميل ممن يرى في من حوله عبداناً ليس لهم ان يذيعوا رأياً،ولا ان يعتصموا بمشيئة؟...ما عرفت نفسي منذ تبينت لي حقائق الوجود غير نعجة في صيرة، تأكل لتؤكل لا لتعيش متنعمة بالرفاه !

واسترخت حياله كأنها لا تبخل بالاستسلام له . الا انه ما زال يبصر وراءها جاريتها فاكتفى بان يقبض على ذراعها وبان يضغط هذه الذراع ، فيتحدث عنه دفئه ونظره ولمسه . وانحنت عليه نسل شاه فسقط رأسها الى كتفه وتنهدت كأنها أدركت شاطىء الأمـان . فأومأ الجزار الى الوصيفة ان ابتعـدي . فامتثلت جؤذر ولم تكن تبتغي الا ان تبصر مولاتهـــا في مسرة ومتعة

وأدنى المملوك أحمـــد بك من فمه الثغر القسيم ، الوزين ، الملتهب صبوة الى القُبَل ونفحه منها بهبة الكريم . ومع كل قبلة أطلقت نسل شاه لهبة من انفاسها امعاناً في الاستمتاع باللذوى . ان الجزار لمعطـاء حفيّ . قالت جارية الشهابي وقـد ترنحت بخدَر اللثم والعناق : سنعيش الى الأبـد بولوعنا المصفّى يا حبيبي. فالزمن المعاند تصرّم وسيسخو علينا القدر الموافق بالبهيّ السنيّ .فلا بد للغمامة المطبقة من بعض انقشاع يجلو المأمول . يد الله الراحمة لن تسدّ عن المنكوبين بعض منافذ الحنان.ولا غناء في الرحمة عن نفيس المبرة . مع اني قنطت من هذه النعمة وما كنت أحسب اني سأبلغ من أيامي علالة من دعة. وكدت أقتل نفسي في أثر رفيقتي « هان زاده » يوم أقبلت على جرع السمّ . فما غشيني من لهفة وموجدة نفر بي الى الخلاص من جهمة العمر الجافي. الا انك بدوت لي وأزحت عن قلبي غشاوة التعس. فيا لك من سيد نبيل !

وانحنت عـلى يديه تقبلهما بلجاجة وتخفف عن صدرهـا اثقال العيش الذليل . فلقيت في المملوك الشريد شقيق روحها فاستنامت اليه تستند فيه الى المنافح عن المهجة المطموسة في الغيهب الشاحط الليل، وتستنشق اعرافه

العواطر وقد تمثلت فيه الرجولة المخصاب، والحبيب النجي". فهو من يلتفت اليه قلبها، لا ذلك المتقلب على سرير العز وليس ما يشفع فيه لديها في اجتذاب الروح والسيطرة على النهية. فالجزار المملوك شفى وحده فيها سأم الجفاف والتطير من الدهر الكفور

٦

ما هدأ علي بك الحكيم ، والي مصر المنبوذ ، في رحاب ضاهر العمر في عكاء ليكتفي بضيافة الشيخ ضاهر حاكم البلدة المبسوط النوال ، بل ليستعيد ما جازف به قائد جيوشه محمد أبو الذهب المتواري عن برّ الشام بين غمضة عين وانتباهتها . فانكفأ الى مصر مع ظفره بناصية القطر السوري ونزوله قلب دمشق سيداً عزيز المقادة. فأدهش التواؤه المفاجىء الجميع وهو السيد المنصور . الا ان نفسه الحافلة بالمطامع ساقته الى التخلي عن النصر الخفّاق البنود ، وعن حليفه ضاهر العمر ، ليرجع الى وادي النيل ويكيد فيه لسيده علي بك ويسلبه أعنة البلد

وما عزّت عليه المرجاة وقد هدم بمولاه السدة،واعتلى الأريكة،وفي نفسه من فائر النقمة على سلفه المطرود ، وأنصار سلفه ، ما اهتز له فرَقاً أشياع علي بك . فما أبطأ معظمهم في جحد مولاهم حرصاً على رؤوسهم ، والا تناثروا أشلاء تتخم القبور

وأقلق أبا الذهب أن يسمع بمجهود خصمه في سواحل صور وصيداء وقد أغار عليها علي بك الحكيم ينجده حليفه ضاهر العمر، فاقصيا عن صيداء واليها درويش باشا ابن عثمان باشا الكرجي

ولجأ الابن الى أبيه مستغيثاً . فطرح الأب الصوت على الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان ليظاهره على المغير المجتاح . ومن للنجدة غير الاخوان والأعوان ؟... ووصل رسول عثمان باشا من دمشق الى دير القمر مجتازاً اليها البقاع والغسق يلوّن الآكام والأودية بدكنته، وأنوار مصابيح الزيت

تتقد في المنازل والحوانيت،والعسس يطوفون في الشوارع والأزقة لحراستها من المعتدين

واحتشد في قاعة القصر،حول الأمير الفتى،نخبة من أرباب المكانة بينهم سعد الخوري ، والجزار ، وعلي جنبلاط ، وكليب أبو نكد ، وعبد السلام العماد ، وشاهين تلحوق ، يتساقطون الحديث ويروون أخبار نكبة صيداء ، وفرار درويش باشا الكرجي واليها . فقال سعد بنافذ فطنته : لنكن على أهبة يا سعادة الأمير ولا بد لعثمان باشا ان يستعدينا على ضاهر العمر وعلي بك الحكيم . نحن واياه على السراء والضراء ومن المقدور علينا ان نجيب !

فقال علي جنبلاط لا يتهيب خوض الغمرة : وما يقعد بنا عن الاجابة ولعثمان باشا يد علينا؟... فان رجالنا ليملأون السهل والوعر وكلهم يتحمس لاراقة دم الرقاب فدى صاحب السعادة مولانا !

وقال كليب أبو نكد : كلمة واحدة يلفظها سعادة الأمير تردّ المناكيد الى أوجارهم . فما نحن سوى اتباع مولانا سيد النجد والغور !

وعرض الجزار سيفه على ولي نعمته معلناً : ليتكرم علـيّ رب الأمر بقيادة فوج حميّ أفلّ به من حد المستذئبين . فلا نبصر من علـي الحكيم وضاهر العمر ورجالهما غير الاقفية !

فضحك الجميع وما برح لديهم الجزار ذلك الساخر الهُزَأة. وأوجعه ان يستهينوا بخطره فقال يعتدّ بنفسه : ولكني ما أحجمت في مصر عن اقتحام موقعة، ولا عانيت شر كسرة. فكنت أثب بجوادي على المناوئين أتخطّفهم بسيفي كأني حيال سنابل آن حصادها . وسيبدو لكم مني في منازلة ضاهر العمر وحليفه علي الحكيم ما تكبرون به في الجزار ضلاعة الغلبة . فما كان

لرمحي ان يهون في الكفاح وما أغمده في صدر الا لأزجيه الى صدر . فامزج دماً بدم واشتت شمل المتوقحين. وسيحاربكم القوم بالمغاربة لعميدهم أحمد آغا الدنكزلي،وهم فئة من الاشداء باعوا أنفسهم لضاهر العمر السخيّ الكفّ . على ان الجزار يكفيكم شر هؤلاء المقاحيم !

والمغاربة جماعة من المرتزقة أقبلوا من كل فج وصقع يقفون أنفسهم على الاوسع بذلاً. ووقعوا في ضاهر العمر، والي عكاء،على يد منّانة فاستظلوا رايته ومشوا في نظيرة كتائبه يحتلون صيداء وينادون فيها بسيادة الشيخ ضاهر المسماح.وتصدر قائدهم الدنكزلي صرح المدينة يتوعد ويخلع الأكباد من أنوطتها

والتفت الجزار الى الأمير يوسف يسأله هل من قيادة يخصه بها . فاتجه الأمير بالطلبة الى زعماء الدروز الجالسين بين يديه . فاستنكفوا من الاجابة وليس في بني معروف من يرتضي المسير في ركاب قائد غير لبناني . وغاظ الأمير يوسف ان يلقى المملوك أحمد بك هذا الفتور في رجاله الدروز فقال بحنق: أنا أعقد لك على جماعة من جنودي المسلمين والنصارى يا أحمد بك، فلا يغضبك ان لا تجد سميعاً في بني معروف !

واطربت رغبة الجزار سعد الخوري فقال بدهائه التليد : في جيش الأمير مجال فسيح لارضاء شهوة أحمد بك الجزار . فلن يبخل عليه صاحب السعادة،حاكم البلد،بما ينيله المنى.ولسنا نجد له في كل آن نديداً نجابه به الصعاب !

فحدق الجزار الى الشيخ سعد الخوري وابتسم وقد ادرك نية مستشار الأمير . فما يبتغي الا النجاة من هذا الستار الصفيق الحاجب عنه طلاقة

النفَس . وكان رسول عثمان باشا الكرجي قد دخل الصرح يعلن أمره. فهو مقبل من دمشق في رسالة مستعجلة يحملها الى سعادة الأمير

وما غاب عن جميع من حفلت بهم القاعة ما ينطوي عليه كتاب الوالي. والتفت الأمير يوسف الى جلسائه يقول : ما أراه الا مستنجداً بنا !

وعالن حاجبه بقوله : ليدخل رسول عثمان باشا !

وبدا بالباب رجل على مديد قامة،وحسن طلعة .ضخم العمامة، فضفاض العباءة ، أحدب السيف . وانحنى بين يدي صاحب السعادة ورفع يمينه الى صدره ، فالى جبينه، يؤدي تحية الاكرام . وتكلم بلهجة الاجلال فقال : يسرني ابلاغ سعادة الأمير سلام مولاي صاحب الدولة والي دمشق . فهو يعالنه بالرضى ، ويدعو له باليمن ، ويوجه اليه هذا الكتاب السنيّ !

وألقى بين يدي الأمير رسالة صفراء الغلاف ، مختومة بالشمع الأحمر . فهتف الشهابي وقد نهض للرسول،وجاراه في النهضة جميع من ضمهم المجلس : مرحباً بمندوب صاحب الدولة المعظم.كلنا في طاعة والي دمشق العالي الشيم. أرجو ان يكون بخير !

فأجاب الرسول وما فتىء ينحني ويلقي يده الى صدره فجبينه : مولاي في عافية وتوفيق يسأل ان ينعم بمثلهما صاحب السعادة . ولقد حمّلني الى سيدي الأمير من الأشواق ما ينوء به عاتقي.والحمد لله على اني أبصرت أمير لبنان الكريم بهناء !

فدعاه الأمير الى الجلوس وفسح له بقربه يبالغ في استطلاعه أخبار عثمان باشا ، وفي الاحتفاء به وهو رسول ولي النعمة . وفضّ الرسالة وما غاب تخمينه عن فحواها . والي دمشق يستعديه على ضاهر العمر وعلي بك الحكيم

وقد أغارا على ابنه والي صيداء وهزماه وحرماه ولايته . قال الأمير يبدي الامتثال : ليس فينا من لم تصدع الملمة لبه . فالمشاغبان بالغا في العداء وفي التجني . ودرويش باشا يعلم كم بذلنا له من النصح كي يعود الى مقره ونحن بجانبه . فلقد مرّ بجوارنا في انطلاقه الى أبيه في دمشق، فدعوناه الى الرجوع الى قاعدته وكلنا في النصرة . ولكنه رفض وآثر الالتجاء الى والده صاحب الدولة. وضهور السمقانية القريبة منا ، المتوسدة كتف بيت الدين ، تشهد ما بلغ منا الالحاح عليه في العودة ، ولن يجد فينا غير انجاد مساعير، نقهر أعداءه ، ونوطد له الأريكة ، فأبى !

فأعلن الرسول بمفرط البشاشة : وقع النبأ البشير في مسامع عثمان باشا واحرز الاعجاب والايمان بصدق الولاء . ومولاي يرجو المضي في النهج السويّ وانقاذ صيداء من قبضة مغتصبيها !

فاذاع الأمير ببعيد الحبور : وهو ما ننهد اليه بحثيث اليقين بالغلبة . سوف يرانا عثمان باشا شوساً في المواثبة ، أكفياء في ادراك الظفر . بوسعك ان تعود اليه وتجاهره بانك لم تجد في لبنان على بكرة أبيه غير آذان سوامع ، وسيوف لوامع ، تتنافس في الاذعان لرغبة صاحب الدولة المطاع !

فابتسم الرسول وقال بوارف الغبطة : وهو ما رقب مولاي ان يلقى في أكنافكم العامرة بالحمية . فما كان لبنان الا ذلك السائر في الطليعة في ساح المكارم والهمم !

فأشار الأمير يوسف الى الزعماء الجاثمين عن جانبيه في البهو المزخرف الجدران والرياش وقال : أتبصر هؤلاء السادة الندباء ؟ ... ان وراء كل منهم جيشاً جرّاراً لا تنتهي له فورة . وكلهم أوجعه ما صار اليه درويش

باشا من ملمة واعتزم ان يفديه بالروح . ولكن والي صيداء أمسك عن الالتفات الى الطلبة والنصيحة ولاذ بدمشق. اما والأب يريدنا على ما تجانف عنه الابن فكلنا على أهبة للتلبية . مرحباً بالنزال !

فأعلن الرسول وقد سرّه ان يلقى سيده تأييد الأمير اللبناني : ما ارتاب قط مولاي برفيع الحفاظ . فأطلقني اليكم وهو على يقين بانه لن يخيب في العون . وسأرجع اليه وأبدي له ما لقيت من ايناس وجنوح الى المساندة . وستتفقان معاً على تنظيم الخطة واقرار موعد القتال !

فحدج الأمير مستشاره سعد الخوري بعين مستوضحة. فقال سعد وليس يخفى عليه ان المسير في ركاب عثمان باشا أقوى دعامة لبقاء الأمير يوسف في السدة : اننا لحلفاء اوفياء يا سعادة الأمير . ما بلغنا هذه المرتبة لولا ان يظاهرنا صاحب الدولة عثمان باشا على امتلاك الزمام . وليس لنا ، ونحن الاخدان الامناء ، ان نشيح عمن مدّ الينا في الضيق يداً أيّدة . وان مصلحتنا لتقدر علينا الوقوف أبد الدهر على نفرة وجفاء من ضاهر العمر وعلي الحكيم . وهو ما يحفزنا الى مناهضتهما وقد اقتربا منا . وليس ما يمنع ان يفاجئانا بغزو ديارنا وفي القلوب حسائك وأوتار . فخير الآراء ما اذاع صاحب السعادة مولاي !

ووافق الجميع على بيان الشيخ سعد . انه للقول الصائب الرشيد. فقال الأمير : اذن عليك ان تكتب الى صاحب الدولة عثمان باشا اننا سنجيب حين ينادينا . فالرجال والأموال فداه . وليس لنا ان نطمئن الى استفحال العدوان وجيوش المناوئين على الأبواب !

وتكلم زعماء الدروز فوافقوا على ما نشر الأمير من رغبة . وكتب

سعد يعلن التأييد . فاللبنانيون على بكرة أبيهـم يبذلون الأرواح في درء كل غضاضة عن والي دمشق الأكرم . وتـــلا في جلساء الشهابي ما كتب فاستحسن سامعوه اجادته اختيار الألفاظ الملتمعة الدهاء . ووقع الأمير الرسالة وأعادها الى سعد كي يطويها في غلاف يحمل اسم عثمان باشا ويسلمها الى الرسول . فرفعها مندوب عثمان باشا الى شفتيه فرأسه ونهض مودعاً . فصاح به الأمير يوسف : والى أين ؟... تقضي الليلة بيننا وفي الصباح ترجع الى دمشق. فانت من ضيوفنا ولن نبيح لك ان تركب الليل المبطن بالكيد!

وأنزله ردهة الضيوف في الصرح العـامر . وخلع عليه اللهى من مال وكساء. وما طلع الصباح ، وقد دلف الرسول الى الأمير يودعه، حتى كان الجزار يغشى القصر في التماس قيادة يضيء بها فضله . فقال الشهابي باسماً عن اعجاب بهذا الساخر الثبت: لن تخيب يا أحمد بك.فما نزلت مراتعنا ورضينا عن شمائلك لنذهب بجميل سعيك.ستكون من قادتنا وسأحشد تحت رايتك عـدداً ضخماً من الرجال . عقدت لك على كتيبة من ذوي القلانس السود وهي اخت كتيبة ذوي الطرابيش المغربية . وكلتاهما عـلى استبسال في المواقعة. وليس في قواتي جمعاء من يضاهيهما في شن الغارة ، والصبر على الكفاح !

فطرب الجزار.وأحس وهو في القصر بان العين الطويلة الأهداب مسددة اليه فأبدى بليل المرح وقال : سيبلو مولاي الامير عبده أحمد الجزار. وسيتبين له منه اي قرم عنيد هو في البذل من نفسه لصون الكرامة من الضيم . فلن أرجع الى مولاي الا وفي يميني لواء النصر الخفّاق وانا خير من يلوي عود علي بك الحكيم. كاد يقضي عليّ الغادر يوم امتنعت من مواءمته

على الفتك بخصمه صالح بك . انها لساعة الانتقام وقد حان موعدها. وليس يكفيك شر عدوّ غير موتور يجمح به حقده الى الأخذ بالثار !

فقال الأمـير مرتاحاً الى الرغبة : أنت منذ الساعة قائـد كتيبة ذوي القلانس السود يا أحمد بك . فاقبض على أعنتها وجهزها للقتال . فلست أرى الحرب الا واقعة وستخوض جيوشنا الميدان !

وبدا سعد الخوري وأدهشه ان يبصر الجزار يسبقه الى الأمير . على انه كتم دهشه وأظهر المسرة قائلاً ببعيد حيلته : يلوح لي ان احمد بك بكر الى القصر في طلب احدى القيادات يا سعادة الأمير !

ورهب صولة هذا المزاحم المقتحم رحاب القصر ساعة يشاء. فأعلن الأمير يوسف ببسمة عريضة : صدقت يا سعد. ولقد أوليته قيادة ذوي القلانس السود . وهم من كماتنا البسّل كما تعلم . واني لواثق بانه سيقودهم الى الفوز المبين . وعليك ان تدعو رجالنا كي يتأهبوا . فالنار على وشك الاندلاع ولن ترحم من يتقاعـد عن مكافحتها . فاصرخ بجميع اللبنانيين ان أزف يوم الابطال !

ودعا اليه علي جنبلاط ، وكليباً ابا نكد ، وعبد السلام العماد ، وشاهين تلحوق ، وشدد عليهم في حشد قواتهم . لن يطول الأمر بعـثمان باشا حتى يستعين باللبنانيين على مناوئيه . قال الأمير : عندي كل مـا تحتاجون اليه من سلاح. وسيدفع الينا والي دمشق ما يزيد على الحاجة من رصاص وبارود. فلنظهر له ان لبنان ليس بالخانع المستكين !

فعادوا يعاهدون على الاسراف في الفداء . سيزحفون الى صيداء بعزم المغاوير ويقصون عنها جماعة ضاهر العمر وعلي الحكيم ويعيدونها الى درويش

باشا واليها. وليس لأحمد آغا الدنكزلي، زعيم المغاربة، ان يثبت على القحمة وورد عليهـم من دمشق أن هبوا . وامتلأت دير القمر بالبندقيـات والرصاص وقد أطلق عثمان باشا الذخائر الى الأمير يزود بها الجيش اللبناني كي يثب الى المعركة باطمئنان الواثق ببلوغ الارب

الا ان ما لم يكن بالحسبان وقع . فمـات عثمان باشا الكرجي وخلفه عثمان باشا المصري . وما هان الخلف في اقتفاء أثر السلف . فليس لضاهر العمر ان يستقر بصيداء مستأثراً بشؤونها

ولم تتبدل عزيمة الأمير الشهابي ودمشق معقد الأمل . فظل يوالي خصم شانئيه ولا غنية له عن سند منيع يتوكأ عليه كي يطول بقـاؤه في منصب الامارة . وبالغ الوالي الجديد في التأهب لمصادمة ضاهر العمر وعلي الحكيم وانتزاع مدينة صيداء من قبضتهما . وحشد الامير عشرة آلاف مقاتل لبناني بين دروز ومسلمين ونصارى ليضرب بهم على صيداء الحصار الخنّاق. وللمغاربة النازلين بها عنوة ان يعاندوا اذا استطاعوا

ونشر الجزار رايته وقد انضوى تحتها ذوو القلانس السود. على انه قبل ركوبه الطريق الى المعمعة بـدت له جؤذر تسرع اليه بخفة الظبي النفور . ودنت منه تقول بمتناهي الهمس : مولاتي تشتاق مرآك قبل ان ترحل . فلا تغفل عن لقائها في الشربين !

وما الشربين الا الغابة المطلة على القصر الشهابي. فتشخص اليه الأميرات لدفع العناء عن أرواحهن . بل يشخص اليه الجميع وهو شبه متنزه . ولمن يرتاده ان ينعم بفيء أشجاره ويختفي فيـه عن العيان . فاستفهم الجزار : ومتى يا جؤذر ؟

فأبانت وصوتها لا يعدو الوشوشة : في الغروب . فتزعم انها تجري الى دور الامراء في زيارة وما تبتغي سوى مرآك !

قال : ابلغيها اني راحل غداً . فاذا لم تقبل الليلة طال موعد اللقاء !

فأجابت : الليلة موعدكما . فما ان نبدو لك حتى تلحق بنا !

فأعلن : أنا بالمرصاد !

وما غاب عنه ما ستجاهره به نسل شاه جارية الأمير . ستتفجع على اقتحامه الهلكة وتدعوه الى الاحتراس من المكروه . وستقص عليه مبلغ حبها له ومقدار شوقها اليه . وهي أقوال مع معرفته بها يسرّه الاصغاء اليها ولن يتقادم لها عهد مع فرط تكرارها

والجزار يطمع بهذا اللقاء . ولو اتفق له ان يبصر الوصيفة لطلب منها مصارحة سيدتها بحنينه الى مخاطبتها . فلا محيد عن كلمة وداع في المزلق الخطر وليس من يضمن لنفسه العودة وما من روح يحفّ بها الأمان

وأقام أحمد بك في احدى زوايا الميدان المبسوط ازاء القصر ولا غنية لنسل شاه عن المرور فيه الى الشربين . وظل المملوك العاشق يسدد عينيه الى مدخل الصرح حتى ظهرت له الجارية الشركسية تتبعها وصيفتها . وما ان تسلقتا مصعد الشربين مجتازين قصر الأمير المعني حتى كان الجزار يدرج في خطوهما ووقدة الهيام تستعر في حناياه

واستنشق فوح العطر المتضوّع من الجارية وقد نشره الهواء في كل أنف . وطرب وهو يبصر القامة المتمايلة برفق أمامه . انها لذات قدّ مخمور نسل شاه الشركسية وكيفما تهادت تثنى قوامها كأنه الاملود

وخمدت حركة البلدة وجلس الناس امام الحوانيت وعلى السطوح

والمصاطب يستريحون من وعثاء النهار . وغابت الشمس في الافق المخضب بدمها وفتر الجو . وما أمست نسل شاه وجاريتها في الشربين حتى أخذت العشية تبسط جلبابها الادكن وتنكّرت الوجوه

ووافاهما الجزار الى الخلوة الساكنة . وسفرت نسل شاه باسمةِ فرحة . ورحبت بالحبيب المقبل فاتحة له صدرها. فتعانقا بشغف على مرأى من جؤذر المصطبغة عنهما خجلاً . فأطرقت لئلا ترى . بل هي توارت كي تبيح لهما مدى أشواقهما. الا ان عينها مـــا برحت تنفذ اليهما من خلال الاغصان والجذوع وليس للفضول ان يحتشم

وتكلما باللغة التركية وهما على عناق . قالت نسل شاه : أصحيح انك تنهد الى الاصطلاء بنار القتال ؟.. فكيف تميل الى مجابهـة الخطر وانت موثق بي ؟.. هل نسيتني ؟

فأجاب وهو يكبر حنينها الصادق اليه : وكيف أنساك ؟... الا اني من معشر كتبوا لانفسهم الجهاد في وثبتهم الى المعالي. وليس لي ان أتقهقر عن مراقي الفلاح . وما الحرب سوى محك الرجال. وانى يدرك القوم مبلغ عزتي وانا احتجب عن مدارج الابطال ؟

فأبانت بحدة : سمعتك في مجالس الأمير تلحّ في احراز قيادة كتيبة من الجند ، فاهـتز لبي لهفة . أتنأى عني وتعرض نفسك للموت يوم كلفت بك وأخذت أحس باني لست وحدي في دنياي ؟

وانبجس دمعها . فكيف ترتضي الوحشة وقد خيل اليها انها اهتدت الى الانس ؟ . . ألا يزال الدهر ماضيا في مصاولتها ومـا ان يصافيها حتى يجفوها ؟... فابتسم لها الجزار وقال يلوي من خشيتها : لا تقلقي على من

يحتال على الآفات ، وقد تمرّس بها ، فيذللها للصبوة . سأقاتل العدو والمنية واظفر بالاثنين معاً. فالجزار اذا تقاذفته النحوس فلن يكون ذلك المضطهد أبداً ولا بد ان تلين قناة الدهر للمقدام الفطين . دعيني أعجم عود الزمن وقد تتكشف لي الايام عن فرجة أنفذ منها الى المنى. والمنى جسام لو تعلمين. وستكونين شريكتي في عطايا الوكد الصدوق.وهل يرضيك ان تهيمي بجبان كسيح لا يأكل اللقمة الا مستجدياً ؟... اني لاراك جديرة بالانجاد ، فكوني لمن يقهر بعزمه عناد القدر الجافي !

ونفخ في نفسها شهوة السمو . فليست الحياة قعدة في الزاوية . على ان نسل شاه ما انفكت تلمس في الغد الجفوة وما جارتها الايام في الملتمس . قالت وهي تحاذر ان تجرف الدواهي ما جاد به الحظ من ضئيل النعمة : هل من يدري بما تحبل به الليالي؟... ربما كان صعباً ما يبدو لك سهلاً . فهل يقوى الشهابي على ضاهر العمر وعلي الحكيم ؟... في خدمة الشيخ ضاهر المغاربة والشيعة ، وفي نصرة علي الحكيم جماعة الغزّ وقد نفروا اليه من مصر على طاعة واستماتة بالعون . وانى للأمير يوسف من امثال هؤلاء الضراغم ؟... له الدروز وجنود الدولة العثمانية ، وكتيبة ذوي القلانس السود ، وكتيبة ذوي الطرابيش المغربية ، ولكن جميع هؤلاء لا يعادلون قوات المغاربة في الاقدام والبطش !

فاكتفى بان يبسم لها . هل باتت على معرفة بخفايا الجيوش ؟. قال يزيل عنها هواجسها : لسنا دون من نقاتل من الاعداء . فالدولة العثمانية ترمي العصاة بخيرة رجالها. ولا تنسي ان «الدهلي» خليل باشا من قادة الحملة وهو من ذوي البأس والحنكة . وهل يخفى عليك امر الدروز وليست تدركهم

الونية ؟... وانى اكبو في صحبة هؤلاء ؟... ثم لست بحاجة الى امتداح نفسي على مسمعك وانت تعلمين اني لا أخشى الانغماس في لظى القتال. وكل ما أتوق الى معالنتك به اني سأعود اليك على فيض من العافية ، بل سأرفع على مفرقي اكاليل الظفر برجوعي الى دير القمر فامسي حقيقاً بك. وجلّ مبتغاي ان أملأ عينك فيتعاظم اعجابك بي !

فاستقصت بالتياع : ألا معدى عن مجابهة المنايا ؟

قال وما انفك يبتسم : أطلب اليك ان تحثيني على مصادمتها وسأصرعها بحد حسامي . فما كان أحمد الجزار بالمتخاذل عن المجد وهو طلبته . ادفعيني الى الهيجاء بملء يمينك كي تعلمي هل يجمل بك ان تمسي لي. قد يغشّك مظهري والمظاهر تخدع ، فجرّبيني ليبدو لك صفاء معدني . ربما لم يكن المملوك الجزار حريّاً بعطف الجارية نسل شاه !

فافحمها . واحست بكونها مكرهة على اطلاق يده في مطلبه. فهو على صيّاح الرغبة في ركوب المعمعة وله في السعي الى للظهور بعيد الولوع. قال وقد تبين في مقلتيها ممض الأسى : أنكتئب ومن حقنا ان نفرح؟... وهل ترتضين لي ان ارجع عما بايعت عليه الأمير ؟... اني للجبان اذا نكصت. ولن يساورني الظن بان نسل شاه تجنح الى حبيب نكس . ثم ماذا يقول في أحمد الجزار جميع من كسفهم من حاشية الأمير ؟... ألا يعيبون عليّ الهزيمة ويعيّرونني الالتواء في النجدة ؟.... من حسن طالعك ان يكون حبيبك ذا همّة وجراة . فليست من تعشق الأبطال كمن تهوى الانذال !

فلم يبق سبيل الى نهنهته عما أجمع عليه . قالت وهي تلقي رأسها الى صدره في لهيب من طاغي الشوق : أحمد ، أحمد ، لي عندك أمنية اذا عدت

معصوب الجبين بالمجد ، فهل تحققها لمن تفني حشاشتها في هواك ؟

أتستعطفه في أُمنية ؟... واي أمنية لا يحقق لها وهو يعود اليها موفق الجهد ؟... قال يبدي السخاء في الاجابة : ألا أوضحي يا نسل شاه. فالى مَ تجنح نفسك ؟... ما كان المملوك أحمد الجزار ليصدف عنك في رجاء !

قالت وهي تتقلب بين حمرة الخجل وبهجة الأمل : ولكن الأمر يحتاج الى اقدام ، فهل تكون من ذوي الجرأة ؟

فأعلن بانتفاخ صدر وارتفاع جبين : وهل تورتابين بجسارة الجزار يا نسل شاه ؟... والله ، ليس للمتالف الدهم ان تقف بي عن شهوة وانا من ذلل في خدمته المحال . وما في السلطنة العثمانية على مترامي أطرافها رأس يعدو بصلابته هذا الرأس ، ولا قلب يستطيب المغامرة كهذا القلب. انتدبيني لمواقعة الأخطار فتجديني خاضداً شكيمتها . عالنيني بما تشائين وانا ، كرمى عينيك ، السميع المجيب !

وزاد في نخوته وضرم حماسته كونه حيال امرأة. قالت نسل شاه وعيناها في عينيه والاسترحام يتصاعد من كل جارحة فيها: أطلب اليك اذا ما رجعت ظافراً ان تلتمس من الأمير الشهابي ان يزفني اليك !

فانتفض واتسعت عيناه استكباراً . ما كان يعتقد انها ستطمح ببصرها الى هذه الذروة الصعبة المرتقى . أيسأل الشهابي في أجمل نسائه ؟... ولكنها قحة لا يحفزه اليها كل ما يتقد فيه من استطالة . فماذا يكون من الامير يوسف وقد سمع الجزار يرغب اليه ان يهب له احدى غواني القصر ، ألا يسيء به الظن ويتهمه بكونه غدر به وانسلّ الى حرمه يعيث فيه ، وقد بات على صلة مشبوهة بمن يأوين اليه من المخدّرات ؟... ان المطلب ليكلفه

حظوته عند الأمير، وربما حياته . وما دلف الى عاصمة لبنان كي يموت ، بل كي يحيا ويبني ما تهدم من أمسه . قال يدفع نسل شاه عن الطفرة العسيرة المنال : جاوزت الحد في ما تنشدين يا نسل شاه . فأنى يؤيـدني الأمير في مثل هذه المرجاة وهو على اغرام بك ، وليس لمن ترتع في مباهجك ألا تلفته اليها ؟.. انك لتدفعينني الى اثام وورطة وانت تنفرين بي الى استلالك ممن يحرص على فتنتك وليس له ان يسقط في كل حين على ما يتألق فيك من جهارة. كنت أحسبك تميلين بي الى ما هو أسهل ادراكاً. سأطلبك من الأمير اذا شئت . ولكني موقن منذ الساعة ان المبتغى وعر ، وليس من المستبعد ان يودي بنا معاً . وسيستوضحني الأمـير مدى معرفتي بك ، وأين رأيتك ، وكيف اتفق لي ان أعلم انك من جواريه لا من زوجاته ؟.. وهكذا تتعقد المعضلة ولا نسلم من ويلاتها . لا ، ليس الجزار بمن يهاب الردى ، ولكن ثمة ما يعدو الوسع وقد أوثقك صاحب نعماي به. اذا عاد الجزار من الواقعة فلن يعود الا موفقاً . وسيزداد قدراً في عين الأمير ويبلغ المعالي . ويظل على صلة بنسل شاه. بل ستشتد عرى هذه الصلة مكنة. اما ان يقول للامير : « هات أجمل امرأة في حرمك ! » ، فهو ممـا يتخطى الذوق والكياسة . فدعيني ارتع منهما في ما استبقيت لنفسي من فضالاتهما !

فقالت متذمرة : أرأيت انك لا تهواني ؟

وانسابت دموعها على الوجنتين تبلل نضرتهما كما تبلـل قطرات النـدى فتيق الزهر. وتأثر الجزار بمرآها تبكي فقال متألماً: أتأبين الا ان اطلبك منه؟

فأجابت بمرّ الالتياع وقد ناءت بكربتها : لست ارتجي غير النجاة. فقد طال عليّ الثواء بمحبسي . اذا لم تجتهد في انقاذي منه أنقذت نفسي !

فادهشه ما تعالنه به. كيف تسعى لخلاص نفسها ؟... قال يستفهم: وما هي وسيلتك الى الخلاص ؟

فأبانت لا ترهب وقد طغى عليها الحرد اليؤوس: في القصر حفنات من السم ولن أعجز عن الانتفاع بها !

فأدمت كبده وهي تحدثه عن السم. وتجلى له مبلغ نفرتها من الثواء بصرح أمير لبنـــان فسألها بمديد الاكتئاب والاشفاق : أتتألمين أيتها النجمة الساطعة الضياء ؟

فأبانت وهي تشرق بدمعها : أما أوضحت لك مبلغ جزعي ؟... اني أحترق وما أجد في القصر سوى ضريحي . فهل تنام عن انقاذي وقد اتسع لك الى درء الخطر عني ؟

فأجاب عفواً غير ملتفت الى المصاعب المشمخرّة الحائلة دون الامنية : لا والله !

- أتفكّ عني وثاق الأسر ؟

فتكلمت فيه العاطفة المهتاجة . قال : سأحررك من أتعابك !

فوثبت احشاؤها وثبة الابتهاج الجزيل. أضاء في مقلتيها الأمل. قالت وهي تموج حبوراً : يا للفرحة. اذن سأعرف طعم السعادة. ما كذب حدسي وانا أُمنّي النفس بالحرية منذ بدوت لي !

وأغارت على يديه تقبلهما وتدل على كونها لا تجهل موقفها. فهي تعيش له ولسواه عبدة طائعة. الا انها أيقنت أنها ستكون بقربه أهنأ بالاً، فاظهرت له شكرها بما تعوّدت ان تبدي به الشكر، بتقبيل اليدين . فالحرية لديها ان تكون قريرة العين حتى وهي تعاني وطأة الاسر . قال الجزار : ستريني

في نجدتك ذلك المستبسل. وسأعود من لظى المعارك في المتفوّقين كي أقصي عنك النكد !

فوهبت له شفتيها بعطاء المساميح . انه لخليق بها . وقالت بعد فيض من ماتع القبل : اذهب واحذر المجازفة ، وعدْ اليّ موفقاً. فاني لمقيمة على جمر بالانتظار !

وألقت الى كتفه جبينها تشمّ في المعاهد على الولاء رائحة الرجولة والاخلاص . لن يحلها من قيودها غير هذا الهمام. وافرط الجزار في ضمها اليه وهو يقول : ما نزال في الفصل الاول من هوانا . سأرجع وشيكاً اليك لنكتب سائر الفصول !

وافترقا في العتمة والقلبان في حثيث الشوق الى الاندماج بعضهما في بعض، كي يخفقا خفقاناً واحداً ، يعيش به الحب على طلاقة ، سليماً من غوائل الصدعات

٧

عشرون الف مقاتل حشد عثمان باشا، والي دمشق، والأمير يوسف، حاكم لبنان، لمنازلة ضاهر العمر وعلي الحكيم. وهذه الالوف ضمّت «الدهلي» خليلاً واحمد الجزار. و«الدهلي» خليل من أرباب العزم في الدولة العثمانية وممن تتكل عليهم السلطنة في الغارات . فهو في وثبة النمر وفي انقضاض النسر. يغير على العدو صاعقة مدمرة . ومغامرته القريبة من المجازفة ، بل هي المجازفة بعينها ، نعتته بالمجنون. وما كلمة « دهلي » ، التركية ، سوى كلمة « مجنون » وقد جاءت دليلاً صادعاً على ما بلغ خليل باشا في اقدامه من جسارة واندفاع

وحاصر الجيشان الدمشقي واللبناني مدينة صيداء محاصرة سدت كل منفذ على أحمد باشا الدنكزلي. ودام الحصار سبعة أيام كاد يختنق فيها قائد المغاربة وينادي بالاستسلام. انتزع صيداء من درويش باشا، ابن عثمان باشا الكرجي، وانه ليعيدها الى مهاجميه كما تسلمها وقد آمن بعجزه عن النضال

بيد ان هذه المداخن النافثة من أحشائها الغمائم السود أعادت اليه الأمل وجنحت به الى الثبات وقد لاحت له في الافق تحبو الى الساحل الاصفر. فالشيخ ضاهر العمر وعلي بك الحكيم، وهما يحاربان الدولة العثمانية، استظهرا عليها بالدولة الروسية عدوتها التالدة . وعلى العرش الروسي في بطرسبرج كاترين الثانية ، المرأة ذات الدهاء والمضاء . فاطلقت اليهما سفنها المعقودة اللواء لأمير البحر « اورلوف » وهي في نقمة على العثمانيين . ولهذه السفن ان تطلق قذائفها بلا تؤدة على الجيوش والثغور

والسفن الروسية ألقت مراسيها في عكاء . فأوفدها العمر والحكيم الى صيداء لتنقذها من ضاربي الحصار عليها. فأقبلت تزمجر وترمي الألباب بالوجل. ودب الذعر الى الجنود العثمانيين واللبنانيين فتقهقروا عن الدنكزلي الباسم بعد جهامة . الا ان تقهقرهم لم ينفر بهم عن المضي في القتال . وجنح ضاهر العمر الى المسالمة حقناً للدم. ولكن الامير يوسف ما تسم من ضاهر العمر الدعوة الى الاتفاق حتى نبذها. قال الشيخ ضاهر: المصالحة اولى يا سعادة الامير!

فرفض الشهابي . سيقاتل حتى آخر نفَس . فغضب ضاهر وعلي وقد تهادى اليهما الجواب التيّاه ، وجمعا أنصارهما يقذفان بهم الدولة والأمير . فلا معدل عن المضي في التطاحن ما دامت النيات تهدف اليه.

وفي فصل الربيع الأنور من سنة ١٧٧١ ، في بِرَك التلّ في سهل الغازية الاخضر البساط ، القائم في جنوبي مدينة صيداء ، تصادمت القوتان ، قوة الدولة العثمانية وامارة لبنان ، وقوة ضاهر العمر وعلي الحكيم. وبدا الجزار في نظيرة الجيش اللبناني كما بدا « الدهلي » خليل في مقدمة الجنود العثمانيين . وهجما معاً على كتائب ضاهر العمر وعلي الحكيم فخذلوها وبطشوا منها بمائة مقاتل. غير ان الدروز لم يثبتوا في الموقعة . فما احتدمت حتى لانوا . واشتدت سواعد رجال الشيخ ضاهر وعلي بك فانزلت بالقوات العثمانية واللبنانية الأذى الفادح وكلفتها خمسمائة قتيل

وهال « الدهلي » خليلًا وأحمد الجزار ان تعاني صفوفهما الهزيمة فرجعا الى الدروز يجمعان شملهم المنثور . الا ان الدروز انقلبوا على الجيش العثماني يسلبونه ماله وعتاده، ويثيرون فيه الرعب والفوضى. وعزّ على « الدهلي » خليل ان يهون، وهو المقدام، فأغار بنفسه على الغزّ والشيعة يقتحم منعاتهم ويثلم

جوانبها . وهجماته المتكررة ، البعيدة التوفيق ، أنقذت فلول العثمانيين والدروز من الابادة وما كان المنقضون عليها في هزيمتها ليرعوا لها حرمة ويهادنوها في عثرة

وجماعة الغزّ هؤلاء لا يقلون عن عشرة آلاف كميّ هجروا مصر للحاق بسيدهم علي بك . وهم من ذوي البأس والفداء وقائدهم علي بك الطنطاوي أشجعهم وأصدقهم في الكفاح . فخاض المجزرة شاهراً سيفه الهندواني يضرب به الاعناق ، ويلتقي و« الده لي » خليلاً في النزال بطلين مغوارين تلتمع نصالهما بالشرر ويشقان الصدور بلا اشفاق

والجزار لم يقف حسيراً كليلاً. فغاظته الخيبة، الا انه ما تورع عن مجاهدتها بعزم وثاب . فناهض قوات ضاهر العمر وعلي الحكيم بمن بقي وراءه من الشراذم وأظهر الهمة الجموح ، بما توانى فيه القادة اللبنانيون كافة. ولكن على مَ تقوى الضؤولة حيال الوفرة وفي الميدان جيش منصور يقاتل ، وهو واثق باحراز النصر ، فئات مكسورة الشوكة ، مثلومة الروع ؟

وانكفأت جيوش الدولة العثمانية الى دمشق ، وكتائب الامير يوسف الى دير القمر ، و« الده لي » خليل يتلظى نقمة على بني معروف وقد تمادوا في سلب رجاله ذخائرهم وأمتعتهم وكبوا في الصدام . والشهابي يقسم بالله وانبيائه ان الجزار كفيء وحده للوغى ، وان جميع المقاتلين اللبنانيين دونه عزة واقداماً. فلولاه لدارت الدائرة على القوة اللبنانية بكاملها وعلى سمعة اللبنانيين كرجال حرب ندباء

وتغنى بضلاعة الجزار في كل مسمع . وادناه منه حتى بزّ المملوك الشريد في حظوته سعداً . فكأن سعداً على مديد مجهوده أصبح هباءة حيال من

استبقى للبنان بعض الكرامة وقد اقتحم المعامع بشموخ. وما انفك الشهابي يصيح في مجالسه وهو يشير الى الجزار: هذا هو السيد المرموق فينا جميعاً وقد صان الحرمة اللبنانية من الانهيار!

وفتح له اذنيه وصدره. ليتكلم ويعلن مشتهاه. وسمع رجال الحاشية فانتابهم الحسد. الى اي مرتبة ينهد المملوك التائه القرار ؟... وأبصروه يتسلق درجات السلم أربعاً. وشيكاً ويبيت السيد الارفع. وجرض سعد الخوري بريقه. ان الغد لدميم. ليس لاحمد الجزار ان يبقى في صرح دير القمر. فالسعي لابعاد المملوك الخطر عن أمير لبنان ما برح دأب ابن الخوري صالح الرشماوي

واجتهد في تدبير الحيلة لاقصاء هذا المحرج، راضياً بالبذل من نفسه وقد أضحى الأمر لا يطاق. فما يمنع الجزار، وقد استعلى، ان يكيد لسعد ويقهره، ويدعو الشهابي الى استئصاله من مرتبته والاستغناء عنه ؟... وربما حمل الامير على الفتك بهذا المستشار المغلّف ابداً بالحداد كأنه رقعة النعي. وأقام سعد على احتراس. أطلق الجزار الى ساحة الحرب لينجو من ظله، فاذا به يعود اليه أطول باعاً وأشد ساعداً وقد ترامى ظله، وسمن عوده، فكاد يحجب الجميع

وصرف سعد باسنانه وبات ينام الليل على ارتباك ضمير. وراءه ان يدعو الشهابي الجزار الى التماس ما تشتهي نفسه. فقد يرتجي ان يكون مستشار الامارة، فهل يهب له الأمير هذا المنصب بسماح، ويخلع عنه سعداً العتيق الجذع ؟

وارتجف سعد الخوري هلعاً. ارتجف من لم يكن يكترث للطوارىء جميعاً ولها من حكمته وحصافته ما يبددها رماداً في مهب الريح. لقد

ضاق عن الجزار . لن يعود الى بلدته رشميا في اقاصي الشوف ينزوي فيها ويعتزل السدة كالمنكوب المسبوع . ألا اي نكبة لهوم قذفت بالمملوك الرهيب الى دير القمر فكسف فيها سادتها الراسخين في التفوّق والقدم ؟

والجزار ، وقد سقطت اليه كلمات الامير تدعوه الى ابداء المنى ، فينعم منها بالانيق الثمين ، ما التفت الى سوى نسل شاه . هذه هي المرجاة الخيّرة الراسية في الحواني تعلّة مكرّمة أثيرة . على انه ظل لا يملك الجرأة . فأين أبصر الغانية وانى علم انها ترضى به وهو يطلبها من سيدها ؟... واكتفى المملوك البصير ، القدير على كتمان ميوله، بقوله: ليس لي ان اشتهي الساعة يا مولاي ما يجاوز رضاك عني . واذا لاح لي في الافق ما يحفزني الى التمني عرضت على سيدي أمري ولن أراه الا مجيباً وهو الكريم الحليم !

فهتف الشهابي يبدي الموافقة على كل ما يصبو اليه الجزار . قال بحماسة في بسط اليد للعطاء لا يثنيها احتراز : لو سألتني ان أسخو عليك بنصف امارتي لفعلت . فلم أعرف في رجالي من يعادلك حزماً وبطولة . فانك للاروع الفرد !

فكاد يندلع اسم نسل شاه من شفتي المملوك أحمد بك . الا انه ما انفك يخشى التماس ما قد يجاوز نصف الامارة . ربما كانت نسل شاه في عين الشهابي الامارة جمعاء . وكظم الجزار شهوته وقال بصوت وئيد رقيق: شكراً لمولاي وقد حباني الثناء الفوّاح . وما أراني اليوم بحاجة الى ما يعدو حسن ظنه بي . فحسبي ان احوز عطفه عليّ وفي عطفه الغناء عن كل بغية مهما جلّت . واذا فسح الزمان لامنية يتوق اليها خاطري فلن أتماسك عن ابدائها وانا الموقن ان مولاي لن يشحّ بها عليّ !

فعاد الأمير يوسف الى الهتاف : لك كل ما ترتجي في كل أين وآن . فلست الشهابي اذا ضننت عليك بطلبة تنتفض بها شفتاك !

فطرب الجزار . عرف كيف يقبض على نهية الامير ولبه . وهل من دحض لمثل لهذا البيان وقد أعلنه رجل ذو نبل وسموق ؟... أضحت نسل شاه ملك يمين المملوك الشريد،بل المملوك الوطيد الجذع في الجلال والكرامة بعد استقراره بعاصمة الشهابيين . وانحنى بين يدي الأمير يوسف وكاد يقبل الارض في حضرة هـذا المانح بلا امساك . وزاد الجزار فقال في نفسه : وبلا روية !

على ان أحمد بك اطمأن الى الأمير المانح بلا ونية وحـذر . وتراءت له نسل شاه تحبو اليه وقد زان نفسه بالتحفة السنية ، واستمتع بحسنها وبرقة حديثها وبمكين مودتها. وما غاب عنه انها تتنصت وتسمع. فكل ما تساقط والشهابي من حديث انتهى الى وعيها . ولا تـكاد تنقضي ايام قلائـل حتى يصدع في اذن الأمير باسمها . ولن يجهل كيف يسوق الى مشتهاه الكلام. فيحمل الشهابي عفواً على استدراجه الى مبحث الزواج .

وود ان يلقى نسل شاه . فما بها لم تدفع اليه وصيفتها لتحييه وتضرب له موعد لقاء ؟ . . . وخرج الى الميدان المتمادي الفسحة أمام القصر وهـو يتنفس عالياً ويستنشق الهواء الطلق . وخيل اليه ان وصيفة نسل شاه تدرج في اثره . والتفت الى من حوله من الناس فاذا الجميع يلوون ازاءه الرقاب ويحيونه وقد وثقوا بكونه نسيج وحده . فردّ التحية ولكن القهقهة المأثورة عنه تلاشت فيه . فبات أرفع من أن يقهقه كالمشعوذ المضحـك ومقامه العالي يصونه من السخر المرخيّ العنان

وبلغ حجرته في الخان وقد اجتهد عبده ابو الموت في اعدادها للبطـل المقدام.على انه لم يكن راضياً عنها ومكانته نفرت به الى التماس الدور المنيفة مسكناً.والناس طبقات. ولكل طبقة من دنياها ما يتعادل ومرتبتها. قال يخاطب مملوكه سليماً : منذ صباح غد عليك أن تبحث عن مأوى جدير بنا . ففي الدير من الصروح ما يتفق ومنزلتنا. فاختر الفخم المهيب!

فقال المملوك سليم : وما يدعونا الى الاحتفال بمأوى نستأجره ولدى الأمير أبهى الدور ؟ . . . هلا سألته في نفسك ولن يشحّ عليك بالمثوى الرحب وقد عدت من الواقعة مرفوع الجبين ؟

فأبى ان يكون مبيته امنيته عند الامير . قال لا يرتضي الحجاج: اعمل برغبتي ولا تعترض . منذ غد علينا ان ننصرف عن هذا الخان !

فلاذ سليم بالصمت وما كان يجهل طبع مولاه الفظّ في الصدام . وعلا الدقّ بباب الحجرة ، فنبر الجزار : من ؟

على ان هذه النبرة أضحت ابتسامة حفيّة وقـد انشقّ الباب عن جؤذر وصيفة نسل شاه. فهتف بها أحمد بك مرحباً : هل أقبلتِ يا جؤذر ؟ . . . والله،ما اشتهت نفسي الا ان تراك.فكيف حال من وراءك من الأحباب؟ وأومأ الى مملوكه ان احتجب.وادنى منه الوصيفة يقول بلهجة معسولة تفيض مسرة : أتكون بخير مولاتك نسل شاه ؟

فأبانت بصوت جذلان : ما تشتهي سيدتي الا ان تخلو بك.فأضاء روحها ما أقدمت عليه من فائق البطولة.وانها لتفاخر بهمتك جميع من ضمهم القصر من الأميرات وقد أذاعت فيهن انك من بني قومها . وهديتها اليك هـذا القميص من الحرير . بيمينها طرّزت لك صدره وكمّيه !

وألقت بين يديه رزمة تكشفت عن قميص من الخزّ الابيض، مزخرف الصدر والكمّين بخيوط القصب. فهتف الجزار بحبور المعجب: لا تقدم المليحة على سوى المليح. مرحى لنسل شاه وشكراً. فالجزار ليس حقيقاً بهذا الدفق من سنيّ الاكرام!

فأعلنت جؤذر تكبر فيه البسالة الشماء: بـل أنت خليق بكل محمدة أيها السيد الأروع. ومن أحرى منك في هذا البلد بالامتداح؟... فلولاك لركب العار لبنان ولم يظهر فيه ذو حمية يذود عن الحرمة. فاستبقيت له بسامي جهادك طيب الاحدوثة وهي مأثرة لا تشرى بمال. ومولاتي تعالنك بانها على شديد الارتياح الى تفوّقك وفي نيتها ان تراك!

فأوضح بجزيل البهجة ولم يغب عنه ان الوصيفة تردد أحاديث القصر: وهو ما تنزع اليه نفسي يا جؤذر. ما ابتغي الا ان ألقى نسل شاه. فأين يروقها ان تجمعنا المودة؟

قالت الوصيفة توضح رغبة سيدتها: ليس من طبع مولاتي ان تلتقيا في المكان نفسه لئلا ترصدكما العيون. فلا بدّ ان يبصركما النمّامون تدرجان حيث سبق لكما ان تنهجا فتستيقظ الشكوك. وبما تصبو اليه سيدتي أن يكون اللقاء في هذه المرة في مرج القطن!

ومرج القطن ملعبٌ من الرمل في ضواحي دير القمر يشرف على البحر وقد أقامه الفرسان ميداناً لخيولهم، يتبارون فيه ويتضاربون بالجريد. والشاخص اليه يحس وقد بلغه بانه في فلاة وليس لعين ان تراه. والجزار لا يجهل تلك الفسحة القصيّة، الصفراء الخضاب، وقد دعي اليها على متعدد المرات يركض فيها جياده ويشترك في الرهان. قـال وهو يسمع الوصيفة تحدثه عن مرج

القطن : أجادت سيدتك الاختيار يا صغيرتي ، ولكن اي موعد ضربت للقائنا ؟... أما من أمد ؟

قالت جؤذر: من عادة مولاتي ان تبرح بعد الظهر القصر الى من تعرف من بنات قومها الشركسيات المتغلغلات في صروح الامراء . فاذا توافر لها اليوم ان تحبو الى مرج القطن فعلت بلا ابطاء ، والا وافتك غداً الى المكان المحجوب !

فانبسطت أساريره على مديد الطمأنينة . انه ليطمع في محادثة الشركسية الولهى ليلقي في نفسها نداوة الترفيه . فمن الراهن انها قلقت على منازعها وقد سكت عن التماسها من الأمير . قال يخاطب الوصيفة: سأرقب اليوم وغداً مسيرها الى بسطة الرمل. ولا علينا ونحن هناك نختبىء بين الأدغال. فابلغي سيدتك ان الجزار في طاعتها وما استرسل الى غانية كما وهب نفسه لنسل شاه !

وطوّق خصر جؤذر وقال : وأنت ذات غد واعد يا صغيرتي ، فكأنك سرقت من مولاتك بعض اللألاء !

وهمّ بتقبيلها فأفلتت منه وسكنت الى الفرار وهي تضحك وتقول : لا تنسَ ما أطلعتك عليه . حذار النسيان !

فوقف غاضباً يتوعدها ويناديها اليه صارخاً بها بمستطير الفحيح : «تعالي!». فلم ترجع وقد نأت عنه متخابثة عليه ، متعمدة ايلامه. فاحرجه هربها وخشي ان تسرد لسيدتها ما كان منه في اجتذابها وما أبدت من صدود . وفي امتناع الحقيرات ما يؤلم ويخجل. فالتدني اليهن هوان وخصوصاً اذا شمّرن في الاعراض . فينصرفن الى التباهي بهيام ذوي القدر بهن وادعاء العفة مع كل ما يختلج فيهن من سعي للتبذل والاسفاف . وفي عرفهن انهن يرتفعن

بالحظ من مكانـة المستطيب للمحة عارضة الغوص على مباهجهن ، ثم يذهن كالنقد الزَيْف

على ان غضبة الجزار انتهت بهزّ كتفيه . فضحك من نفسه وقد اشتهى الوصيفة وخاف منها على صلاتـه بنسل شاه . وقال غير حافل بالعقبى : لم تنشأ النساء لسوى المتعة ، سواء حملن اسم جؤذر او اسم نسل شاه !

وهو مع استخفافه بالجميع ، ومع التفاته الى نفسه دون سواها ، هازئاً بكل جليل وحقير ، أبى ان تضيع عليه الشركسية الوهاجة النضارة . فقال لا يغتفر لنفسه الزلة : أراها امتزجت بنهيتي وجناني . فـلا معدى لي عن مواصلتها والحرص عليها وما تنفك تعرض لي في بال !

وعاد ينادي اليه مملوكه قائلاً له : لا تغفل عن الدار . بات الثواء بالخان دوننا. غداً صباحاً عليّ ان استقرّ بمنزل حقيق بسيدك أحمد الجزار !

فاكتفى المملوك سليم بان ينحني . أما الجزار فما اكتفى بهذه الانحناءة الفاترة ، المزّة ، بل أغار على مملوكه يقرص أُذنه ويهزه بها ، كأنه يرغب في أن يصبّ على رأس هذا المطواع الهزيل ما أثارت في نفسه جؤذر مـن كوامن الغضب . فصاح به بمستطيل الحنق ولم يكن ثمة ما يحفز الى النقمة : اريد منك ان لا تتلفظ بنبسة معارضة عندما أتكلم يا ابن المائعة . يلـوح لي منك أنك بدأت ترفع رأسك فتعلن ما يخطر لك كأنك من أهل الرأي. وهو مما لا يطيق سيدك الجزار. ولا سبيل الى التردد والمكابرة في ما يبدي. كان عليك مذ سمعتني ادعوك الى استئجار منزل ان تسرع في البحث عن مكان منيف نأوي اليه !

وأوجعت القرصة المملوك سليماً فصاح صيحة الألم. فزعق مولاه بمضائه

في الطغيان : أتبدي التذمر يا قبيح العرض ؟... والله، لست ارتضي أن تفيض بنأمة حتى لو أرقت دمك . فكل ما عليك السكوت ، السكوت والامتثال كأنك صنم يتحرك !

وضرب برأسه الحائط بعنف المستبد. فأكره المملوك المسكين نفسه على الصمت . ليس له حتى ان يتألم مع نزول الشوادخ به . أليس هذا مطلب السيد المطاع ؟... والمملوك سليم يعرف طبع سيده . فلا مذهب عن الاستسلام الأعمى لمشيئة هذا القهّار. وطابت نفس الجزار فيما يلمس في مملوكه الصبر على الضنك فهتف بجذل : الآن أيقنت انك أمين لمولاك . فاليك بما يدلك على اني أكرم الامناء !

ونفحه بدينار برّاق وهو يبدي بمستفيض الرضى : خذْ ما أنت أهلٌ له من العطاء . سيدك لا يجهل ما عليه في تبجيل أرباب الكفاية . زدت الآن عندي قدراً وحباً !

وقبله في خده استرضاء له. ومحا باللين ما اجترح بالعنف وسكنت الزوبعة. فابتسم المملوك سليم وتنهد مرتاحاً وقال : ليس لمن يعرفك ان يتعجب مما يبدر منك . فما تستوي على اعتدال والتطرف منهجك . فتغضب حتى تضرب الأعناق ، وترضى حتى تهب نفسك هبة خالصة مجاهداً في جبر ما كسرت . لنا فيك الله وهو نعم الوكيل !

فقهقه وصاح : أتعيّرني التقلب يا ابن الفاعلة ؟ . . ألا انصرف في ما ندبتك له والا دققت عظمك !

ولسعه بالصفعة على قفاه. فامعن سليم في الاحتجاب لئلا تنزل به صفعة أمضّ . وأحسّ الجزار بانه دفع عن نفسه بعض العبء فسرّي عنه. وأقام

بعد الظهر في مقهى الميدان وعيناه على باب الصرح، هل انسلّت منه نسل شاه؟ وأبصرها تنأى عن القصر. الا انها لم تكن وحدها وقد غادرته في موكب من الأميرات. فقال الجزار: يصعب عليها ان تنفصل عنهن وسوف يقضين معاً ما بقي من يومهن. فالى غد!

وطوى في ذاك النهار نفسه عن الاهتمام بموعد اللقاء. وجلس في من حفل بهم المقهى يروي أخبار بطولته. ما كان الا غطريفاً في مجابهة الغزّ والشيعة. فرسخ و« الدهلي » خليلًا وحدهما في المصادمة. أما الدروز فخانتهم الصلابة والتووا. قال: ولو ثبتوا لكانت جيوش ضاهر العمر وعلي الحكيم لحوماً منثورة في شطئان الرمال وأشداق الأمواج!

وما نسي الاسطول الروسي. فندد بهؤلاء القرصان عبيد المال. لو لم يستعن بهم ضاهر وعلي لباتت صيداء وعكاء في قبضة والي دمشق، ولخفق العلم اللبناني عزيزاً سيداً على أبراج المدينتين. ولكن «الغلايين» المسكوبية أفسدت باذخ الجهد

والسفن المجتازة كبد البحار أطلق عليها رجال ذلك العهد اسم «غلايين» ومداخنها شبيهة بالغليون في نفث صفيق الدخان. وأصغى القوم بفضول الى الجزار وهو يروي حكاية المعارك، ويطنب في صولته. ووافقه الجميع على صدق افتخاره بسديد خطوه. فهو في لبنان وجه الكماة

وانتفخ في الحشد كالفيل وقال يخاطب نفسه: ما ضرّ لبنان لو كنت فيه السيد المطلق وأنا الفتى المغوار؟

وطمحت عينه الى القمة. فما يقعد به عن ركوب الشوامخ وما سعى

منذ تبينت له الاجواء لسوى اعتلائها؟... فان له من ذكائه ومن شجاعته ما يعبّد له الطريق الى السؤدد . وهيام نسل شاه به زاد في يقينه بكونه من أرباب الجاه. فنفرت الجارية الشركسية عن الأمير لتعشق الجزار

وأفاض على جلسائه بكرمه . ليس لأحد منهم ان يحلّ عقدة كيسه في حضرة الجزار الوارم الكيس . وسخاؤه حفز الجميع الى اذاعة فضله . لكأنه من نبعة الاولياء. وأمسكوا عن مجاذبته الدعابات اجلالاً وتكرمة. فليس لمن بلغ شأوه ان يستباح وقاره . أما هو فمع تكلفه الوقار لم يكن يصون لسانه عن الهزل، ولكن لماماً، فتنفجر الحناجر بالقهقهات على مديد الانبساط

ونهض مودعاً والجميع يودون لو يبقى. وعاد الى الخان على اشمئزاز من الرسوب في العش الخانق . وشزر مملوكه سليماً بعين المقت . الا ان سليماً وثب اليه يقول: لا يغضب مولاي . فالدار جاهزة. وهي كما يستطيب سيدي ، ذات فسحة ينبت فيها السرو الباسق، وذات أروقة معقودة الوجه على قناطر متناسقة الأعمدة . وفي صحن الدار فوّارة ماء تصب في بركة تسبح فيها الأسماك الحمر ، والزرق ، والصفر. وجدران البهو من الفسيفساء، وأرضه من الرخام !

فطربت نفسه وهو يصغي الى الوصف الخالب . ما طمع في ما يعدو هذا الوكر الانيس . وداره في مصر لم تكن تخلو من الفخامة . ولقد فتح أبوابها للاخوان يلجونها في ليالي السمر وفي مجالس المباسطة والطرب . واستوضح مملوكه : وأين تقع هذه الدار يا سليم ؟

فأبان المملوك : بجانب قصر الأمير يوسف يا مولاي. وليس بينها وبين

القصر سوى عين ماء وطريق . وثمة بؤرة تنتهي الى سرداب يقود الى قصر الأمير المعني كانت تلجه نساء المعنيين للاغتسال بمياه العين خفية عن الانظار!

فهتف وقد شاقه ان ينزل داراً قريبة من القصر الشهابي: أبدعت. لاحشونّ فمك ذهباً. ما التمست السكنى بسوى جانب القصر. لننطلق معاً الى الدار لاستجلاء موقعها !

والدار شهابية الحجر ، الا ان أربابها هجروها الى بيروت وهم في ولاء الأمير منصور . وتصالح الأمير يوسف وعمه وما رجعوا اليها. وجال فيها الجزار وراقه منها إشراف القصر عليها . فاذا ما وقفت نسل شاه في نوافذ الصرح توافر لها ان تبصر الجزار

وامتدت يد احمد بك الى جيبه تطلع منه بقبضة من الدنانير . وهجم بها على مملوكه صائحاً به: والله ، لتملأن بها فمك. أقسمت على حشو شدقيك بالذهب وما لمثلي ان يشوب يمينه الحنث !

وأبى الا ان يسدّ فم مملوكه بالذهب . فاحتمل سليم البلية صاغراً ولا قدرة له على معاندة مولاه . وكاد يختنق. فضحك الجزار مقهقهاً وهو يبصره أحمر الوجه ، متشنج العنق ، يوشك ان يجود بانفاسه. وصاح وقد ماد لفرط ابتهاجه بالمشهد الضاحك الباكي: أيخيل اليك يا ابن الماكرة ان كسب المال سهل؟... والله ، لسنا نبصر الدرهم الا وقد ذقنا في اقتناصه الموت الف مرة. فتعرّف أنت الى الموت مرة واحدة واملأ كيسك بالنضار !

فتقيأ المملوك العاثر الجد الدنانير المالئة شدقيه وهو على آخر رمق والجزار لا يفتأ يكركر طروباً. ولو اتفق له ان يبصر مملوكه مختنقاً بين يديه لظل ماضياً في قهقهته وليس يبتغي الا ان يلهو ويضحك

وأدى عن الدار بدل الايجار دون امساك . ولو دعي الى اختيار منزل يقطن به لما اصطفى غير هذا المثوى الهنيء، المواثم . وأهاب بمملوكه وعبده ابي الموت الى العجلة في الانتقال الى المقر الطريف وسيقضي فيه ليلته، وليس له ان يرجىء الى غد سكناه . وجلس في النافذة وعيناه في القصر. وبدت نسل شاه وقد عادت من زيارتها وأبصرته فارتعشت . ما قاده الى جوار القصر ، ألا يخشى عيون الأمير ؟

وجمدت عليه باصرتاها . انها لجرأة منه ان يبدي هذه المجازفة . وما ارتفع عنها ناظراه . وأشار بيمينه : نحن هنا !

ففهمت وودت لو لم تفهم. هل استأجر الدار؟...وشاهدت مملوكه وعبده ونفراً من الخدم يغسلون الأرض ويكنسونها فتبينت الواقع . قرّ أحمد الجزار في المنزل المكشوف الجناح للقصر الشهابي . وأصيبت نسل شاه بالسهو الخشيان. ألا أين الحذر المقدور على من تهزهم الصبابة الحرام ؟

بيد ان هذا القرب أثخن في ولوعها بالجزار. فأضحت لا تقوى فيه على النسيان لمحة وكيفما أدارت لحاظها بدا لها مستهويها. وقضت ليلتها على أرق وكل ما فيها من احساس يوهمها ان الجزار عند رأسها يوشك ان ينقضّ عليها ويطوّقها بذراعيه. فخافت وتاقت الى الفرار من حجرتها لائذة بمخدع احدى صديقاتها في القصر. ولم تجد خيراً من مناداة وصيفتها اليها قائلة برهبة : ماذا تعلمين عن أحمد بك يا جؤذر ، هل غادر الخان واستقرّ بجوارنا ؟

فأبدت الوصيفة بدهش: ما أعرف عنه سوى كونه في الخان يا مولاتي. فأين بدا لك حولنا ؟

فأجابت نسل شاه وهي ترتجف : هنا يا جؤذر ، في الدار القائمة عن يمين القصر ، في الجانب الآخر من عين الماء !

– هنا ؟... بلصقنا ؟

– بلصقنا . فكأن الجسور لا يتقي الفضيحة !

وبردت أطرافها وهالها اقدام المملوك على الكشف عن جبينه لا يبالي هول التبعة . وابتسمت جؤذر وقد راقتها المغامرة وقالت تستعذب مضاء الهمة : قاتله الله ، انه لمقحام !

فأعلنت نسل شاه والرهبة تصيح فيها : عليك ان تنفري به منذ صباح غد الى الرحيل . فليس يشوقني ان أذهب كما ذهبت رفيقتي « هان زاده » ضحية جرعة من السمّ !

فقالت الوصيفة وما زالت تبتسم : لتخفف عنها مولاتي . فلا ضير عليها من هذا الجوار الحبيب !

– أتريدينني على الموت يا جؤذر ؟

– بل على الحياة . فإذا لمستِ في الجزار الاقدام فلا تنسي ما ينعم به من دهاء . وسوف يصونك دهاؤه من اقدامه ، فليطمئن لبك !

فشددت الجارية الشركسية في القول : لا ، لا يا جؤذر ، لست أرضى عن الموت يجرفنا معاً . ابلغي أحمد الجزار ان حياتي وحياته بابتعاده عن الاقامة على مقربة من مغنى الأمير !

ولكن الوصيفة لم تقتنع بهذا المنطق المسترخي . فالجزار ليس غرّاً كي يكبو . ومالت على سيدتها تزيل عنها رهبة الارتياع قائلة : سأدعوه الى

الرحيل ، فلا ترتبك سيدتي . وهو من الفطانة بما لا يحتاج الى حض على مداراة موقفك . في الصباح سأراه وأخاطبه بما يجلو الرهبة عن ضميرك. وأنت نفسك ستلقينه بعد الظهر ولك أن تحدثيه بما تميل اليه مهجتك !

وظلت تدفع عنها الهواجس حتى صانتها من الذعر . فنامت نسل شاه مغمورة بالرؤى العذاب ، وقد شخص لها انها تتعانق والجزار معانقة الحبيبين الظامئين الى نعيم الرفاه

٨

اثنتان تشخصان في عصر ذاك النهار الى مرج القطن في ضـواحي دير القمر. سيدة عالية الطرطور، متدلية السراويل حتى اسفل الساقين، رشيقة الخطو، متأنقة اللفتة، ورفيقة لها في مطلع الصبا دل مظهرها على المرح وصفاء القلب

إن هما إلا نسل شاه ووصيفتها جؤذر وقد أقبلتا على موعد للقاء الجزار. وحول مرج القطن فسحات ينبت فيها الحمص والقثاء، وادغال نما فيها الصنوبر وكساها الرمل. وإلى هذه الادغال دلفت المرأتان تغيبان في احشائها الغضة، المبرقشة، المتسعة الجوانب لرواكد الماء

وسمعتا وقع حوافر جواد. ومـا جهلتا انه هو. المملوك- احمد بك الجزار صاحب الراية المنشورة والحظوة الباذخة. وارتعشت نسل شاه ولهاً وابتسمت جؤذر اغتباطاً وهمست في اذن سيدتها: ها هوذا، لقد أقبل!

وأطلت من فرجة بين الأغصان اترتدّ الى مولاتها على عجل قائلة بطافح المسرة: هو هو. أمسى على مقربة منا. أأناديه كي يستدل على مكاننا؟

فتمتمت نسل شاه وقد هاجها الشوق: افعلي!

فوقفت على صخرة تشرف على الطريق وأعلنت بصوت جليّ، مسموع: أحمد بك، سيدي أحمد بك!

فالتفت وابتسم واتجه بجواده اليها. نسل شاه هنا ترقبه. وترجل وقد أمسى بجانب الصخرة. وربط جواده بجذع شجرة وحبا الى جارية الأمير الشهابي يقول: السلام على ذات الوسامة!

وهشّ لها وبشّ . فنهضت له وهي تحس باضطراب في صميمها وبارتجاف في يديها وركبتيها . وقالت بصوت لا يجيد الافصاح لفرط ما انتابها من تأثر وهي تبصر ازاءها حبيبها : وعليك السلام أيها البطل الهمام !

وعراها الحياء . فدنا منها ينتظر أن تبسط له يدها لمصافحته فما توانت في أن تهب له يمينها الناصعة كحب الآس . وأدهشه ما يستحكم منها من برودة كأن راحتها من جليد . قال وهو يهز اليد القريرة، البضّة، المنسجمة الأنامل حتى لتغيض فيها العِقد: ما نسيك الجزار ولم تبرحي منه في الحواني. فخاض الهيجاء مستعيناً بطيفك الأليف على الغلبة . وإذا هان من حوله في المصاولة فما التوى لمن يهواك سنان . كدت أجرف الغزّ والشيعة لولا سفن الروس ، وانكفاء الدروز مع شديد ثقتنا بهم ، واتكالنا على حسن بلائهم !

وانتفضت فيه الخيلاء . قالت نسل شاه : سمعت عنك ومنك ما أبديت من صدق العزيمة . فكنت أتنصت الى ما تجاهر به الأمير . ولقد ملأت عيني كما تملأ قلبي وأصبحت أجد فيك سيداً قاهراً ليس لمشيئة أن تخضد فيك الضلاعة. غير أنك سهوت عني وهو مما عزّ عليّ أن آصاب فيه بالاجحاف . فهل نسيتني والأمير يطلب منك أن تصارحه بما تتمنى ؟

فضحك ضحكة خبيثة دل بها على أن ما في نفسه من الدهاء يرجح ما تحرز نسل شاه من فطانة وقال : وهل لي أن أثب فوراً اليك فاسلخك منه ؟... ألا رويداً. اذا فعلت أفسدنا الشهوة . سيتسع لي الى ابداء ما يتقد بين الضلوع ، ولكن في آزفة ممهدة . فلقد خشيت ان أطلبك منه فيرتاب بي ويستوضحني أين أبصرتك وعرفتك ، ومن أبلغني أنك من

جواريه. وهي أسئلة محرجة. ورأيت ان أتحايل على النهزة. واغتنمها ولا بد ان يحدثني الأمير عن بقائي عازباً، فاعهد اليه في عقد قراني على إحدى سراريه. واذا تقاعد عن مكاشفتي بهذا الحديث سنّيت له اليه بما أقصّ على مسمعه من أخباري . فلا يقلقك قعودي عنك وأنا منك على مضطرم الشوق، وما اشتهي الا أن يوثقني بك الأبد !

قالت بين مطمئنة وعاتبة : ولكنك ازريت بكل حذر وأنت تستأجر الدار القريبة منا . فستفضحني وتفضح نفسك وتميل بالأمير الى التفريق بيننا. فكيف أمسى ذلك الحذر في القصر عبثاً بجوار القصر ؟

فاستطالت فيه ضحكته وقال : وهل ساءك مني ان أقيم قبالتك ؟... لم أستطع أن أُغالب حنيني اليك فازمعت ان لا أُفجع بمرآك . ان لم يكن لحمٌ فمرق . واذا ضقت حتى عن المرق فحسبي رائحة الطعام . وليس للأمير أن يدري اني على شغف بك وقد خلا من بُعد النظر ورهافة الادراك !

فأبدت متأففة : ولكن الوشاة لن يسكتوا عنا. سيبلغونه ان بيننا مودة طاغية، وأُلفة متمادية، فينتقم مني اذا أحجم عن الانتقام منك لمسيس حاجته اليك . فاذا ابتعدت عن مجاورة القصر أحسنت اليّ !

فاستهان بمخاوفها . لتنزع من ضميرها هذه الهواجس المراض . لن يخشى النامين على وفرتهم وليس للأمير ان يصغي الى وشاياتهم بالجزار . قال: جميع من يحسبون أنفسهم ذوي دالة على الأمير ينكسفون اذا ما بدوت ، حتى سعد الخوري نفسه وقد أصبح أمير لبنـــان وطيد الثقة بي ، مؤمناً باني في إمارته أمنع ركيزة ، فلا يتداعى في لبنان جدار وقد دعمه ساعدي .

وليس لمثل هذا الموقن باضطراره اليّ ان يبيعني بسعاية موتور. وقد يشاهدنا على افتتان نظرة ولا يقلق هوانا بلفتة مؤنبة !

فلم تسكن الى ما بثّها من اطمئنان. انها لترهب الفضيحة والجزار يثوي بلصق مغنى الشهابي. غير ان ما لاح لها ويلاً ما زال يراه المملوك أحمد بك نعمة . قالت وقد غاظها الاصرار على تعريضها للدواهي : وما يقف بك عن الابتعاد عنْ الصرح ؟... ألا تستطيب ان أنعم بالراحة ؟... اذن أنت لا تهواني وفي نيتك ان تبيحني للمنايا تنقذك من خيالي!

فما زال يضحك . قال : لا تجزعي حيث يبسم لك الأمان . فالجزار لا يجازفِ بك . وما دعاه الى الدنو منك سوى مفرط حبه لك . وأنى للأمير ان يدري اني أصبو اليك ؟ ... واذا درى فسوف يعجّل في الجمع بيننا !

ولامس خدها وجلس بقربها يبدد عنها خشيتها . فقالت وهي تتنهد : انك لتفرض عليّ رغائبك فلا أقوى على الاشاحة عنها . رضيت بكل ملمة تنتابني لاجلك على ان اوقن انك حبست عليّ هواك !

وألقت رأسها الى كتفه كأنها تستند الى طود. فهي لهذا الأروع الماجد وما لقيت خيراً منه في معاضدتها . قال الجزار يذيع ما في ضميره منها : والله ، ما شغفت بانثى شغفي بك . لكأنك احدى السواحر وقد شددتني اليك بسبب متين لففته على كبدي وما أستطيع عنه نزوعاً . وللانواء ان تعصف بنا ، ولقوات الشر ان تتحدانا فلن تظفر بعزتنا ونحن في صلابة الرواسي . وسوف اميل بالشهابي الى هبة بعضنا لبعض فنحيا حياة المتعة والهناءة . وكيف لا يكون أحدنا للاخر وفي القلبين من لهبة الصبابة ما يقدر علينا اللقاء والبقاء على مواصلة أيّدة ؟

وأغار عليها بقبلاته وقد فطن الى جؤذر فأبعدها بايماءة . وخلا له الجو فأطلق لحبه مداه . ليس لهذا الحسن ان يمسي عليه حراماً . وهتفت نسل شاه وقد تيّمها الولوع : أنت وحدك حبيبي !

فأجاب بنشوة من لذة خضلة : وأنت وحدك مالكة قلب الجزار . في هذا الاسبوع سأطلبك من الأمير ولن يبخل عليّ بك !

وما لفظهما مرج القطن الا والغروب يجتذب الى اليمّ قرص الشمس فيغيّبه في الماء عاطلاً من وهج الأشعة ، كجمرة بقيت في آخر الليل في الكانون فأطفأها الحرص في الغمر. ودرجت نسل شاه ووصيفتها في طريق دير القمر. وامتطى الجزار جواده وانطلق به في ملعب الرمل كأنه يروّضه. وما سلك نهج الدير الا والعشية قد نسجت دكنتها وجللت بها الجبال والأودية. وغارت عاصمة الشهابيين في سكوت مهيب. وجلس مدمن الراح الى كأسه يستريح بثمالتها من جهد النهار . وامتلأت المنازل والخانات بالبطون الجائعة والمتحفزة الى ازدراد الطيبات

واقام الجزار بين مملوكه وعبده قائلاً : نحن مدعوون الى امتلاك ناصية هذا البلد. سيدكما أضحى فيه الرجل النافذ المشيئة، المسموع الرأي. وستكون أنت يا سليم معاوني على تيسير الدفة ، وأنت يا أبا الموت سأقيمك حاجبي . فلا يستأذن عليّ العظيم والعديم الا وقد استعطفاك في المثول بين يديّ !

وجرع كأسه وكسر باسنانه لوزة ابتلع لبها. ورمى بقشرها أبا الموت صارخاً به باعتداد : سأكتب لك الخلود أيها الزنيم مع انك حشرة تسحقها النعال ولا يشعر بها حتى من يدعسها !

وقذف برشاش من كأسه وجه المملوك سليم معلناً بسخر: وأنت يا وجه

الغراب الأشأم من كان يلتفت اليك لولا الجزار ؟...أبصرتهم في دير القمر يكرمونك وما كانوا ليحتفلوا بك لو لم تكن مملوكي . ولن يضيمك أن تمسي غداً من أصحاب السلطان !

فتململ المملوك سليم وقد أصابه في عينيه رشاش الخمر. فما كان من الجزار الا ان رماه بكل ما في الكأس من سلافة صائحاً به : أما منعتك من التأفف في حضرتي حتى وأنا أُريق دمك؟..ما أراك الا تتبرم بكل ما يبدر مني كأنك معبود لا يُمسّ !

وتناول زجاجة الشراب وقذفه بها . ولولا ان يحيد المملوك سليم عنها لتحطم رأسه . وصرخ به الجزار : لأكسرنّ كل جمجمة عاصية . وأراك ممن سأرضّ ضلوعهم يا ابن الرخوة !

فما استطاع المملوك سليم الا ان يضحك . ولو عاد الى ابداء النفرة لاستأصله مولاه وقد بلغت غضبة الجزار غاية الأمد.وقام الى زجاجة اخرى من الخمر يملأها لسيده ويعرض عليه عنقه قائلاً : روحي فدى مولاي ، فليقتلني اذا شاء . لا أدري أي عته حملني على النفار !

وقبل له يده وكاد يهوي على قدميه ويقبلهما. فأمسك به الجزار عن هذا التدني ورضي عنه.وعاد يجرع الخمرة ويروي حكاياته في مصر . قال شامتاً: حسب علي بك ان أبا الذهب أضحى من الموالين وقد قتل له خصمه ، بل سيده صالح بك ، وما علم ان اللص أبدى اللين ليجيد العضّ . ولقد عضّ علي بك في كبده وأبعده عن ولاية مصر مستأثراً بها. أنا ممن عرفوا اللئيم ، وعليّ ان أقول اللئيمين ، فما من حسنة الا انتهكاها !

وما تخلو مجالسه من الحديث عن مصر ولم يفتأ يرنو اليها بشوق. فكان

فيها من ذوي الحول والثروة. ومهما أدرك في لبنان من منزلة فسيظل دون ما بلغ في مصر، ووادي النيل أرحب ميداناً وأسمى شأناً. ويهز برأسه تلهفاً وقد أضاع مكانته في القطر المصري ويلعن الجانين عليه علي بك الحكيم وأبا الذهب. ويشاطره مملوكه وعبده اللعنة: أباح الله الخائنين للمدية الفاصلة!

ونام ليحلم بنسل شاه. واستفاق ليبصر ببابه حاجب الأمير يدعوه الى الصرح. قال: خيرٌ ان شاء الله!

فابتسم له الحاجب ذو الطربوش المغربي والشاربين الطويلين وأعلن ببسمة مطمئنة: ما هناك الا الخير يا مولانا!

ومشى وراءه الى المغنى الشهابي. فصاح به الأمير يوسف عالياً وقد أبصره: مرحباً بالجزار. أتعلم ان أخبارك وصلت الى مصر وان أبا الذهب يحضنا على دفعك اليه؟ ... ظهر لي منه ان له عليك ثأراً، فما هي اساءتك الى السيد الحقود؟

فأقلقه ما يسمع. أيسدّ عليه محمد أبو الذهب المسالك الآمنة؟... وعلت وجهه الصفرة وقد خشي ان يلقيه الأمير يوسف بين يدي الكاره المفترس. ودنا من الأمير يحييه ويستفهم بقولة ما خلت من شائبة الجزع: ومن أبلغ أبا الذهب اني في لبنان يا سعادة الأمير؟

فأجاب الأمير يوسف باكبار: مآثرك. أتخيل اليك ان ما أقدمت عليه من بطولة لم يقع في مسامع القوم طراً؟... ان لبنان على ضؤولة مداه لمنارة مشرقة تضيء سبل الضالين ويستصبح بها الهداة. فمن أي من الفريقين كان أبو الذهب فان أنوارنا لتجلو له الحلكة. ولقد دلته عليك وأنت تغالب أقرانك، فهاجت أوتاره وهمّ بك. فما رأيك في رحلة الى وادي النيل

تستمتع بها هناك بما فاتك من عزّ ؟

فجرض بريقه واستحوذ عليه الجمود . فصاح به الأمير ضاحكاً : ما بك لا تجيب وأنت الملسان ، هلا تكلمت ؟

فارتبك. أيكون كبش الفداء فيطلقه الأمير يوسف الى أبي الذهب وعلى دمه تعقد المصالحة ؟... قال وهو يحدج الأمير بعين تنضح بسوء الظن : ان يكن دمي يزيح السدول الدهم الحاجبة المودات فلا عليه ان يسيل في خدمة أميري !

وبدت فيه الرهبة. الا انه أزالها عنه بجزيل الفدية وقد وهب نفسه للامير. قال الشهابي معجباً بالنفحة المبرورة : سلمت من الأذى يا أحمد بك. لستُ بمن يجود بك على أعدائه . والله ، ان شعرة منك لتساوي عندي أبا الذهب ومن لفّ لفّه . سأجيب الأحمق ان الجزار أضحى منا . وليس لمن نزل حمانا ان يضام . أترضى عن مثل هذا البيان القاطع ؟

فانحنى على يدي الأمير يقبلهما. وما اكتفى. فجثا على ركبتيه يمرّغ وجهه في الأرض في حضرة السيد الرفيع العماد . فرفعه الأمير اليه يقول بلهجة الصدق الأثيل : خفف عنك . ما كان الأمير يوسف يبيح اللائذ به للشانئين . سيرى أبو الذهب أي كرامة ترتع فيها عندي وسأخلع عليك الأموال والدور. وسأعقد لك على أكرم فتاة وقد بدا لي انك من العزّاب !

فغمغمت شفتاه بابتهال: أطال الله عمر مولاي وهو معدن الحلم والسخاء!

فقال الأمير : وانت من ذوي الضلاعة والوفاء يا أحمد بك . فكل ما نمنحك اياه لا يعدو قدرك وأنت به حقيق . أين يهدأ في دير القمر جنباك؟

فأشار الى غربي الصرح وقال : رأيت أن أقطن بمنزل على مقربة من

هذا المغنى يا سعادة الأمير !

— هنا ؟... بجوارنا ؟

— أنا ممن يستظلون لواء مولاي أني استقروا . ولقد طمعت في جواره صبوة مني الى الاستدفاء بلهبة جناحه . فلا يلوح لي اني بمأمن من الغواشي وأنا بعيد عن العرين !

فأسكر بمديحه الأمير وأعلن الشهابي : ان داراً أنت فيها لهي لك خالصة . وعلينا تجهيز رياشها ، وتأمين خدمتها، وسنزف اليك من السراري من تأنس اليها . فكل ما عليك ان تسكن الى زمنك وقد نفحك بالأفاويق !

وأغرقه بفيض النعم . فاليد النديّة انبسطت كافرة بكل شحّ . وانتعش الجزار بعد كمدة وشاهد بعينيه الدنيا تضحك له . وتلألأت في خاطره نسل شاه . أيتجاسر على طلبها من الأمير؟... واختلج فمه بآيات الشكر : زاد الله في خير صاحب السعادة، كاسي العريان، ومطعم الجوعان . انه لخليق باليمن . فالبركة وقد رعت في جنابه عزّت وكرمت وجهاً . وما كان لي ان ارتجي هذا النوال الضخم لولا اني في رحاب السيد الفوّار البذل، وبرّه بحرٌ لا ساحل له !

وما زال يتحامى النطق باسم نسل شاه . قال الأمير : أما السرّية يا أحمد بك ...

فحشي ان يفرض عليه الشهابي جارية لا تشبع نهمته، فقال مقاطعاً بجرأة لم يخيل اليه انها تتقد فيه في حضرة الأمير : أما السرّية يا مولاي فلا بأس أن تكون شركسية، من هؤلاء الجواري الحسان المالئات صروح أسرة المجد . فان في مهجتي جنوحاً الى شقراء ذات وسامة ، طويلة الهدب، كحيلة العين !

فتمثل فوراً الأمير جاريته نسل شاه وتراءى له ان الجزار يبتغيها . والأمير

يوسف على هيام بهذه الشقراء، السوداء المقلة ، وقد آثرها على معظم نسائه . فكيف يهبها للجزار ويطيب عنها ؟... ولكنه عاهد على المنح بلا حساب ، فهل يعبث بالعهد ؟... والتفت الى المملوك أحمد بعين خشيا واستوضح بقلق : أتريدها بهذه الأوصاف ؟

– هؤلاء هن من تأنس اليهن نفسي . روحي فدى مولاي !

فاستحكمت الغصة من صدر الأمير . ما يروم الجزار غير نسل شاه عطية صادق باشا الكرجي . فهل لاحت له في القصر وأولع بها ؟... ان الشهابي مع سعة يده ليضن بجاريته الماتعة وقد استلطف طلعتها، واستعذب نأمتها . قال بابتسامة صفراء : ولكن ليس في صروح دير القمر من الشركسيات الشبيهات بمن تبتغي غير واحدة تقتعد قصري ، فهل بدت لعينك ونالت رضاك ؟

فأعلن يتبرأ من النظرة الحرام: يأبى الله يا مولاي أن أُقدم على هذه الخسة . فما لاحت لي في القصر امرأة ولست أجيز لنفسي التلفت الى الخدور. ولكنها شهوة مستحكمة مني قضى عليّ مولاي باعلانها ففعلت !

فأحس الشهابي بالنار تكوي ضلوعه . كيف يحرر نفسه من الميثاق ؟... ما يصبو الجزار الى سوى نسل شاه . قال : ان من تلتمسها يا أحمد بك لتأوي الى صرحنا ، وهي من أحب جوارينا الينا . فهل يروقك أن تفصلها عنا ؟

فأبان : معاذ الله أن يحدثني ضميري بهذا المأرب يا صاحب السعادة ، الا اني كشفت عن ناحية من نواحي نفسي اجابة لرغبة أميري . وأميري وعد ولا أحسبه يتماسك عن الانجاز وهو الرحب الذراع !

فأحرجه وكأنه يقدر عليه التخلي عن الجارية . وما تمالك الشهابي عن الجهر بنفرته مما يستمسك به الجزار فقال : على رسلك يا أحمد بك ، أتريد أن أصاب بالحرمان ؟... فالجارية نزلت مني على وطيد الشغف ، فهل تجنح الى ايلامي بنزعها مني ؟

فاصرّ على احرازها . قال : أريدك على البرّ في الذمة يا مولاي ومثلك من لا يخرج عن معاهدة حتى وهو يلقى فيها الشدة . فالجزار لا يبتغي الايلام وليس يضير البحر أن يجود بقطرة ماء !

فهاله التشديد في الانجاز وسأل في نفسه قائلاً : هلا حللتني مما بايعتك عليه ؟... إن ذرعي ليضيق بالوفاء !

فأبى الجزار أن يجد للأمير من عهده مخرجاً وقال : هذا الحسن الذي وصفت لا أرتجي سواه للظفر بمكتمل المنى ، فليخلعه عليّ صاحب السعادة مولاي !

فأحس الأمير بالضيق يعتريه في بسطة كفه . وما كان جعد اليد ليتماسك عن الندى . الا انها نسل شاه وهي من الصباحة في المرتبة العالية القمة ، ومن الفتنة في الجاذب الحثيث المستهوي . وغصّ الشهابي بريقه . وعد وعليه بالوفاء . وحدج الجزار بعين مسترحمة يستحلفه بها الصدوف عن الشهوة الصعبة المنال . بيد ان الجزار ما كان ليتنزل عما بات في عرفه حقاً له . وتبرم الأمير باللجاجة المستشرية في المملوك النهيم . ومال الى فسحة من امد يسرّي بها عن نفسه ويباعد في أجل الوفاء . فقال وجبينه يتصبب عرقاً : ضيّقت عليّ مدى أنفاسي يا أحمد بك . ألا دعني أنظر في ما تقدر عليّ من عطية !

فقال الجزار يتحايل على بلوغ الشهوة : مولاي عاهد وخادمه يرتجي البر

في العهد. ومعاذ الله ان تبلغ مني الاستطالة مبلغ فرض المشيئة. أنا لم أطلب نوالاً ، ولكن سعادة الأمير فسح لي المجال الى الاعلان فأذعنت !

فنبر الشهابي وقـد أحنقه الطمع الجارف في المملوك الجموح السؤلة : أوثقتني بلساني أيها الجشع . فما افترى عليك من لقبك بالجزّار. صعبٌ عليّ ان أحنث في ذمتي ، وصعب عليّ ان اجيب ملتمسك . فدعني أتدبر أمرك بما أخرج منه لا لي ولا عليّ !

وتجلت الكمدة في الأمير . ان الجزار لكابوس هاصر. وابتعد المملوك أحمد بك بوجه مشرق عزوم . لن يتزحزح عن الصبوة ونسل شاه ترقب النصفة . فالشهابي وعد ووعد الحر دين. لم يكن عليه ان يبيح للجزار سبيل التمني وثمة أبواب محكمة الايصاد ليس من الغنم له ان يلجها ذو طماح

٩

هرول الشيخ سعد الخوري بجبّته السوداء الى قصر الأمير امتثالاً لمشيئة الحاكم الملحاح. وكان قد هفا الحاجب الى مستشار الشهابي يقول بشدة: مولاي بحاجة ماسة الى حضرة الشيخ ، فليسرع !

وأسرع الشيخ . فأي خطورة تقدر عليه المسير الى سيده الأمير وما ثمة حافز اليها ؟... فلا ضاهر العمر يهدد ، ولا والي دمشق عثمان باشا المصري يدعو الى النجدة . فهل من طارىء فاجأ الامارة اللبنانية وقضى بمستعجل التدبير ؟

وتعب سعد في الوقوف على الدافع الى الدعوة وما نفذ الى مكمن الاحجية . فليس في الدروز من بني جنبلاط ونكد وعماد وتلحوق من يشاغب ، ولا في الشيعة الحماديين في الشمال وبني الصغير في الجنوب من يشقّ عصا الطاعة منادياً بالفتنة

وانحنى المستشار الأبيض الشعر والأسود الحلة في حضرة الأمير يؤدي التحية وفي عينيه رهيف الاستفهام . ورفع رأسه يستوضح بدالة ذي الأثر البليغ في جليسه ، وبخبرة المجرّب وقد عرك الأيام : ماذا يا سعادة الأمير ؟

فلم يرد الأمير يوسف التحية وفي صدره ما يشغله عنها ، بل أشار الى سعد ان اجلس وثوى بجانبه يقتعدان ديواناً من الدمقس . وتكلم الأمير بحدة الحانق المرتبك فقال بصوت أجشّ : بطر العبد يا سعد . كان عليّ ان أصيخ اليك في الرأي فلم أفعل فكبوت . جمحتْ بالجزار عينه الى نسائي. أبحتُ له التمني فطمع اللئيم في جاريتي نسل شاه !

وكشف فوراً عن جراحه. فطرب سعد الخوري وغضب. طرب لنشوب الواقعة بين الأمير والمملوك أحمد الجزار، وغضب لفدح القحة مستعظماً الخطب. وخرجت كلماته من شفتيه ترتعش غيظاً وألماً. قال: وهل تجرأ الوغد؟... ألا من دله على نساء صاحب السعادة كي يشتهيهن؟... هل انسلّ الى الخدور ثعباناً أرقش فاستباحها؟... ما ضللتُ عنه منذ رأيته. إن هو الا المكر والروغان. ولقد حذّرت منه سعادة الأمير. فما درج الى رحابه غير ذئب لهوم لا يرعى حرمة لوفاء ولا يكبر ذا جلال. فاسحقه يا مولاي. ليس للنذل الا ان يُدقّ رأسه بالنعل!

ونفث الشيخ سعد أحقاده في مهجة الأمير. وما اكتفى، بل زاد معلناً بطاغي الكره والتحريض: حرم مولاي مقدس ليس للريح ان تمرّ به، فكيف تجاسر النذل على النظر الى الخلايا؟... وكيف التفتت نفسه الى احدى نساء الصرح يا صاحب السعادة وما زال في الاحياء؟

وهاجه الفضول. من دلّ الجزار على نسل شاه أبهى نساء الشهابي؟... قال الأمير يوسف وهو على غليان اعتكرت به عيناه، وفارت لهجته، واحتدمت اشاراته كأنه في حامي الصراع: لا أعلم كيف حدثته نفسه بالجنوح الى نسل شاه هدية عثمان باشا الكرجي اليّ يا سعد. فوصفها لي وصف عليم وما أدري أين لاحت له. ونسل شاه أجمل نساء الصرح كما تعلم. ولي اليها نزوع. وأنى أهبها للجزار يزدان بها مأواه وينضر عيشه وأتقلى فيها على حرمان؟

فاستفهم سعد: وهل عاهد مولاي الجزار على اجابة كل صبوة؟

فنبر الأمير نادماً على المجازفة وقد خلت من الروية: نعم يا سعد. هذه هي الهفوة الحاطمة. حسبته كريم النقيبة فعاهدته على التلبية في كل ما

يخطر له . وما استثنيت . ولم أكن ادري أن مخلبه سيخدش كبدي . فطمع الخطّاف الشرس في أشهى غادة لديّ !

– وكيف عرفها يا مولاي الأمير ؟

ومال سعد الى توسيع شقة الجفاء . فهدر الشهابي وما زال في حنقه على لظى: اني لعلى حيرة في الأمر يا آبا غندور؟..أتراه أبصرها في الصرح؟... لست أفسح في قصري للنساء الى الظهور في مجالس الرجال ، فأنى بدت له؟..هل شاهدها في جولة في الضواحي وقد خرجت في صويحباتها يستنشقن الهواء؟..ولكني فطنت . آه ممن يبطن الايذاء . لاحت له في نوافذ القصر وهو المستقر بجواري وقد اضحى مثواه دار الأمير قعدان بجنب العين !

– هنا ؟... على مقربة من القصر ؟

– هنا ياسعد. وقد تكون نسل شاه أطلّت من احدى الكوى فبدت له فشغف بها . الويل لمن يسدد عينه الى حريمي تحفزه نية فاسدة !

فرأى سعد أن يستشيط نقمة إمعاناً في تجسيم الخطب. قال وقد اربدّ وجهه ، وعمقت غضونه، ونتأت عيناه تتطايران نفرة وامتعاضاً : انه لدنيء ، وعلى مولاي أن يبعده عن دير القمر إن يكن لا يبرح بحاجة اليه . فيدفعه الى حيث يلهو بمنصب لا قدر له ، ويستدعيه اليه في الملمات . أما إن يكن بغنى عنه فليصرفه الى حيث لا رجعة له . كل ما تبين لي منه دلني على كوننا سنشقى به . إن هو الا جلاّب متعبة وخطر . فالدروز يحقدون عليه وما فتىء يفاخرهم باقدامه ، ويزري باحجامهم . ومحمد أبو الذهب يلحّ في أن يتسلمه ليضرب عنقه . وعثمان باشا المصري لا يثق به وهو المجهول اللون . وغلوّه في الشهوات ، وقد استقر بنادينا ، يحدونا على خلعه عنا وليس لنا أن

نتحمل غلاظة ذي جشع ودلال !

فما انفكت الحيرة تستولي على الأمير. ولم يغب عنه ان سعداً يبالغ في المصارمة وما يني الكره للجزار يتوهج في حنايا أبي غندور. قال : أنقصيه عنا وهو فيصلنا الماضي في الشدة ?... ما رأينا سواه يصون ماء وجهنا في صيداء. هات غير هذا الدواء يا سعد. فان تفلت يدي نبلة صائبة أُسددها أبداً الى من ورمت أكبادهم اضطغاناً علينا. نحن بحاجة الى الجزار مع سعينا لاتقاء غنجه وطمعه !

فأبدى سعد : اذا رأى مولاي ان يستبقيه للملمّ العصيب فلا بأس. ولكن ليس في دير القمر، بل في ناحية بعيدة عن قاعدة الامارة. وهو ما عالنت به صاحب السعادة وأراه المخرج الواقي !

– وأين يا سعد، في اي زاوية نحجبه ونتقي شره ?

وطغى الارتباك عليهما معاً. الى أين يوفدان الجزار ?... وخاف سعد ان هو دعا الى تنصيب الرجل المطماع في احدى القيادات ان يستأثر بالامر وينادي بالعصيان. وبقاؤه بجانب الأمير شرّ على سعد وعلى الأمير نفسه. والأمير نهد الى ابعاد المملوك المخيف، ولكن بسالته تجنح بالشهابي الى الاستمساك به. فأنى الخلاص من الورطة ?

وأقام الرجلان على ذهول. فهما حيال عقدة يرومان حسمها ويشعران بضرورة استبقائها. على ان سعداً اعتزم اقتلاع البلاء ولا كان الجزار. قال يحرض على الاستئصال : ليس ما يفرض علينا الحرص على الداء المبيد. فالحكمة في اجتثاثه لئلا نذهب له ضحايا. فاذا خلت البلاد من جزار واحد ففيها الف جزار. وما عرفنا قبل اليوم الهزيمة كي نقرّ له بالفضل دون رجالنا.

وان يكن قد تشهّى منذ ظهوره فينا احـدى نساء القصر فسوف يتشهّى في الوشيك القصر نفسه غازياً مقعد الامارة . فليحذر مولاي !

فجلجل الشهابي يستكبر الصراحة الخادشة : ويحك يا سعد، ما هذه القولة المالئة فمك ؟... أتسوّل للذليل نفسه هذه الشائنة الغدور ؟

فأبدى سعد الخوري المسكنة كالمكسور الضلع وقـال : مولاي أعلم الناس طراً بصدق ولائي لبيته المفدى . فلقد أفنيت عمري في خدمة هـذه الدوحة الباذخة . ولست أمـتنّ بجميل ليقيني اني قمت بالمفروض عليّ لربي وحاكمي . واعتقد ان هذه السنين الزاخرة بالتجارب وهبت لي القدرة على معرفة الصالح من الطالح . ومنذ بـدا فينا الجزار عددته عـلى مسمع من مولاي من الطالحين . والحمد لله على كون زيفه وضح لسعادة الأمير قبل فوات الأوان . وسيتمادى الرجيم في غيه لا يتورع من استباحة . ولو كان على فضلة من خير لاستبقاه علي بك الحكيم يوم كان والي مصر، او لاستدعاه اليه محمد أبو الذهب وهو يركب منصب الولاية، فيقلده المرتبة المغبوطة وقد بلاه . الا انهما تبينا مكره فأشاحا عن خدماته ، بل أقسما على البطش به . وعلينا ان نجري في أمره على خطاهما، فننبذه والا التهمنا وهو ذو شره الى القضم . ففي شدقيه طواحن قاطعة ، وفي هذه الطواحن مكانز من سمّ . وان تكن عضته الاولى ما فاجأنا به من بادرة فماذا سوف نلقى مما يحشد لنا من عضات ؟

فما برح الأمير يتردد في السكون الى رأي الشيخ سعد . لا غنية له عن الجزار . وتراءى له ان مصدر العلة يقرّ في صرحه فازمع على محوه في المهد . وانفتل على عجل الى نسل شاه في مكانها من مغناه زاعقاً : أخيانة في قصري أيتها الموبوءة ؟... ألا كيف بدوت لعين الجزار ؟

وفوجئت الجارية الشركسية بالصيحة الخالعة المهج من جذورها فارتعدت. ذاع سرها . وما خفي عليها ما أقدم عليه أحمد الجزار في التماسها ، ولا ما تبادل في صددها الأمير ومستشاره من حديث وقد أنصتت للاقوال المعلنة. وأمسك الأمير يوسف بذراعيها يهزها بنقمة وهو يصيح فاقد البصيرة والبصر: أيشوقك أن تصابي بما كابدت رفيقتك « هان زاده » من ضير ؟... اني لاحقك كما أمحق الحشرة تحت قدمي كأنك لم تدّبي في مدارج الأحياء. أين أبصرك الجزار فعلقك ؟

فما فتئت ترتعد . فصرخ بها الأمير وكاد يضرب بها الجدار : هلا تكلمت ؟

فأيقنت انها أضحت في ساعتها الفاصلة وغمغمت بصوت يحتضر : أطال الله بقاء مولاي ، لست أعرف الجزار !

فضغط ذراعيها حتى كاد يسحقهما وصرخ: وأنى للجزار أن يعرفك وأن يطلبك مني وانت لا تعرفينه؟... فهل من عصائب للاتجار بالرقيق في داري ؟

وهددها بقبضة يده مجلجلاً : لست أُعفيك من البيان الجليّ . من حدث عنك الجزار ؟... أما كشفت له بنفسك عن أمرك؟.. ألم تقفي في النافذة وتلوّحي له بمحاسنك ؟... ولكني لمست فيك الميل الى الافلات مني. فانت أشبه برفيقتك هان زاده لا تحبين الأمير يوسف الفتى ، الممتلىء همة واقداماً ، بل تعشقين الكهول كالجزار . انك لتستطيبين الغوص على العجزة يا فاجرة، وهو مما يدل على سفالة روحك، وعلى ضرورة إنقاذ الكون من قبائحك وقد ملأته فحشاً وشغباً !

ولكمها في جبينها. وخرجت عن صوابها وقد نزلت بها اللكمة. وتفجرت أشجانها فصاحت لا تبالي وخامة العاقبة : أجل ، اني أُحب الجزار . ولك ان تدفعني الى حتفي ازاء وضوح مقالي، فلست أخشى نقمتك والموت أحب اليّ من الاستقرار بهذا المأوى الفاحم، مع كل ما يمور فيه من عزّ. فالقلوب لا تغترّ بالعظمة، بل بالالفة. وليس في مهجتي ما يشدّ بي اليك. اقتلني اذا شئت وفي موتي خلاصي ، والا فهبني لمن وقاك الذل في الواقعة . أنت دعوته الى الاختيار فاختارني . فكن مبسوط اليد في العطاء ولا تبخل على ذوي الالتماس بما عاهدتهم على البرّ فيه !

وتكلمت بشدّة كأن ليس ازاءها سيد مرهوب الجانب . وتفاقم حنق الشهابي وقد جاوزت حدها، وجمح بها لسانها الى التوبيخ كأنها تجاه من هو دونها ، فصرخ بها وهو لا يبرح يهزها كالأعصار الجائح: أتتنمرين على مولاك أيتها العبدة اللئيمة الطوية ؟... والله ، لاكرهنك على تقبيل قدمي عشرين مرة، والا مزقت قلبك برأس هذا الخنجر وطرحتك في القبور طعماً للديدان !

وخنجره يتوسد أبداً وسطه ومايفارقه، وقد لمع في مقبضه الذهب والياقوت. وشهره على نسل شاه يكرهها على الطاعة. فبرقت النصلة ذات الحدين الباترين يرعف من وميضها الموت. وابصرتها نسل شاه فعرضت لها صدرها لا تتهيب، كأنها تروم النجاة من حلكة الظلم. ليقتلها الأمير ولتلحق برفيقتها هان زاده ما دامت الامنية لن تنضج ولن يحين قطافها . ففي موتها النجاة من أسر طويل ليست تطيق ظلمته ولا قيده . قالت : لك ان تقتلني. فالردى أشهى الى نفسي من السجن في صرحك. انك لتغمرني بالخير ، ولكن نفسي ملّت الثواء حيث لا تستطيب . وما كان يضيرك لو أبحت لي العيش بجنب من

من اهيم به ؟... فهل يؤلمك ان تنعم الافئدة بالراحة والهناءة ؟... عرفتك ذات يد رحبة النوال فـلا تمسك بي عن مطمح لبي . أما أدى اليك الجزار الخدمة الجليلة ، فابعد عنك شماتة اعدائك وحلفائك ؟... أما كان زينة رجالك في استبقاء الاحدوثة الطيبة وقد تفوّق في الصدام ؟... ألا كافئه بما يحنّ اليه ولا تكسر الأفئدة المضمّخة بعطر المودة ؟... مـا أراني أثمت وقد شغفت بمساعدك البطل !

فكاد يغمد في أحشائها النصلة المسنونة ، الا انـه مع طغيان نزقه تمالك عن القضاء على غانية . فلن يقال فيه انه ثقب بخنجره كبد امرأة . على ان هذه الغادة ترتع في نعمته وتكفر به ، فأنى يردّ عنها حكمه الماحي؟... فالموت نصيب الخائنة وقد جحدته لتهوى خادماً من خدمه . وهل يعلو الجزار في الامارة الشهابية مستوى الحوَل والحشم ؟... وأي عمى يهيب بجارية الامير الى الوقوع على الزجاج والجنوح عن الدرّ ؟... وتوعّدها زاعقاً : يبدو لي منك انك على شوق الى خدينتك « هان زاده » . ولن اعوقك عن المسير اليها على عجل والطريق الى مقرها سهل رحب . كل ما عليك للقائهـا ان تجرعي كأس السم !

ورشقها بنظرة التشفي وهو يقضي عليها بالافناء . وارتجفت وقد سمعت الحـكم المبرم . الا انهـا أبت الظهور بمظهر الخوف فقالت تخلع عنهـا الاستعطاف وتبدي العبث بالقدر المتاح : انك لتسدي اليّ أكرم معروف وأنت تفسح لي الى من أطمع في استنشاق عرف صداقتها . سلمت يداك وقد أزجيتني اليها . فأين السم ؟

وأجمعت على الرحيل الى دنيا التلاشي، بل الى دنيا المجهول وقد تكون

خيراً من دنيا عرفتها مجبولة بالتعس والمنافرة . وساءلت نفسها هل يحزن عليها الجزار ويبكيها ؟... وجزعت على أمل انبثق فيها ثم اضمحل . كم كانت تحلو به الأيام لو أزهر !

والأمير الشهابي مع كلفه بها مال الى تبديد أنفاسها للخلاص من مرآها . فلن تكون له ولا للجزار . وهكذا يدرأ عبئاً عجزت عنه كتفاه . ولا يسيء الى الجزار بحرمانه من اشتهى والموت قطع كل جدال

وشزر نسل شاه بعين تشتعل فيها البغضاء الهاصرة فيما تسأله باستخفاف المستهين : « أين السم ؟ » . وأجاب بصوت تواثبت فيه الزمجرة : سينفر اليك على عجل أيتها المعتلة الحفاظ . وعدتك به ولن أشيح عن البر في الوعد . ستموتين وعينك في ملذات صبوتك !

فشمخت عليه وقد أيقنت ان الموت بات على خطوة منها . وأبانت بجرأة العابث بكل سلطان : وددتُ لو أنجزتَ ما عدتَ به الجزار ، الا انك حرون في الوفاء ، سريع الى الحنث . ويروقني ان تعلم وأنت تجهزني للضريح اني نعمت في معانقة المملوك الجزار بكل مسرة ، وأصبحت من زمني على اكتفاء . فاذا أقبل اليّ الموت فانه ليجدني على أهبة الانطلاق الى حيث يقودني . فمرحباً ، مرحباً بالرفيق الأمين !

فكاد يرجع اليها ويغيّب الخنجر في اضالعها . غير انه ما زال يتحامى القضاء عليها بيده وهي امرأة . وهفا الى السمّ يصبّه لها في فنجان القهوة ، فتموت كما ماتت نجيّتها هان زاده ، ويستريح من شؤمها وقد كادت تفصل عنه أكرم الأصفياء

والسم في الصرح بضاعة رائجة . فمن صعّر خده على الأمير ووقف

عقبة في النهج فليس أهونُ من دعوته الى القصر ليشرب فنجـان قهوة في ديوان صاحب السعادة حاكم لبنان . ولمن ينهد صاحب السعادة الى الخلاص منهم من نسائه وخدمه ان يرشفوا هذا الفنجان نفسه وما لأحد ان يسأل كيف ماتوا ، وموت الفجاءة شاع في ذلك الزمن والطب قصّر عن النفاذ الى الراهن الصراح

وعاد الأمير فوراً الى نسل شاه وبجانبه عبد زنجي يحمل طبقاً من فضة، يتوسطه فنجان من خزف تصاعد منه البخار ثلة من نسيل متفكك، ممحوّ، وما يزال شرابه حديث العهد بالنـار . والشراب أدكن اللون يعلوه الحباب . وفاحت منه رائحة طيبة العبير تغري برشفه . بيد انـه موقوف على نسل شاه الناشز الصَدوف

وامتدت اليه يد الجارية قبل أن يتلفظ الأمير بقولته القاطعة : أشربيه!

وجرعته دفعة واحدة غـير حافلة بلذعه شفتيها ولسانها وحنجرتها . وما استطاعت الا أن تتأفف وتتململ وقد كواها الشراب الحارّ . بيد انها ملكت من العزم ما قويت به على الابتسام تهكماً وزراية . والتفتت الى الأمـير وبسمة السخر في شفتيها وهي تقول : هـل رضي الآن صاحب السعادة ؟... أراك عاجلاً في دار البقاء !

فأعلن شامتاً : ألا أين خليلك الجزار ينقذك من عذابك، فهل تخلى عنك في الملمّ الكالح الناب ؟

فأجابت وهي تحس بان السم أخذ يلتهم أحشاءها : إن لم ينقذني من عذابي فلن يرحمك. ربما أذاقك ما تذيقني فيبضعك من عالم الأحياء كالدمّل الخبيث وقد أفسدت بمخازيك الأجواء. فأنت وحش مفترس، لا انسان، وقد كفرت

بالرحمة، وجنيت على الحب الريّان. ولكني انتقمت منك وأنا أستظل صرحك وخرجت عن أمانتي لك. وحسبك ان تعلم اني وهبت للجزار كل ما عندي. وما غاليتَ في قولك اني خليلته. فقد أعطيته أغلى ما وهبت لي القدرة من كنوز!

وما جهلت انها ترضّ قلبه وهي ترشقه بهذه النبلة النجلاء. فقد خانت عهده فيما تأوي الى حماه. وأحس بالألم ينحره وآمن بسداد رأي سعد الخوري في الجزار. هذا الشبح الرهيب تعاند الحكمة في استبقائه في قاعدة الامارة فيفسد أديمها. وود الأمير يوسف لو خرق بنصلة خنجره كبد المملوك الكريه العيث. الا انه أحس بسلطان الجزار عليه وبحاجته الى هذا المكروه ولا غنية عنه. فمن للامارة اللبنانية يجيد الذود عنها وقد خلت من المملوك أحمد الجزار؟

وحدج الجارية الشركسية المنتفضة تحت وطأة السم، كأن بها قرسات من زمهرير، بنظرة حاقدة تتضرم سخطاً. وعادت يده تمتد الى خنجره وقد أدمت فيه نسل شاه مصون الكرامة. وما ساءل نفسه هل يفتك بامرأة ولم تدرأ عنه هذه المرأة وصمة الخيانة. وما حفل بكون هذه الخائنة تموت بالسم ولم يبق لها من العمر غير ثوانٍ قلائل للانطفاء. بل أغار عليها بجاري طفرة حفائظه الفائرة وأغمد في صدرها نصلة الخنجر حتى المقبض وهو يزمجر كالنمر الصخوب وقد ساوره الخطر النهيم: هل بلغت منك الخسة هذا الدرك يا فاجرة؟... ألا موتي كما تموت المستهترات وليس للخيانة ان تنسلّ حتى الى الخواطر في صرحي!

وانتزع من صدرها الخنجر وهو يقتله امعاناً في التنكيل. وركل الجسم البضّ الهاوي في الأرض. وداس بنعله الوجه المكفهرّ المتغلغل في عروقه السم صارخاً: اذهبي يا نتنة الروح ضحية غدرك. انى لمن أبحت له نفسك ان ينتشلك من أعماق الأجداث؟

وما اشتفى وقد فتك بها . فلا تزال نفسه تعاني مضض الصدمة الدامغة . اذن ما طلب الجزار نسل شاه عفواً وقد سبقت لهما خلوات وتوطيد نيات . فالجزار الباسل في الوغى سافل في الحمى وما استجاز لنفسه النكر لولا غريزة الخسة المستقرة بجوانبه . وعاد الأمير يؤيد على رغمه سعد الخوري في رأيه في المملوك الوضيع المقدام ، الحميّ اللئيم . ليس للعابث الخليع ان يبقى في دير القمر حتى مع الحاجة الملحّة الى قراره فيها

ونادى الأمير اليه اثنين من رجاله قائلاً لهما بغضبته القاصمة وهو يشير الى جثمان الجارية الشركسية المطروح في الأرض كدسة من لحم ودم طارت عنهما الروح : احملاها الى مدفن القبة واطرحاها فيه . وحذار ان تذيعا نبأ موتها . فالأمر سر ليس للناس ان يدروا به !

وجاء بمن يغسل على عجل الارض من الدم المنثور فيها كالبساط الممزق الأطراف . وأحس بأنه يزح بنفسه كأن كابوساً يرهقه . فما اشتهى ان يقتل نسل شاه وهي عنده في راسخ المودة . وما رضي عن استسلامها للجزار . وبماذا يحدث الجزار عنها وقد بطش بها ؟ ... أيصارحه بكونها ماتت بالسم والخنجر اقتصاصاً من جنوحها اليه ؟

وخاف حنق الجزار وانتقامه ولن يسكت المملوك الماضي العزم عن مقتل الجارية الشركسية اذا ما وقف على الخفايا . ولا بد ان يلمّ بها وما ان يتبين في الأمير التباطؤ في الهبة حتى يوقن بان نسل شاه ودعت على كره منها دنياها . فالشهابي وقد ضنّ بها على مبتغيها نزع بها الى الغؤور في لجة الفناء ورجع الى سعد يطلعه على عملته وعلى رهبته . أغضب قلبه وأغضب الجزار ؛ وهانت فيه نفسه . ضاع في حنقه عن كل سداد ورشاد

١٠

في جلوة الصباح انفرج باب القصر عن خيال ضئيل يهفو كالايماضة الى دار الأمير قعدان وقد استقر بها أحمد بك الجزار . ودقّ الخيال الباب وعيناه في القصر يحاذر ان ترنو اليه الأبصار الفاضحة. وانساب الى كبد الدار يسأل عن المملوك أحمد بك وفي محياه شحوب ينذر بكاسح الويل

وما لاح للجزار حتى صاح المملوك البشناقي بدهش : جوذر ؟... أأنت هنا ؟.. ما حفزك في البكور الينا ؟

وما كانت الا الوصيفة الطريئة العود، الجمّة الاخلاص. وامتلأت مقلتاها دموعاً وقد بدا لها . وانفجرت حنجرتها بالنعي الأنكد : رحم الله مولاتي نسل شاه يا سيدي . جئت أنعى اليك الحسن والوفاء !

فسحقت قلبه ونهيته وهي تنشر عليه النبأ الماحق. وجحظت عيناه وكادتا تتطايران شعاعاً وهتف : ماتت نسل شاه يا جوذر، ألا ماذا تحملين اليّ من داغر جائح ؟... كيف ماتت وما زالت تتوهج في بردتها العزمات ، هل بليتِ بالهذيان فأقبلت اليّ تخرفين وتلفّقين ؟... ألا انطقي بالواقع الراهن. ما حملك اليّ في الغدوة ؟

فتمادت في نواحها وما زال النعي ينطلق من شفتيها رهيفاً كالنصلة الحاصدة : ماتت سيدة الجهارة وربة الاخلاص يا مولاي الأروع . قضى عليها الأمير اقتصاصاً منها وقد عالنته هيامها بك. فهو يريدها لنفسه ويأباها عليك وأوجعه ان تهواك فأودى بها . وامصيبتاه !

ولطمت خديها ونتفت شعرها مجتهدة في التماسك بقدر المستطاع كيلا يقع

نحبها في مسامع القصر فيلمّ الأمير بامرها ويتبعها سيدتها. وغلب على الجزار ومملوكه وعبده صمت شادخ وذهول خاذل وما انفكوا لا يؤمنون بما تقص عليهم جؤذر مع بعيد حرقتها. وعاد الجزار الى الاستيضاح والجزع ينهشه: أتقولين حقاً لا قامت لك قائمة ؟

فأبانت وعبراتها تتناثر بسخاء: ليتني أُذيع كذباً وبقيتْ مولاتي مستمتعة بالحياة . نأت عنك نسل شاه يا أحمد بك ولن تراها في سوى عالم التراب!

وتعاظم نواحها كأنها فقدت أمها . وربما أمسكت في تفجعها على أمها عن مثل هذا الاعوال الزاخر بالرهبة والأسى. فقال أحمد بك وقد ثارت فيه حوابس الأوتار: وكيف فتك بها؟... هل عاجلها فوراً بالطعنة فأرداها ؟

– سقاها السم . وما جرعته وأوشكت ان تقضي نحبها حتى توعدت الأمير بانتقامك منه لها . فانتضى خنجره وعاد اليها يغمده في صدرها فقضت لساعتها نحبها . واسيدتاه !

فصاح بمستشري الحنق: هل قضى عليها لكونها أبلغتـه انها تهواني ؟

– نعم، نعم أيها السيد الهمام. غاظه ان تجاهره بنزوعها اليك وليس يريد ان تكون لسواه. وما فاضت أنفاسها حتى دعا باثنين من رجاله كي يحملاها الى مدفن القبة ويغيّباها فيه . وهي ترقد الآن في ذلك الضريح الساكن وليس من يدري غير القليل انها انتهت اليه . وغداً ستفنى بقاياها وينطوي سرها فلا يقوم في الناس من ينتقم لها . واذلاه !

فزعق وعروقه تتشنج ، ورأسه يمور: ان الأمير لمن الأنكاس . مـا عرفت في حقارة مهجته ودمامة خلقه . وعد وكان عليه ان ينجز . ولكنه ليس حراً كي يحبو الى الانجاز . وأنى لمن هدم بعمه السدة ليربع بهـا ان

تتألق فيه سجايا الأحرار ؟... بل انى لمن يغدر بأهله كي يسترضي من حوله من الولاة ان يكون عزيز النفس ، رفيع العماد ؟

ونظر الى مملوكه وعبده قائلاً بلهجة يصيح فيها العزم الجموح : تباً للمقيت . وعيد نسل شاه سينقضّ عليه كبريتاً وناراً. يوم الانتقام وشيك. لست الجزار ان لم يكن هذا الكبش من ضحاياي. سوف تريانه يلفظ روحه وقد انتزعتها منه بيدي . دم نسل شاه لن يراق هدراً . اذهبي يا جؤذر وانعي الى القصر سيده . سيلبس هذا الصرح على ربه ثوب الحداد الفاحم. بل سأدعوه الى الضحك والطرب يوم مصرع الأهوج المأفون ، فيرقص على قبر وليّه. فاذا سلمت حتى اليوم الامارة اللبنانية من التقويض فسوف أهدمها بيميني . بل سوف تكون كرة بيدي أتقاذفها أنى أشاء ، وأتلاعب بأصحابها كما أشاء كأنهم عبيدي . صبراً يا روح نسل شاه !

وهاج وصال. فالويل للأمير !... وترحم على قلبه فيما يترحم على الجارية الشركسية . مات في جوانحه حب نديّ عقد عليه أشهى المنى . ولكن الحب اذا ذوى فلقد ارتفع على أنقاضه الحقد المستطيل . وليس لهذا الحقد المضطرم ان يموت وهو خدين الأبد. فالأمير يوسف سيلحق، إن عاجلاً أو آجلاً، بنسل شاه الى اللحد. وما رام القضاء على نسل شاه وحدها وهو يسفك دمها ، بل ابتغى القضاء عليها وعلى الجزار معاً . وما كان له ان يدعو أحمد بك الى التمني ويده لا تسعفه في العطاء

ولم تسكن نفس المملوك النازي الاضطغان . ولم يقرّ له قرار وهو في ضعضعة المعتكر الصواب. فيجول في داره مجتازاً فناءها ليعود الى مملوكه

وعبده مجلجلاً : دم بدم . هذا مذهبي ولن أحيد عنه . إني للنذل اذا لم انتقم لنسل شاه!

ودعا الوصيفة الى الاحتجاب على عجل . قال بصوت أجشّ غضبان : عودي الى الصرح يا جؤذر . فاني لاخاف عليك من نزق الطاغية القزم اذا درى بمجيئك اليّ واطلاعك اياي على النبأ . وعليك ان تكفكفي دمعك اخفاء للوعتك والا كلفك البكاء ما بقي لك من حشاشة . ان سيدك ليستلذ الغوص في النجيع !

فأبانت بشدة : ليقتلني ولست ابالي الموت . فالحياة أمست عبئاً عليّ بعد اضمحلال مولاتي !

فاكبر فيها الولاء واشتهى أن يدعوها الى التوفر على خدمته . ولكنه ما زال يخاف عليها ولا بد أن يصيبها من نقمة الأمير الشر المستطير ان هو علم بما كان منها في سرد النبإ الفاجع . وأهاب بها أحمد بك الى الاشفاق على نفسها وسينقذها في الوشك من غلاظة مولاها . وما توارت حتى مال على مملوكه وعبده يقول : في هذا المساء سنكون في مدفن القبة لوداع نسل شاه !

وغص بريقه . أين حلم الشهابي السيد ابن السادة ؟... هلا يذكر الأمير يوسف ان الجواري يخلعهن الاقبال على من هم دونهم ولسن يزدن على كونهن هبات تعطى بسماح ، وان التخلي عن جارية مهما علت في دولة الحسن لا يفرض خلخلة روح ، ولا غضبة ماحقة تقعد وتقيم ؟

وانتظر أن يدعوه الأمير اليه كي يستطلع أمر نسل شاه متظاهراً بجهل ما انتابها . غير أن الأمير ما نادى الجزار وقد أهمله في ذاك اليوم للنجاة من استيضاحه عن الجارية الشركسية . فما حفل القصر بسوى سعد الخوري وقد راقه

أن تبلغ الجفوة أمدها بين الأمير والجزار، فلا يطيق أحدهما الآخر، وأن تندلع القطيعة فتقضي على ما شيدا من أُلفة ووئام. قال سعد والامير يروي له ما أنزل بالجارية الشركسية من محنة : أحسن مولاي في بتر أيامها . فسلم من عارها وأبعدها عن الوقح المتجاسر على ثلم الكرامة. وأرى أن يجرف التيار الهادر الجزار نفسه وبقاؤه فينا أضحى علة لا صبر على فتكاتها!

فأجمع الأمير على ابعاد وجه الشر البغيض . قال : انتهت ايامه في دير القمر يا سعد . ساقصيه الى بيروت وله فيها أن يجري في أثر مقابحه. ولدى الحاجة اليه سندعوه الى العمل بما يقدر عليه الموقف . وكنت أبعده عن الامارة باسرها لو كنا عنه في غناء . الا أنه دلني على كونه من أرباب الهمة وليس لنا ان نجازف بامثاله ، والا دهمنا يوم نبحث فيه عن الشجعان فلا نظفر بهم. لنكن على شحّ بالصناديد ولا محيد عن ازدخارهم يا اباغندور!

فظل سعد الخوري يمانع في الابقاء على الجزار في لبنان بأكمله . قال : هو الوباء القَشوش يا سعادة الأمير . وليس لنا ان نفتح صدورنا لوباء يقشّنا جميعاً . فان تكن ترضى بان تحرص على العلة الماحقة فما لنا ان نرقب العمر الطويل . ان الجزار لداء الطاعون فاحذر من بطشه بنا . ما عرفت فيه غير مخاتل نهم الى السؤدد. واني لاضن بك ان تمسي مطيته،أو ان تذهب ضحيته . وليس لنا اذا مضينا في عطفنا عليه ان نفوز منه بما يرجح هاتين البليتين القاصمتين. فمن يطمع في الجارية لا يتماسك عن ابتغاء مولاها!

فاهتز الأمير يوسف . ان سعداً ليجود بالمنطق الصائب. كشف الجزار عن نباته وعينه تطمح الى نسل شاه . وأيقن الأمير ان هذا المملوك اللاجىء اليه مصيبة ، ولكنه مصيبة لا معدل عنها ، كالبرد القارس المنقضّ على

الجوارح ينهشها وما أغنى الناس عنه. غير ان الأرض باضطرار اليه لانقاذها من قاضم الحشرات. قال الأمير والحيرة تأكله: لن يبقى في دير القمر يا سعد. هذه البلدة حرام عليه. غير اني لن أقصيه عن لبنان وانما منه أكرم نفع وهو الحسن البلاء في الغارات!

فهزّ سعد برأسه، أفلا يثق الأمير برجاله؟... ولكنهم لديه على وفرة. وعدّهم له واحداً واحداً وما نسي ابنه غندوراً ولا ابن اخته جرجس باز. قال: ليس لمن يعاهده هؤلاء الانجاد على الطاعة ان يبالي مملوكاً بدناءة الجزار. اني لاعرضهم على سعادة الأمير جميعاً ولا أرى فيهم من يتخاذل في الشدة. واذا هانوا في صيداء فلكل جواد كبوة. وليس لقدم مهما أُوتيت سداد الخطو ان تسلم من العثار!

على ان الأمير ما كان ليصغي الى سعد مع ايمانه بان الجزار نكبة. قال: دعني من صرفه عن ديارنا يا سعد. أما أشرت عليّ مراراً بقطعه عن دير القمر؟.. سأقطعه عنها واعهد اليه في شؤون مدينة بيروت. فمن المقدور عليّ ان اسايره خطباً لمودته بعد غليظ اساءتي اليه. كن أنت للسياسة وهو للحرب. أنت مستشاري السياسي وهو مستشاري العسكري. وهكذا نأمن أذاه ولا نفلته. فلا معدل عن استرضائه وقد حرمناه نسل شاه!

فأدرك سعد ان من الصعب عليه ان ينفر بالشهابي الى اكراه الجزار على النزوح عن لبنان. واكتفى بان يقول: أوضحت لسعادة الأمير رأيي الصريح في الرجل. وأنا من خبر الرجال وتبين مدى أهدافهم ومبلغ معادنهم من النقاوة. ولصاحب السعادة وقد وقف على ما أوحت به إليّ خبرتي أن يقرّ ما يطيب له من صحيح التدبير!

ونفض طوقه من التبعة مع رضاه ، بل اغتباطه ، برحيل الجزار عن دير القمر. فلن يبقى بجانبه خصم صؤول يناوئه ويتفوّق عليه في امتلاك نهية الشهابي . وما عليه وهو يجري في مساق المراحل ، فيبلغ مأربه بالتدريج ، خطوة خطوة ؟... فاذا جلا اليوم الجزار عن دير القمر فلا بد أن يجلو غداً عن بيروت ما دام السعي لتسويد صفحته دأب الشيخ سعد . عدا ان الجزار نفسه جادّ في تسويد هذه الصفحة وليس يقوى على انتهاج السبل الآمنة الزلل. قال الأمير : سأدعوه غداً اليّ وأبلغه ما أزمعت . فينأى عنا ويظل تحت رعايتنا . ان شرفة دير القمر لتطلّ على بيروت !

فقال الشيخ سعد بانحناءة الممتثل للأمر العالي : كلمة مولاي عندي الكلمة الفصل . فان يكن يجد في الجزار دعامة أيّده في أس هذه الامارة فمرحباً بالجزار !

وما زال على رأيه في مساق المراحل . حسبه ان يبلغ اليوم هذه المرحلة الحاسمة في النيل من مناعة المملوك المطماع . قال الأمير : سأعدّ له في بيروت المهمات الشاقة . فلا يتسع له بها الى الانقلاب علينا. وليس لنا ان ننسى رجالنا في ذاك الثغر وسيكونون عيوناً لنا عليه !

وأعلن قولته المبرمة وهو لا يفتأ يذكر نسل شاه بتأثر اللهيف . فما برح يتألم لقضائه عليها مع يقينه انها خافرة الذمام . ومال الى الخلوة بنفسه وقد تراءى له انه حلّ العقدة المستعصية. فدخل حجرة رقاده وأغلق بابها وارتمى على سريره ولكن وهو مضطرم البال. أفلا يكون معبود الجميع في إمارته ؟... واذا قام في هذه البقعة الرحيبة من الأرض الخاضعة لسلطانه من يكرهه أفلا يكون المحبوب الأوحد في صرحه ، تحت سقف بيته ؟... إذن فما

أهاب بالجاريتين الشركسيتين هان زاده ونسل شاه الى الاعراض عنه ؟

وغاظه الكره المنبعث عفواً وليس من حافز اليه . ألا يكون وهو الأمير الشاب ، الحاشد النعمة والجاه ، قريباً الى قلوب النساء ؟... فماذا تشتهي المرأة من دنياها ما يرجح الرغد والعز ؟... والرغد والعز موفوران في قصر الامارة في دير القمر ، فهل من طمع في المزيد ؟

وابتغى الهجوع فقعدت به عنه نفسه القلقة مع ثقل أهدابه . انه للشقي السعيد . سعد بحوله وطوله وشقي بقلبه وحبه. ولعن الجزار بعدما باركه. كان له نعمة فأمسى نقمة . وساءل نفسه عن جوابه لهذا المملوك اللائذ به والمستطيل عليه . كيف يتقي شره عندما يسقط اليه ان نسل شاه أضحت ممن تضمهم القبور ؟... ومع كونه سيداً في امارته أحس بكونه دون الجزار . وأيقن ان مستشاره سعداً لم يبالغ في قولته إن من طمع في نسل شاه سيطمع غداً في وليّ نسل شاه ، ويسعى لزحزحته عن سدته . وحنق الأمير يوسف على نفسه وقد أحسن الى هذا الشره الى السيادة يدركها من كل طريق ولا يبالي فيها حلالاً ولا حراماً . فاذا انتهت اليه محفوفة بالشرف فمرحباً بها ، واذا جاءته مغموسة في السفال فمرحباً بها مرتين !

وجنح الى اقرار رغبة الشيخ سعد الخوري في المملوك أحمد بك . فيقذف به الحدود يتخطاها غير مأسوف عليه . ولكن ألا يرجع جباراً هذا المنبوذ صعلوكاً ؟... وخاف منه الشهابي على نفسه مع كونه في غلواء الشباب ، وفي نزق الطبع ، وما ندّ عنه ما يرتع فيه الجزار من خصب الدهاء . وليس لهؤلاء المفطورين على سعة الحيلة وقوة المراس أن يركن اليهم ذو الرأي الحريص على مكانته . واعتزم الشهابي أن يسكت عن شوق

الجزار الى نسل شاه وأن ينتدبه فوراً للاشراف على الحالة في مدينة بيروت. فيصلح شؤونها ويدير فيها الأمر بالحكمة والعدل . وهكذا يقصيه عن الجارية الشركسية ويعلله بالعز والسلطان

وخيل اليه أنه إهتدى الى مخرج يزيل به عن نفسه العناء. فليس أهون عليه وقد أبعد الجزار الى بيروت من أن يعزله وينفيه عن لبنان . فينجو من وجهه الوقيح ولسانه السليط وينال سعد الخوري مشتهاه

وعزّت عليه القيلولة والفرحة مالت به الى اعلان ما في نفسه . فنفر الى ديوانه وكل ما فيه يحدوه على نشر ما وقع عليه من خمير نضيج . سيؤيده مدبره سعد في الرغبة ويقرّ له باصالة النظر . وهتف بالشيخ سعد وقد لقيه في الديوان مكبّاً على رقاع يحبّرها ويدبر بها سياسة الامارة : أحسبني جئت بالصائب الرشيد يا سعد . سأوفد الجزار الى بيروت حاكماً عليها . وما ان يتولاها لبعض الحين حتى اعزله وانقذ منه الامارة . لا كان ولا كانت خبائثه . ألا تراني موفقاً في السعي ؟... لست أجد من السداد أن نعمد فوراً الى الضربة القاطعة وفيها ما يدل على كوننا من قوم ينكرون الجميل !

على ان سعد الخوري بعد رضاه عن صعود السلم درجة درجة نكل عن سياسة المراحل وقد استوسق له الأمر. ليس للجزار أن يبقى في لبنان . فاستشاط الأمير غيظاً وصاح : أيروقك أن تستأثر أبداً بالرأي يا سعد ؟... ما أجدك إلا مصراً على تحقيق مشيئتك كأني خيال في إمارتي . أصبحت في طور يجيز لي الحكم على أمور البلد ولن أغمط فضل الجزار مهما بلغ من عنجهيته . فالرجل أدى إلينا الخدمة الصدوق. وإن يكن أزعجنا فليس لنا

أن ننتقم منه بما يدل على الجحود . سيكون حاكم بيروت لموقوت الزمن. وهو خير عطاء نعوّضه به مما أفسدنا عليه من رجاوة . وبيروت تعادل في عرفي نسل شاه !

فتوترت أعصاب سعد الخوري . ان الخلعة لتعدو الخدمة مهما بلغ من قدرها وجلالها . وهل للشهابي أن يلمّ بمنزلة بيروت في البلد اللبناني وهي وجهه ، وليس للامارة ظل من الخطر والكرامة وقد انفصلت عنها المدينة العريقة في المجد والشأن ؟ . . . وما يمنع الجزار أن يفصلها ويقتعد ذروتها سيداً مستقلاً بالرأي ، منفرداً بالحكم ؟ . . . وتجاسر سعد على مجابهة الأمير بالرفض مع كل ما يتنزى فيه الشهابي من حنق . قال وهو يعلم انه يعرض نفسه لغضبة سيد لبنان : وهل فطن مولاي الى شهوات الجزار السوابح ؟ . . . لست أراه يبقي على بيروت وقد قبضت على أعنتها يداه !

فضرب الأمير برجله صدر الأرض وصاح بمتطاير الغضب : أنا وحدي رب الحكم في هذه الامارة يا سعد . وأنا وحدي صاحب الفتوى . فالجزار لبيروت وعليك أن تناديه الساعة وتبلغه ما أنعمت به عليه . وهل تراني كتبت له القرار فيها الى الأبد ؟ . . . هي بضعة أشهر ويودعنا بعدها بسلام !

وأبى كل تردد في الانجاز . هذه هي كلمته وإنها للفاصلة . وسدد الى سعد نظرة الكاره النافر . ولم سعد نفسه وهو يجرض بريقه . ليس له أن يصادم الاعصار الجموح . واعتصم بالسكوت . إلا أنه بكى بيروت بينه وبين نفسه . فالجزار سيلتهمها ويهضمها لقمة سهلة . قال الأمير يوسف وقد آلمه صمت الشيخ سعد كما آلمه كلامه : يدهشني اسلوبك في إجابة سيدك الى رغائبه يا سعد . أصبحت أحس ازاءك بأني لا أملك رأياً . فهل كتب لك الأمير

ملحم أبي ، رحمات الله عليه ، أن تتولى زمام هذه الامارة دوني ؟... إذن دعني أنصرف بسلام إن تكن صاحب الرأي الناجز في لبنان . هذا خاتم الامارة وهذا مقعدها . فإليك بهما وأستودعك الله !

ومشى الى الباب يهمّ بالرحيل . غير انه لم يلبث أن عاد وهو يرتجف سخطاً . فتجلى لسعد مبلغ الغيظ المستشيط في أميره وأمعن في جمع بعضه الى بعض لئلا يقتلعه هبوب الريح المزمجرة . قال ياوي بحنكته من جماح مولاه : ما اشتهيت لنفسي من هذه الامارة إلا أن أرى سعادة الأمير سيداً لها ، فكيف أسعى لقهر منازعه ؟... له الأمر وعليّ الامتثال . وان يكن يجد في الجزار ذلك الكفيء المختار فأنى لي أن أُجادل في ما أنحني إزاءه إجلالاً ، وما يتفوّه به مولاي هو عندي التنزيل الركين ؟

وبدا في لهجته الخنوع . فليس له أن يتصلب فيما تجلجل النقمة في فم الأمير . وصاح الشهابي : اكتب اني أطلقت يد الجزار في مدينة بيروت . فله ان يجري في حكمها على ما يضمن لنا ولاءها ويوطد فيها الرخاء !

وانتفضت شفتاه بالبيان القاطع . وما استطاع سعد أن يرفع إليه النظر ، بل امتدت يمينه الى القلم يغمسه في الدواة ويكتب في رقعة بيضاء : « افتخار الأمراء الكرام ، عين الأماجد ذوي الاكرام ، حضرة المملوك أحمد بك الجزار ، الراتع في التأييد والاكبار ، أقمناكم حاكماً على بيروت ، لتشرفوا عليها بنظركم الثاقب ورأيكم الصائب . فمثلونا فيها خير تمثيل ، وكونوا عنوان العدل الكميل . فإن انشراح خاطرنا عليكم يحفزنا الى توكيل أمرها إليكم . فاحرصوا على الحق وعلى صون الذمم من تنكيل البُطل ، فيرعاكم الله بعين عنايته ، ويمهد لكم الى التوفيق واليسر . وكل ما نرجو أن نكون أرضينا أنفسنا

وأرضيناكم وقد أظهرتم من المقدرة والوفاء ما دلنا على مدى إخلاصكم ومروءتكم . فامضوا في هذا النهج الحميد ولن يخيّب الله متّقيه ! »

وقرأ سعد ما سطرت يمينه . فاطمأن الشهابي الى النص الحافل بالتوقير والتمجيد وهتف مرتاحاً الى بيان مدبره المتمادي في اللين بعد صليب الحران : سلمت أنفاسك وعاشت نفثاتك . إنك لمن أرباب الفطانة والبلاغة وبأمثالك تعلو الرتب وتفاخر الدواوين . ما ضلّ أبي عن مهيع السداد وهو يصطفيك لنصرتي وتدريبي . هات الرسالة كي أوقعها وسننادي غداً إلينا الجزار وننعم بها عليه . فينسى ما أصيب فيه بنسل شاه ويشكر لنا الأريحية والعطف . أما عالنتك بأني وقعت على الدواء ؟... لن يخمد في الجزار فورانه إلا عطاء يرجح الجارية الشركسية . ومدينة بيروت أغلى من كل جارية ، وخصوصاً لدى من تحفزه نفسه الى الحول والطول . فما يخفى عليّ ما تنتفض به نفس الجزار من طماح . إلا اننا سنذيقه نزراً من الحلو لنسقيه الفيض من المرّ . فينأى عنّا صفر اليدين من كل مغنم . وهكذا ننتقم من استطالته وعذرنا أنه أساء التدبير في ما وكلنا إليه من مهامّ !

وابتسم ساكناً الى زمنه . وتاه على مدبره وقد تراءى له أنه أدرى من سعد بتصريف الشؤون . فليست الحكمة موقوفة على الشيوخ دون الشباب ولا بد للعقل عندما يهرم من أن يلمّ به العناد الأرعن ، فينظر الى الأمور نظرة عوراء تفسد صحيح الأديم . واحتمل سعد . وكم احتمل في جهاده المضي . وكم سوف يحتمل بصبر الحصيف الأريب . فالحنكة علمته أن لا يقف في بطن الوادي عندما تنفجر الغمائم وتزمجر السيول

١١

التحفت دير القمر بجلباب العشية الادكن تمزقه أنوار مصابيح الزيت في المساكن الغارقة في جلال الغسق . وتمايلت الأخيلة على الأضواء المتضائلة تترقص على الأرض والجدران كمن دهمته نفحات الخريف فارتعد

وفي منزل الأمير قعدان ما انفك أحمد الجزار يرصد مجيء حاجب الشهابي إليه كي يدعوه الى الأمير. غير ان هذا الحاجب ما ارتعش له يومذاك خيال مما أمعن في امتعاض المملوك الخائب في منى لبه. والتفت أحمد بك الى مملوكه وعبده يقول لهما بصوت أبح نافم: هلا تذكران الموعد؟.. لدن نصف الليل نجري في طريق مدفن القبة وهناك حفل من الفروض لا عذر لنا في النوم عنها!

وسمعه مملوكه سليم وعبده أبو الموت يزفر طول النهار، أربد الوجه، عالي الزئير. ويسدد عينيه الى منافذ القصر كأنه يبحث عن نسل شاه مع يقينه انها أمست من الأموات. وما تمالك عن تحريق الارم وعن إطلاق زعقات التهديد. ليس للشهابي أن يهنأ طويلاً في صرحه المنيف والمنايا تطوف به. فالجزار أقسم على إضرامها حامية لا تبقي على سيد ومسود. فما دام الحرمان جزاءه ممن غامر لأجله مغامرة الساخر بالردى، فسينتقم من هذا الباخل بالنوال وليس يضيره أن يبسط يده وهو المقيم على ذخر من النعم. فالذل والموت نصيب الأمير المسيك وما عرف الجزار في ذوي السلطان هذا الحرص الشائن الشنيع

وما اكتفى الشهابي بأن يمنع عن الجزار ما التمس، مع وعده بالسخاء بلا

حذر، بل قضى على من رامها المملوك المتشهّي لئلا يضطر الى الوفاء. وهي خسة لا تبدر من أمير سامي الحظوة، سامق المنتمى

وعزم أحمد بك على الرحيل عن دار لا نصيب من حبائها لذوي الفضل والكفاية. فما لوعدها إنجاز، ولا لذمتها وفاء، كأنها لا ترتقي في مدارج الكرام. ولن ينصرف عنها الا ليجيد هدمها وخنق مداها فتمسي ذرارة في قفر. فالأمير وصحبه سينيخهم الجزار عند قدميه كالانعام وسيزري بامارة طائرة الشهرة، جليلة القدر، رفع لها الرابعون بأريكتها ممن سبقوا الأمير يوسف راية الصولة والعز، فانحدر بها هذا المقتعد اليوم بساطها الى الضعة والشنار

ولم يتناول الجزار طول ذاك النهار طعاماً، مكتفياً بتدخين الشبق وبالتفكير الطويل الممض. غائراً في ما يمجّ من كثيف الدخان وقد شاقه، وهو المكسوف الرجاء، ان يغيب عن الانظار في حجاب من صفيق الضباب. فخجل من مملوكه ومن عبده وقد كافأ بطولته الشهابي بالهزء به، مانعاً عنه من يحنّ اليها جأشه مع دعوته اياه الى الاختيار.

وشخصت عيناه الى النجوم يستشيرها في الموعد المضروب. متى يحين نصف الليل؟... والسماء على صفاء ملاءة وما برحت في الديجور ساطعة الزرقة كصفحة البحر الساكن لولا هذه الكواكب المرتعشة المستوية فيها دون ان تشدّ بها اليها الامراس

ومملوكه وعبده فاسماه الحزن والكره. فأين جود الشهابيين وقد ضربت به الأمثال، وهرع القوم الى لبنان كي ينعموا بهذا السماح الدفاق؟.. والتفت خاطر الجزار في نقمته الطاغية الى ضاهر العمر وعلي بك الحكيم العدوين البغيضين، فما عليه وقد مدّ اليهما يد المسالمة وعاهدهما على طحن الافّاك؟

وخطر له ان يكون عوناً لهما على الشهابي. فيميل من جانب الى جانب. ومن طبعه التقلب وليس يضيره ان يقال فيه انه تبدل بين لمحة ولمحة ونشر لواء كان قد نكسه وطواه . فسيبرح في الغدوة لبنان الى عكاء ويعرض امره على العمر والحكيم ولن يعرضا عنه ولهما من نصرته اياهما وافر الجداء

ولا بد ان يوفق في اكنافهما للانتقام . فيقتحم حمى الشهابي مقوّضاً قاهراً . يجتثّ المراع ويحرق اليبيس . وهتف بمملوكه وعبده : لننهض الى مدفن القبة . نحن الليلة في دير القمر وغداً في عكاء . وللشهابي ان يوطد لنفسه إن يكن يقوى على الثبات !

فوضح لسليم وابي الموت مراده . بات من اعداء الامير . وتأثراه وهما يستنيمان اليه بلا اعتراض وقد تبينا فيه جائح الغضب. وليس لهما في سورة غليانه ان يتلفظا بما يصدم فيه الجماح

ومدفن القبة يقوم بجانب الشربين تيّاه الجدران ، ضخم الحجارة ، شامخ الرأس حتى في الموت وقد ارتفعت قبته بصولة العاتي . وانه لأشبه بحجرة واسعة سدت منافذها كأنها تأبى ان يتصدرها نزيل دون من فيها . وما طال الطريق على الجزار ورفيقيه والمزار قريب . ووقفوا عند باب المدفن وزحزحوه بقوة وسكون وليس لهم ان يقلقوا النيام فيقال فيهم إنهم أقبلوا يسرقون الاكفان

ودخلوا بحذر واضاؤوا سراجاً . وجالت أعينهم في الرمس . واذا بهم حيال تراب طريء في احدى الزوايا . فقال الجزار يخاطب خادميه : احفرا هنا ، هنا !

وحمل بنفسه السراج فيما يحفر مملوكه وعبده الأرض بايديهما بجهد ورفق.

فخشيا اذا ما استظهرا بالرفش والمعول ان يمزقا الجثمان النديّ. وأحسا بليان النسيج تحت اصابعهما . وباعدا في الحذر وهما يرفعان التراب . وارتجف الجزار واشتد به الالم . هنا ترقد نسل شاه . وتفاقمت احقاده على الفتّاك . ليس الأمير يوسف من فئة الاباة . والتفت المملوك والعبد الى سيدهما يقولان : هذه هي . أننتشلها من الحفرة ام نكتفي بأن نزيح عنها الكفن؟

فعزّ عليه ان يقلقها في ضجعتها الاخيرة وقال: حسبكما ان تجلواها لعيني. فليس يطيب لي ان أُحرجها في هناءة الرقدة بعد كل ما اصابها من إحراج !

فرفعا عنها الكفن وهال الجزار ما يلوح منها لباصرتيه . فهو حيال جثة مخضبة بالدم كأنها غاصت في بحيرة من نجيع . ولقد جمد هذا الدم على الكفن حتى صعب على الخادمين ان يسلخاه من الجثمان بيسر . وظهر الوجه مكفهراً ، الا انه خلا من هدوء الموت وقد وضحت فيه النقمة . فالعبوس يكتنفه ويدل فيه على مدى الحسرة والحقد

وما تمالك الجزار عن الهتاف بصوت بكيّ تجاه المشهد الفاجع : نسل شاه ، نسل شاه ، أأكون الجاني عليك ؟

وشخص له انها تناديه اليها كي يعانقها كما فعل في عين الحيّات ، وفي الشربين ، وفي مرج القطن . واغرورقت عيناه وألقى السراج الى مملوكه. واغار على الجثة الراقدة في أحضان الموت رقدة الابد ولامس وجهها بيده. واهوى على الشفتين الباردتين بشفتيه الملتهبتين وهو يقول بلهجة البائس الحزين : أبى الظالم ان يهبك لي وأنت تنشرين على الدنيا روعتك ، فأقبلت على رغمه أستضيء بسناك وانت ضجيعة الثرى . على اننا سنلتقي يوماً وأخبرك بما اصاب الوغد من بغضائي وضغينتي. فسانتقم لك منه انتقاماً رهيباً

تتحدث بفظاعته الاجيال. لن يذهب دمك هدراً ايتها المستشهدة فدى نبضة القلب وصدق الهيام !

وكاد المقهقه، السيّال القهقهة حتى يملأ بها كل فضاء، يتفجر بالانتحاب. ولولا خجله من الهوان ازاء مملوكه وعبده لناح . وخشع الخادمان تجاه مضاء الحب ولوعة الحرمان فاطرقا لا يلتفتان الى سيدهما في متطاير لهفته ولذعته. وعاد الجزار الى تقبيل الشفتين الباردتين الغائرتين في نهمة الموت وقال : سنثأر لحبنا الشهيد يا نسل شاه وسننتصف. لست الجزار ان لم أُنزل بالشانيء أبشع ميتة . سوف تقصّ افواه التاريخ على الذراري حكاية قضائي عليه ويعتبر بتنكيلي به كل غدّار !

وجزّ بخنجره خصلة من شعرها واخفاها في صدره تذكاراً غالياً من غالية ذات حفاظ . وسقطت من عينه دمعة حرّى على الخد الصائر الى تراب فودّ لو التهب ومارت فيه الحياة. وعاب الجزار على نفسه الضعف فتراجع وقد طبع جبين نسل شاه بآخر قبلة يودع بها من رضيت لاجله بالهلكة . والتفت الى خادميه يقول : حسبها ما لقيت من معاسرة . احجباها عن المضنكات !

ووقف ينظر اليهما وهما يخفيان وجهها بالكفن الملطخ بالدم وبالرغام . وما تماسك عن الاعوال وقد غلب عليه الأسى وما لدمع المرزوء بصبابته جمود . وهتف على رغمه : واحبيبتاه !

وشعر بحاجته الى من يعزّيه . فالفاجعة تفرض العزاء . وغادر مدفن القبة لينتقم. فهو في ثورة لا تهدأ الا وقد قوّضت الشوامخ وابادت التماسيح. ومشى امام خادميه بذهن شتيت وضغن جارف . ومرّ بالقصر الشهابي في

طريقه الى منزله فحدج مثوى الامير بنظرة لهوم تروم الافناء. لن يبقى من الامارة ظل يلوح . هذا ما بايع عليه الجزار نفسه . بيـده سينحر الامير يوسف الملتوي عن نبل الامراء

ودخل حجرته لا لينام، بل ليعدّ حوائجه للرحيل. لن يطلع عليه الصباح الا وقد نأى عن دير القمر. وخاطب في الأمر مملوكه وعبده . قال : ألا تأهبا . لم يبق لنا في دنيا المكر والدناءة الا أن نزمّ حقائبنا وننأى عن مربع الخنى . ستسمع عنا دير القمر ما يرتعد له فؤادها هلعاً !

فبادرا الى التلبية وجمعا الحوائج ولم تكن بالوافرة. واسرع ابو الموت الى الخان يسرج الجياد الثلاثة ويقبل بها الى الدار . وكان الفجر قد لاح . وشعر من في القصر بحركة في منزل الجزار . وأطـل الامير يستفهم . مـا يدعو الى الجلبة في مقر المملوك احمد بك؟... واوفد احد خدمه للاستيضاح . وادهشه ان يسمع ان الجزار يهمّ بمغادرة دير القمر . قال : وما يهيب بـه الى الانصراف عنا ؟... أيرحل دون أن يودعنا ؟

ولم يجهل الباعث على الرحيل . فالجزار وقد خاب في ما ارتجى اعتزم مصارمة من امسكوا عنه الملتمس. ولكن هل درى بمصرع نسل شاه؟... ومال الأمير الى الاستطلاع . قال يخاطب حاجبه : ليقبل الينا أحمد بك. فما به يقطع مودتنا وما أسأنا اليه ؟

وبدا الحاجب بين يدي الجزار فيما يوشك المملوك الحردان ان يمتطي فرسه. فصاح الحاجب يدعوه الى التريث في الوثبة : سيدي أحمد بك، الى أين ؟.. مولاي سعادة الأمير يسأل عنك ، فهلا تلطفت بالجواب ؟

فأطلق زفرة عالية تتوهج غيظاً ويستشرف منها نفاد الصبر . أيظل له

الأمير يوسف بالمرصاد ؟... واستوضح عن سيد الصرح : هل استفاق سعادة الأمير في مثل هذه الساعة ، قبل انبثاق النهار ؟

فأبان الحاجب : من عادة مولاي ان يستيقظ على صياح الديكة وان يهيب بجميع من في القصر الى الصبوح . وانه ليدعوك الى مشاطرته مجلس البكور !

فلم يجد له مذهباً عن التلبية مع بليغ نفرته من هذا الصؤول المسترخي، المبيح المسيك. وساءل نفسه عن حاجة الأمير به بعد اخلاف الوعد . أفليس من الأفضل ان يتجاهله وقد أمسك عن الانجاز ؟. . . وما هي حجته على نكوصه عن ذمته ؟... وشاقه الالمام بجبلة هذا المنثني عن الوفاء. فعالن الحاجب: عليّ أبداً التبرك برضى مولاي الأمير . واني لمجيب دعوته باجلال وابتهاج!

ومشى الى القصر وقد تلألأت فيه المصابيح بعد انطفاء،وهبَّ كل من فيه للاستمتاع بصفاء البكرة . وحبا أحمد الى ردهة الأمير الخاصة وليس يؤمها غير الحرم والخلصان.فهتف صاحب السعادة يرحب بالجزار بازدلاف الراغب في محو الزلة : أهلاً يا أحمد بك ، أهلاً . يسرنا ان نراك قبل ان تتعارف الوجوه . إجلس ولن نجد خيراً منك في مساقطته الاحاديث !

والتفّ بعباءته . واعتلت قلنسوة سوداء من مخمل هامته . واستقرّ ازاءه المملوك أحمد بك بعد الانحناءة المعهودة وهو يقول بصوت تشوبه الكمدة : اني لفي طاعة مولاي . وليس لي مهما لقيت في خدمته ان أخرج عن رضاه !

فابتسم الشهابي متودداً وقال : ما كان لي ان أجهل مبلغ ولائك يا أحمد بك وأنت ممن زانهم الفضل والاقتدار.ولن تلقى في خدمتنا غير ما سبق لك ان نعمت به من صفو ورغد.فلقد عرفناك مقداماً وما بخلنا عليك

بالمكافأة . ورأيت إقراراً مني بحسن صنيعك ان أزيد في النوال . فخلعت عليك من الهبات مايسمو به قدرك ويتفق وعظيم بلائك . فليس للشهابي ان يتغاضى عن المواهب ويزدري المكارم وانت ممن يرتعون منها في نصيب جزيل !

وصاح بحاجبه : جئني من ديواني بالرسالة الحاملة اسم أحمد بك !

فانفتل الحاجب كالشرارة وعاد وبين يديه طبق من الفضة اقتعدت كبده رسالة معنونة باسم الجزار . ودنا من المملوك البادي الغمة ، الساكن القهقهة ، الجامد اللسان عن جلاء الانس ، وعرض عليه الطبق اللمّاع ، المزخرف بالنقش النضيد . فتناول عنه المملوك الرسالة وادناها من شفتيه فقبّلها . ثم رفعها الى رأسه تناهياً في الخضوع والاكبار . غير ان نفسه ، مع ذيوع الفضول في سويدائها ، لم تكن مطمئنة الى هذه النفحة المجهولة من عطاء الأمير وقد خاب في نسل شاه

ولم ترتفع عنه باصرتا الأمير وجلّ مبتغى الشهابي ان يعلم مبلغ وقع الصلة من نفس الجزار . ألا تبدد عنه الهبة شوقه الى الجارية الشركسية ؟ . . وما انفكت البسمة ترين على وجه رب القصر كأنه على مستفيض اليقين بان الخلعة أغلى من الجارية المنشودة . وفضّ الجزار الرسالة مستأذناً من الأمير في الاطلاع على ما سخا به عليه من منّة . فأعلن الشهابي وما اشتهى سوى إلمام المملوك المفجوع بخلجة لبّه بمطاوي السطور : ألا افعل يا أحمد بك وقد اجتهدنا في نفحك بما تتطاول اليه نفسك من رفعة ، وبما يذهب عنك بكل جنوح الى المتعة الزائلة . وما كان لمثلك ان يبيع العزّ الدائم بالصباحة الواثبة الى الاضمحلال !

فومض طيف نسل شاه في خاطر الجزار . بل هي ما فتئت تمثل في جنانه

وضميره. بيد ان كلمات الشهابي نزعت بالمملوك الى الارتعاش حنيناً الى الضحية المتوسدة الرمس ظلماً وطغياناً. وأيقن ان الأمير نهد الى تعويضه من الرزيئة بما يقيه الحرقة والنقمة. ولكن ما هو البدل ؟... من الراهن انه جسيم، وزين، وليست نسل شاه بخسة الثمن، زرية المخبر.

وأغارت عينا الجزار على الكلمات تغزوها بملحاح الفضول. بمَ أنعم عليه الأمير يوسف في مقابل ما رزأه به من امنية؟... وما انجلت له المبرّة حتى هدأت نفسه وسكن بلباله. سيتولى الأمر في بيروت وهو ما طمع فيه من زمنه الشحيح. فيركب السدة في ولاية، او في ما دون الولاية، وما نهد الى سوى السيطرة والعزة. وبيروت مدينة ذات خطر، رحبة البسطة، حصينة السور، تقطن فيها نخبة من أرباب القدر وصفوة التجار. فالقابض على أعنتها مغبوط المكانة، طويل النجاد

وطغى البشر على أسارير الجزار وهو يعود فيقف على لباب السطور. وكأنه تناسى نسل شاه فنهض لساعته الى الأمير يقبل يده ويقول بملموس التأثر الشكور : مولاي غمرني بمعروفه ولست أجحد يد مولاي. فالحمية هذا موئلها. ولقد عطفت عليّ فنهضت بي الى حيث يعلو مقامي وتحمد سمعتي. فشكراً لصاحب السعادة وهو ينيلني ما يرجح مشتهاي !

فارتاح الأمير الى القولة المخضبة بعرفان الجميل. محا الجزار من خاطره الجارية الشركسية وكفّ عن المطالبة بها. وما صبا الشهابي في عطيته الوارفة الجداء الى سوى هذه البغية. فلا بد للوقوف بالجزار عن الشكوى والالتواء في العون من نفحة تعلو نسل شاه. واطمأن الأمير الى إجادته التدبير. لن يفلت منه الرجل الأهيب وسيظل يأوي الى الطاعة والنصرة وهو الموقن انهما تسبغان

عليه العوارف الهاطلة الديم

غير ان الشهابي لم ينفذ الى كبد المملوك البشناقي . ولو ملك القدرة على الانسلال الى أعماق النيات لتجلى له في الجزار ثعلب" ماكر يوضى بما ادرك سعياً لالتماس ما لا يزال يطمع فيه . فلن تكون بيروت غير مرقاة الى ما هو أسمى . وإلا فأين نسل شاه وستكون الجارية الشركسية أشبه بقميص عثمان ، وليس ما يمسك بالجزار عن أن يكون أشبه بمعاوية . فيقيم من شبح نسل شاه حربة مسنونة يسددها الى قلب الشهابي ويكرهه بها على إجابته الى كل مطلب،وإلا طعنه بها . وسيطعنه بها لدى نفاد العطاء

وشاق الأمير أن يمازح المملوك فاستقصى وهو يضحك : هل لي أن أعلم يا أحمد بك في أي وجه اعتزمت المسير وقد زممت في هذه البكرة حقائبك؟... هل مللت المقام فينا فنزعت الى الهجرة ؟

فأقسم الجزار بالله وبأنبيائه،وبرأس مولاه الأمير يوسف،على كونه ابتغى رحلة في الغدوة الى بعقلين . فيركب ومملوكه وعبده جيادهم وينطلقون الى استنشاق الهواء المحيي ، الخالي من الكدرة وقد كانت له أنفاس الليل أطهر مصفاة . فقال الشهابي وما انفك يفيض بالمداعبة : أما كنت تبتغي النزوح عنا يا أحمد بك وقد جدنا عليك بالوعد وما اسرعنا الى الوفاء ؟

وضحك الأمير ضحكة مديدة يعالن بها الجزار ان الحرد المستحوذ على المملوك البشناقي ما غاب عنه . فأنكر الجزار ان تكون ساورته انتفاضة من ريب بمضاء الأمير في الانجاز . قال ينفي عنه الشك في مبادرة السيد اللبناني الأثيل الى البرّ في الذمة : وهل لي أن أدحض هطول الغيث وعطايا مولاي ينابيع فوّارة ، وغمائم زخّارة ؟... ما كان للناس أن ينتعشوا إذا

منع عنهم سعادة الأمير مرافده وهو بحر تناءى ساحله . وانى لمثلي أن يتوقل في معارج السؤدد لولا كرم صاحب السعادة مولاي ؟

وجنح به الى الايمان بوضاءة بيانه . فالجزار لا يماري ولا يشعوذ وهو في عرف الأمير يوسف الرجل الكميل . ودعا له بالقهوة وبشراب البنفسج . وسرّه أن ينام عن نسل شاه . والجزار نام عنها بعد ظفره بمدينة بيروت ، ولكن ليعود فيثير أمرها لدن يستظهر لمناوأة الندّ للندّ . فسوف يمسي بمقام الأمير حين يستأثر بالمرفأ الخصب الحصين . وماذا عليه وقد طاول الشهابي وهو يعادله جاهاً وسلطاناً ؟

وتناهى في تضليل السيد المانع الوهّاب . فأطلق ممازحاته وقهقهاته المألوفة حتى كاد يميد بها الصرح ضحكاً . وسمعته جؤذر فالتاعت . هل أضاعت مولاتها نسل شاه أيامها في الهيام بالجزار ؟

١٢

خلع بنو رعد في الضنية موالاة الأمير يوسف عنهم وانتصروا لبني حماده الطامعين في استعادة سيطرتهم على جبيل وجميع شمالي لبنان . وصعب على الأمير ان تنشب الفتنة في الشمال فركب لها الشدة يطفىء بنفسه الضرم ويخضد نفخة المتمردين

وعضده الفوز فهرع بنو رعد الى والي طرابلس يلتمسون الأمان والمسالمة . فلم يضنّ بهما عليهم الشهابي ورجع الى بيروت ساكناً الى جده الموائم . وبدا له الجزار ففطن الى العهد المقطوع وأذاع في من حوله : بايعت أحمد بك على اعتلاء متن الحكم في هذه المدينة ولست بالمتواني عن اقرار ما بايعت عليه!

وفي بيروت محمد آغا الكتخدا مندوب والي دمشق ، عثمان باشا المصري ، وقد نزلها لصونها من اعتداء ضاهر العمر وعلي الحكيم ، ومن مفاجأة الاسطول الروسي الممعن في خوض البحر المتوسط لاحراج العثمانيين . ومانع الكتخدا في اباحة زمام بيروت للجزار ونهى الشهابي عن المجازفة المتوعدة . فاستهان الأمير بالنصيحة وجاهر الكتخدا بَضاء : لو لم أكن واثقاً بالجزار ثقتي بنفسي لابيت عليه هذا السموق . ولكنه يدي اليمنى ، ويدي اليمنى لا تخونني . واذا فعلتْ قطعتها !

ونشر قولته بزهو المدلّ . فليس لظنه بالرجال ان يخيب . قال محمد آغا : ولكن الجزار بالوعة ، وما للبالوعة ان تغصّ بكل ما تجرع . فاذا أهبتَ به الى تجفيف البحر جرع ماءه الآسن وما ارتوى . وأخشى يا سعادة الأمير . . .

فأبى عليه الافضاء بهواجسه معلناً : لا تخف علَيَّ من الجزار . عنانه

في يدي . وما عليّ الا ان أشدّ به كلما رأيته على وشك ان يجمح كي يعود الى النهج السويّ . هذا رجل وهب لي سويداءه بعد كل مـا أسديت اليه . ولست أراه عابثاً بالحسنى ، نابياً عن الخضوع !

وأبى ان يقع في محمد آغا الكتخدا على سعد آخر . فلاذ الكتخدا بالصمت . ليس له ان يشقى حيث يستريح الخليّ . وجمع امره على القفول الى دمشق وللامير يوسف جنى هوسه . فلن يوقن انـه ضلّ الا يوم يجبهه الجزار بما يزعزع به مقعد الحكم . وقصّ محمد آغا على وليه عثمان باشا المصري ما لمس في الشهابي من غفلة . قال : هذا رجل ينتحر . فيلقي سلاحه بـين أيدي الطامعين فيه كي يغتالوه به !

فاعترض عثمان باشا على استيلاء الجزار على مقود بيروت . ولكن الشهابي انبرى يبدي وجاهة الحافز الى اعتلاء المملوك احمد بك السدة في المرفإ المنيع الحوزة . قال : هو من خيار قادتي ومن اكرم الاصفياء وجهاً . ما ندبته للمنصب المرموق الا وفي نفسي الى امانته استنامة ، وفي عرفي الى كفايته ركون . ولم ابصر سواه يوم صيداء يواثب الجحافل المنقضّة علينا . فلولاه ، ولولا « الدهلي » خليل ، لبلينا بفاجعة تشيل نكبتنا . فوافقْني عـلى اعتماده في المدينة العريقة في الخطر وعليّ دركه . فلن يصدمنا في رجاوة ولن يخذلنا في سكوننا اليه !

فطاب عثمان باشا عن الحجاج . فما دام الشهابي على مديد الاسترسال الى الجزار فلماذا اخراجه عن يقينه ؟ . . . ربما كان هذا المعتلّ الضمير في ظن محمد آغا الكتخدا ذا مهجة ناصعة واخلاص حميّ . ولا ارتياب باصحاب المروءات

واتكأ المملوك البشناقي على وسادة الحكم في مدينة بيروت ببطر الحديث النعمة. اضنى نفسه وافنى زهرة شبابه في ادراك المرتبة الرفيعة وتنفس عالياً وقد احرزها، بل لم يكن يصدق انه نالها وما فتىء يلمس اريكته كأنه يشك في كونه يربع بهذه الحظوة الماتعة. وخلا بمملوكه سليم وبعبده أبي الموت يقهقه بملء شدقيه ويقول: اشترى الأمير يوسف نفسه بهذه الهبة السنية. فلو لم يخلعها عليّ لكنا اليوم في عكاء نسدد اليه نصالنا. ألا استمتعا بالنفحة الريّا. وماذا لنا أن نصبو اليه بعد هذه العطية السمحة ونحن ارباب مدينة ذات ابراج وأسوار، يجري فيها تحت امرتنا جيش من المغاربة، ويؤدي الينا تجارها الضرائب، ويخضع لنا اهلوها صاغرين؟.. ليست دير القمر عاصمة لبنان، بل بيروت. فالمعنيون والشهابيون نفوا أنفسهم وهم يهجرون المدينة الخضلة، ذات البساتين الرحاب والمعاقل العُنُد، ليستقروا بمخارم الجبال وأحشاء الكهوف. نحن سادة الامارة لا ذاك الأهوج المريض العين واللب!

واطلق قهقهته على مداها تعدو الشاطىء وتطغو على صخب الامواج. وسمع دقاً بالباب. حاجبه المغربي ذو الطربوش الاحمر، الافطس، العريض الذؤابة، يدخل عليه بسيفه الأحدب، وسرواله الفضفاض، وينحني بين يديه وهو يقول: بالعتبة احدى الغواني تستأذن على مولاي. ولقد تعبتُ في استدراجها الى النطق باسمها فضنّت به عليّ قائلة: «سيدي أحمد بك يعرفني، فلا حاجة بي الى الجهر باسمي على مسمعك وما يكاد يراني حتى يبهجه مثولي بين يديه!». فرفضت ان أعالن مولاي بأمرها إن لم تذع اسمها. فاستمسكت بالممانعة تحثني على ابلاغ وليّ نعمتي رغبتها في الوقوف في حضرته دون أن يدري من يدخل عليه!

فالتفت الجزار الى مملوكه وعبده مبهوتاً . من هي المتشبثة بالكتمان ، الطامعة في المباغتة؟ . . . واستطلع حاجبه أمرها : وماذا تريد هذه المغلّفة بسرّها ، أما أبانت لك حاجتها ؟

– غاية ما تشتهي ان تراك !

– وما هي أوصافها ؟ ... أما تقوى على جلاء شكلها ؟

– بدت لي ناهدة الى الطول ، وافرة النضارة،في مستهل ربيع العمر !

فأجال أحمد بك عينيه في مملوكه وعبده يسألهما : من تكون ذات الغضاضة ؟

فقلبا شفاهما . فهتف الجزار بالحاجب المغربي : لتدخل كي نلمّ بأمرها ! فهي فتاة حسناء وللحسن مقام في جوانح الكهول . ودخلت الغانيـة تموج في صباحتها . وما كادت تلوح للمملوك البشناقي ، حاكم بيروت، حتى صرخ بملء حنجرته وقد انتشر فيه الحبور : جؤذر ؟ . . . هل أقبلت من دير القمر الينا ؟ . . . ما هذه المفاجأة السعيدة ؟ . . . ولكن ما بي أراك في كمدة . هل من أساء الى الاخلاص اليافع يا ذات الرقة والحفاظ ؟... ألا دعيني أؤدب المجترىء عليك ، فمن هو الغدور؟

فاذلّت دمعها وقالت: ليس لذي استطالة ان يتجاسر عليّ وانا استظل راية مولاي . فما جئت اشكو الى حاكم بيروت الناس ، بل حبوت الى سيدي أشكوه الى نفسه وقد نسي من أباحت مهجتها للهلكة فداه !

فأوجعه التنديد وساوره الخجل من ضميره. وتمثل شبح الجارية الشركسية نسل شاه يشزره بعين العتب والغضب . أيكون سريع النسيان في المودة ، فلا يقيم وزناً لمن كفرت لاجله بالحياة ؟

وبلع ريقه وهان في تسديد النظر الى الوصيفة الممعنة في نبش الذكريات. ورقب مملوكه وعبده جوابه . بأي كلام سيردّ عنه الملامة ؟ . . . وشعر بانخذاله وهو يسترسل الى الصمت فقال: لبيك يا جؤذر . لست بالناسي ولا المتقاعد عن الأخذ بثأر الحبيبة الراحلة. فما رضيتُ بامتلاك الأمر في بيروت لسوى اجادة الوثوب على المجرم فأقوّض به سرير الامارة . تعالي اجلسي بجانبي وسأقص عليك ما أزمعت !

وادناها منه وقد شاقته صفرتها . فالحزن وهب لها حسناً لم يكن فيها على هذا الوفر . وابتسم لها وهو يجمجم : مرحباً بك . مجيئك الينا يحيي في ارواحنا السعي للانتقام . ستبقين بيننا ولن يذهب هدراً دم نسل شاه !

فقالت تفضي بكل ما عندها : لم أطق البقاء في صرح دير القمر بعد كل ما استقرّ بوعي. وعزّ عليّ ان تذهب سيدتي كذرارة في مهب النوء فتدحرجت اليك من القمة لتذكيرك بالمقدور عليك في جنب ما بذلتْ الفقيدة الغالية من وكد ، ولدعوتك الى الاستظهار للمصادمة . فأنت لو سمعت مثلي ما يبيّت لك الحصماء في دير القمر لما تمالكت عن تفجير أحقادك براكين !

فنفر الى معرفة ما سقط اليها. قال بلجاجة المستقصي: وماذا سمعتِ ؟ . . هل وقع في اذنيك ما دلك على ان القوم يمكرون بي ؟

وشخص اليها ببصره مرهف الاذن ، نافذاً الى أقاصي ضميرها . قالت لا تخفي عنه ما نزل بسمعها : لولا خطورة ما وقعت عليه لبقيت في هاتيك الفجوات ارتاد مدفن القبة وأبكي مولاتي. وهي بحاجة الى من يبكيها ويبلل ترابها بالدمع الهتون . إلا أني وقفت على ما يحاول الأمير وصحبه فيك فاندفعت اليك كي تقيم على حذر . فلا تركن الى من رفعك الى شاهق وفي

نيته أن يهوي بك الى قاع الجحيم. فيكون سقوطك جسيماً بمقدار ارتقائك المنيف . فالأمير لا ينطوي لك على اكرام . ومدبره سعد الخوري يضيق بك. والاثنان عزما على قصف عودك. وآلمني ان يطويك الغدر فحثثت اليك الخطو كي تقي نفسك الهلكة، وتثأر للراحلة نسل شاه المغبونة في أشواقها !

فاقلقت جأشه . ماذا تعلن الوصيفة الامينة الروح ؟ . . . ونبر وقد هالته المكيدة المنظمة للايقاع به : أتبدين الحق يا جؤذر ؟ . . . هل سمعت الأمير ومدبره يغتابانني ويسعيان لتهديمي !

فاعلنت بمضض ونفرة : ما يطيب لهما الا ان يلتهماك . وما تحدثا عن ايذائك مرة، بل مرات . ووعيت كل ما تطارحا عنك من أقوال. فالأمير عهد إليّ في ترتيب ردهته بعد انطواء سيدتي نسل شاه في رمسها . وكلما دخلت الردهة ابصرته جالساً الى سعد الخوري والكلام يدور عليك !

فحملق فيها بعينين مغتاظتين تتحفز فيهما الشراسة للوثوب واستفهم بنبرة قاسية : أما ينفكان يتحدثان عني ؟ . . .اذن هما يفصّلان لي الكفن، أفما انتهيا من لفقه وغبنه ؟

فاعلنت تبثه ما وقفت عليه في أمره : طلب سعد الخوري من الأمير الاسراع في الاستغناء عنك وليس في بقائك في اكناف الامارة خير يرتجى. فتريث الشهابي وفي نيته ان يعزلك بعد حين . قال سعد: « ولكن في الابقاء عليه خطراً لا تحمد مغبته. من اشتهى نسل شاه فلن يمسك به طماحه عن الوثوب الى سدة الحكم ! » . فظل الشهابي يمانع في العجلة وفي عرفه ان الحكمة تفرض بلوغ الهدف بالتدريج !

فزمجر وقد احتدم نقمة : أمثل هذه المكيدة يلهو الثعلبان ؟... والله،

ما جئت لبنان أسخو عليه بهمتي كي أغادره كالابله الخاسر الصفقة. فالشهابي وسعد الخوري سيؤديان الوافر الثمين عن هـذا التواطؤ الخسيس علـيّ. وشيكاً ويعلمان من هو الجزار في المشاكسة والمناجزة!

وقهقه قهقهته الصخابة يذيع بها أهبته للنفار. فان له من بيروت قلعـة حصينة لا ترام. وما أن يتوفر على توطيد ابراجهـا وترميم أسوارها حتى ينقلب عنها الشهابي خاسراً. فالمغاربة وحدهم يكفون جيش الأمير. وصاح بمملوكه سليم: عليك منذ غد أن تحشد الألوف من المرتزقة في بناء ما تهدم من الأسوار، وفي تشييد ما لا تزال المدينة تحتاج اليه من معاقل. وليكن أبو الموت مساعدك في المهمة. فلا تنقضي بضعة أشهر حتى نمسي في مدينة حريزة الجنبات، لا تدخلها نملة الا اذا أبحنا لها أن تدبّ في ارضنا، ولا يعلو طائر سماءها ان لم نجز له ان يرفرف بأجنحته في جونا!

والتفت الى جوذر يقول: ستبصر عيناك يا ظل نسل شاه ما تطمئنان به الى انتقامنا من الانتكاس. فما عرف الأمير يوسف ولا الشيخ سعد من هو الجزار. على أن الزمن كفيل بأن يجلو لهما امري ومـا يزالان مني في القشور. لهما الويل حين يلمّان باللباب!

وقصفت قهقهته راعدة مجتاحـة. فهي قهقهة الغبطة المندلعـة في ضرم الحزازات. فكأن الجزار يبصر بين يديه الشهابي وسعد الخوري اشلاء تقطر دماً وقد ودعتها الحياة. وامسك بجوذر يقول: هذا مكانك فلا تبرحيه. كوني في خدمتنا كما كنت في خدمة نسل شاه. سيكرمك الجزار ويتمثل فيك من جادت لأجله بعمرها الفتيق، الغضّ!

فأجابت الوصيفة ساكنة الى رفقه بها: نزلت دارك ولن ارحل عنها.

فأنا فيها حتى الممات !

فرضي عن استقرارها بمأواه وقال : سأوليك مهمة الالتفات الى شؤون منزلي يا جؤذر . فانعشي نفس الجزار بما تحيين في ميته من أنس ورغد !

وقام ومملوكه وعبده الى الاسوار ينظرون في حالتها وفي ما تستدعي من اصلاح . وبيروت يومذاك ضيقة . تمتد من المرفإ الى ساحة البرج. ومن ساحة البرج الى باب ادريس . ولا تعدو هذه الدائرة المتمنطقة بالأسوار الضخام . فتولى الجزار ردم كل ثغرة في الأسوار . وشدد في قفل أبوابها في الليل . وطرد فريقاً من أعوان الشهابي . ورحب فيها بالحزب اليزبكي من أمثال عبد السلام العماد وحسين تلحوق . وسقطت هذه الانباء الى الأمير يوسف فاذهلته . أيجري في هذا الصعيد أحمد بك الجزار ؟... اذن لم يكن سعد مغالياً في نعته بالثعبان

وضاق صرح دير القمر بالأمير فودّ لو يهدمه لفرط حنقه . ألا يوفق في من يعتمدهم من الرجال ويظل سعد الخوري صاحب الرأي الأعلى في معرفة الناس ؟ ... واشتعل سخطاً لحيته وقدحت عيناه بالشرر . اين رجاله؟.. ونادى سعداً . ولا غنية عن سعد في الملم العصيب . وأهاب بقادة الجحافل اليه وقد صاح بهم حاجبه : هلموا !

فامتلأ بهم الصرح . من الشيخ علي جنبلاط ، الى مشايخ أبي نكد، الى الشيخ سعد الخوري وابنه غندور وابن اخته جرجس باز ، الى امراء من الشهابيين ومن اللمعيين . وحيوا بأجمعهم الأمير ورددوا القول المألوف : ارواحنا وأموالنا بين يدي سعادة مولانا !

فنشر عليهم قولته المتطايرة اللهب : اسمعوا . طاب للجزار بعد كل ما

أنعمنا به عليه من عزّ ان يجاهرنا بالعصيان. فمنع بعض رجالنا من الاستقرار ببيروت . وحجته ان المدينة باتت له وانه قطع كل صلة بنا . وهو سعي اللئيم وقد أكرمه ذو الحلم . كأن الآية المعلنة : « اتّقِ شرّ من أحسنت اليه ! » تأبى الا ان تفرض أبداً علينا صدق بيانها . وليس لنا في درء الشر الا الانقضاض على مجترح الخيانة لتلقينه امثولة الحفاظ !

واربدّ وجهه وعقد ناصيته . وأجال عينيه في جميع هؤلاء الواقفين في حضرته فما لقي فيهم من يعادل الجزار ضلاعة وصولة . فقد خبرهم جميعاً وعرف فيهم ذوي جرأة واقدام ، غير ان المملوك أحمد الجزار كسف في معركة صيداء كل مقاتل لبناني . وخشي الأمير يوسف ان يبلغ الثائر البشناقي هذا الحظّ الملّي في معركة بيروت . فيهزم الجميع ويسود

وجرض الأمير بريقه والتفت الى سعد الخوري مستجيراً بحكمة الشيخ المجرّب . فقال سعد وهو المدعو قبل سواه الى النطق : ليس لنا ان نندم على ما فات يا سعادة الأمير . فالجزار ، وقد خان في مصر وليّ أمره ، لن يخلص في لبنان لمن التفت اليه وضمد جرحه وكتب له العافية . فالنذالة فطرة في الوضيع . وكل ما علينا وقد جاهرنا الوغد بالعصيان ان نثبت له اننا لسنا نحفل بمضاء ساعده . فنهجم عليه وننزل به من قسوة التأديب ما يدله على كونه طمع في عضّ صوّانة تتحطم عليها الأنياب . وهؤلاء الأمراء والمشايخ ، وهم صفوة كرام اللبنانيين ، على أُهبة لينجدونا عليه !

فهتف جميع من ضمهم مجلس الشهابي : كلنا طوع مشيئة صاحب السعادة أميرنا المعظم !

وقال الشيخ علي جنبلاط بلهجته الشوفية المفخّمة : سندل القبيح الوجه

على قحته الخارقة ، البعيدة عن الاقرار بالمعروف يا سعادة الأمير . ولنا من سيوفنا ما يبين رأس الزنديق من غليظ رقبتـه . فليس لمولانا الا ان يقول كلمته الصادعة لنقتحم قلب الأحمق السافل ونقدّه فلقتين !

فأحسّ الأمير ببعض العزاء وهو يسمع الشيخ علياً في حماسته اللهى وما فتىء يكرم مثوى الشيخ الجنبلاطي الأمين . فان له في بني جنبلاط وبني نكد ما يعوّضه من التواء العماديين والتلاحقة عنه وقد أبصرهم في عون الجزار يحرضونه على سيده ، ويغرونه بالاستئثار بالمدينة الحريزة الحوض . وهتف الشهابي للشيخ علي جنبلاط وعالنه بقوله : لولا تخاذلنا يا شيخ علي لم يكن لأمثال الجزار ان يرعوا في حصيدنا. ولكن الرجيم أبصرنا مشتتين فطمع فينا . وهل من طيب السريرة ان يلوذ به عبد السلام العماد وحسين تلحوق لحضه على عصياننا ؟... أتعبت نفسي في انصاف من حولي فانتهيت الى الاخفاق !

فقال سعد الخوري يحضّ على السرعة في المغالبة : ليس من حسن الرأي الابطاء يا سعادة الامير . فاذا ما شئنا قهر الجزار فعلينا بالعجلة قبل ان يتوافر له ترميم الحصون والاسوار . والا أمسينا حيـال عقدة مستعصية . ففي هذا الاسبوع نحشد قواتنا وندفعها الى محاصرة بيروت ، ونكره الجزار على الجلاء عن المدينة . والا أضحى اقتلاعه منها صعباً ، بل محالاً ، وله من منعاتها الشمّ ما يقيه سوء العاقبة !

فنبر الأمير : اجل ، في هذا الاسبوع . أصاب الشيخ سعد وهو الوجيه الرأي في كل معضلة . بيد اني لا اطيعه فأكبو . ولو أصخت اليـه في منع ولاية بيروت عن الجزار لكنا الساعة في صفاء بال . بل أنا لو اصغيت الى

نصيحة محمد آغا الكتخدا ، ووافقت عثمان باشا المصري على ممانعته في إيلاء الجزار مدينتنا الفضلى ، لنجونا من هذه الوعورة الكابحة . فالجميع خبروا استذئاب الماكر ما عداي !

وعاد يقرّ بجهله طباع الناس . فقال مشايخ بني نكد : ليس فينا من يتماسك عن سحق الشاذّ يا سعادة الأمير !

وقال غندور الخوري وجرجس باز : نحن في ركاب مولانا !

فابتسم لحماسة الشباب الطريّ. وقال سعد يضرب الموعد الحاسم : في هذا الاسبوع ندخل بيروت وللجزار أن يصدّنا عنها !

وتوعد الشيخ سعد بغضبة المستكبر. واتسعت يده في الانفاق وقد رام تجهيز جيش لهام بالسلاح وبالمؤونة . وزحفت القوة اللبنانية الى بيروت لتدويخ المملوك البشناقي الباغي . الا ان الأمير يوسف، وقد أشرف على المدينة ، هاله أن يهجم على أبوابها وهو يتخيل الجزار بسخريته وبجبروته . فأقام في ربى بعبدا مرتعد اللب، واهي العزيمة. وارتأى ان يكاتب الجزار، لا أن يصوّب اليه رصاصة أو نصلة . حرب القلم أهون من حرب السيف ولن تراق فيها قطرة دم ، ولا تكسر شوكة . فلا يستأسد الجزار ولا يصول صولة القاهر المستهين. وما برح الشهابي على خوف من قاطع الرؤوس المغوار وكأنه يلقى فيه شبح الموت النهيم

والرسالة حملها الى الجزار أمير من اللمعيين . وقهقه الجزار وهو يقرأها ويلمس فيها خشية الأمير. وقال ببعض السخر : ألا ماذا بيننا وبين سعادة الأمير المفدى ؟... أيؤمن بما نقل اليه الوشاة ؟... ولكننا لا نزال في عصمته وتحت جناحيه. وهل لنا أن نعمى عن أياديه علينا ؟... نحن وبيروت

له وما زلنا من عبيده . وأنى للجزار أن يسيء الأمانة ويخلع عنه طاعة مولاه؟... خسىء النمام !... أين سعادة الأمير مولاي كي أؤدي له الخضوع ؟... اني لفي حاجة الى مرآه لمعالنتــه باني لن أتحوّل عن فروض الاجلال لسدته العلية !

وكتب اليه يبدي الحرص على الذمام . قال : «ليس لغرسة مولاي أن تخرج عن ولائها لسيد نعماها. فكما تعهدني مولاي بفضله ومنته سيجدني في الحفاظ له وفياً. وما كان الجزار ممن ينتهكون حرمة الميثاق . واذا تكرم سيدي صاحب السعادة بلقائي في ضواحي المدينة للتواضع على بنود الخير فسيجدني في الاخلاص له في نظيرة الأبرار . فما حاول الجزار ولن يحاول الاستئثار ببيروت وهي درّة خالصة في تاج امارة لبنان . غير انه يجاهد في صقلها كي يعود اليها اشراقها ، وتتألق على ما يبيح لها رونقها في التاج المرموق. ذمتي لمولاي صاحب السعادة لا تشوبها كدرة من استرخاء !»

فغلب على الأمير سهو طويل وهو يطالع هذه الأقوال النديّة بالولاء المصفّى . ألا بأي لهجة يتكلم الجزار ؟... أيطيب له الهزل حتى في الموقف الجادّ ؟... وهل لمثله ان يعلن الأمانة وهو منها براء ؟

وألقى الرسالة الى من حوله من أصحاب الرأي والقادة معلناً : حيّرني هذا البشناقي الداهية يا جماعة . فمن أي ناحية جئته لقيته يسدّ عليّ المجال. تعالوا انظروا بأي لغة يخاطبني . أتهمه بالسعي للعصيان فيجيبني بالبقاء على الذمة. أهدده بسوء مغبة الغدر فيتمادى في اعلان الاخلاص. وكيف تريدون أن ألقى عدواً في من يخاطبني بهذا البيان ؟

وارتاح في صميمه الى منطق السماح. فليس في نيته ان يخوض معركة يناوئه فيها الجزار وقد شعر بانحطاطه عن الخصم الوثّاب . وطمع في ان

يسمع ممن حوله الدعوة الى الكفّ عن المنافرة ونفسه لا تلتفت الى مخاصمة البشناقي المخوف . قال الشيخ علي جنبلاط وهو يقرأ الرسالة الحلوة الألفاظ: ما ثمة غير كيد مفضوح يا سعادة الأمير. فالجزار يبدي اللين التماساً لكسب الوقت . أراه لم ينجز تحصين المدينة فلاين وتطامن . على انه لا يكاد ينتهي من تشييد المعاقل حتى يزري بكل عهد !

فنقم الأمير يوسف في أعماق روحه على هذه الحماسة المتطرفة في الشيخ علي . أيريده الجنبلاطي على الخذلان ؟... للجزار اسوار بيروت وملاجئها ، وجنود المغاربة ، وسعة حيلته ، وبراعته في القتال، واقدامه . وماذا للامير يوسف من جميع هذه المزايا الغلاّبة الحول ؟... هل له ان يواثب أسواراً لا تُنال ؟

والتفت الى الشيخ سعد جهم الأسارير ، ملهوفاً . فأدرك أبو غندور ما تحنّ اليه نفس سعادة الأمير وأكبّ على الرسالة يطالعها. ونزع الى مقاسمة الجنبلاطي رأيه في ضرورة القتال . بيد انه يعلم ما في نفس سيده من رهبة حيال الجزار . فقال يخاطب الشيخ علياً : وما يمنع ان نؤمن بقولة المنافق يا شيخ علي ؟... فنتظاهر بأننا موقنون بحسن طويته ونذهب اليه فنسمعه في دفاعه عن نفسه. فاذا تجسم لنا فيه الكذب فالمجال لا يبرح متسعاً للضربة الطحون ، والا اكبرنا فيه طيب السريرة ووافقناه على المضي في وجهه المطمئن !

فكأن سعداً ينطق بلسان الشهابي . لقد أنقذ أميره . فصاح الأمير : انك لعلى ذخر من فطانة يا سعد . فما يبتغي الشيخ علي ان يبلغه بالسيف تنطلق أنت اليه باللسان الحلوب . وسنجري في نهجك . فنلقى الجزار في

ضواحي بيروت ونأذن ببراهينه. فاذا وضح لنا فيها المقال الرشيد أيدناه، وإلا شدخنا رأسه بحد هذا الحسام!

وانقضت يمنـه على مقبض فيصله. غير انه ما تجرأ على انتضاء النصلة وقد ومض في باصرتيه خيال الجزار. ولم يكابر الجنبلاطي في المواءمة. إن يكن بالمستطاع استعادة بيروت بلا قتال فلماذا سفك الدم؟

وانحدر الأمير يوسف من بعبدا الى المصيطبة، وهي ريشة في قوادم بيروت الحافلة بالصبّار وبالرمل، لا ترى منها العين غير ملاءة صفراء تغور في منخفضات وتعلو في تلال. ولم يرتفع فيها غير شتيت من أكواخ موحشة، مهجورة، وأشجار متباعدة نمت في جفاف الصخر ووعورة الشاطىء. ووقف موكب الأمير في صدرها يرقب أن يبدو ركب الجزار. وظهر المملوك البشناقي يترجل في انتفاضة عجلى عن متن جواده، ويتطامن فيقبّل الأرض بين يدي الأمير، ويزحف فيلثم يـد وليّ النعمة وهو يعلن بصوت كسير: موتي ولا الاغضاء عما أسدى اليّ مولاي من صنيع. فإني لأنوء بعبء عوارفه وما كان لي أن أنسى اليد المؤاسية، والبلسم المحيي!

فانتعش الأمير يوسف وانتفش. وساءل نفسه أين يكون الخـداع في هذا الزاخر الروح بالاذعان؟ ... وابتسم للجزار وقبله في كتفه. وجميع من سمعوا المملوك البشناقي زال عنهم الارتياب بسوء منقلبه. فليس لمن يذيع هذه القولة ان يرمى بظنة العصيان

وتكلم الأمير وقد طفحت نفسه برخيّ البشر فقال: كنا شككنا في حفاظك يا أحمد بك، الا أن حسن بيانك جلا عنا ما ساورنا من ريبـة. ولم يبق عليك كي تؤدي الأمانة حقها الا أن تعيد الينا المدينة وتسلك طريقك

بأمان الى حيث يبدو لك يسرك. فليوفقك الله في كل وجه تنقل فيه خطوك. نحن بحاجة الى الاستقرار بهذه الرحاب وهي مأوانا في الشتاء وحرزنا !

فأبدى المملوك البشناقي بفيض من مواءمة : وهل لي ان أمنع عن مولاي ارضه وسماءه ؟ .. فالمدينة بعض امارته وما أنا فيها غير لاجىء الى رحمته. على اني أبذل من نفسي في اصلاح هذه الواحة بما يتفق وعظمة مولاي، حتى إذا ما قطن فيها أحس بكونه في خصب من الروعة والمنعة. واني لأشتغل بترميم صرح مولاي النبيل بما يبيت به مثالاً للزخرف النضيد. فإذا ما أمهلني صاحب السعادة أربعين يوماً ألقيت بين يديه مدينة بيروت على غير ما عرفها ورآها. فسيخيل اليه أنه في جبهة الأسد وهو يحبو اليها كما أشتهي أن تكون !

فتنكر الأمير لهذا الرجاء وما وراءه غير الدواهي. واستوضح : وما يحول دون دخولي إياها الساعة يا أحمد بك ؟

فابتسم الجزار ابتسامة يشيع فيها التهالك على الاسترضاء وقال : وهل لي أن أصدّ رب الأمر عما تملك يداه ؟ ... لك أن تدخلها ساعة يطيب لك نزولها يا مولاي. غير اني استرحم منك الامهال أربعين يوماً ليس غير كي ينعم صاحب السعادة بما أعدّ له من مفاجأة خارقة سيطرب لها خاطره الكريم. فالجزار من أرباب الذوق السليم كما سيتبين لسيدي الرفيع المجد!

فالتفت الأمير الى صحبه يستشيرهم في السؤلة. فمنهم من أيد الارجاء ومنهم من صادمه. والأمير شاء أن يصادم للنجاة من البلية بسلام. على ان الجزار رفع الصوت يقول : أحسبكم تؤمنون بحسن نياتي. فلست ذلك المنادي بالفتنة كي تتقوني وتحذروا التطويل لي في هذه البلدة. فإن حبي

ووفائي لأميرنا المعظم يفرضان عليّ المجاهدة في كسب رضاه. وأراني حقيقاً بهذا الرضى يوم أنجز ما أُشيد لمولاي من جليل نظيم. فدعوني أظفر بثقة أميري بي، وإنها لثقة غالية عندي. هي أربعون يوماً. فإن أكن أبتغي ان أُنشىء في أثنائها ظلاً لمقاومة لما استطعت. إلا أني أقوى فيها على اصلاح المغاني المتهدمة، غير الجديرة على حالتها بعظمة مولاي. فاصبروا عليّ ريثما تنقضي الفترة وتعالوا خذوا مني بيروت بأسرها. سأرحل عنها لا أستبقي فيها غير أثر من عرفان الجميل يقدره عليّ الاخلاص، واستودعكم الله!

وأدى مقاله بصوت يشفّ عن نصاعة دخلة. فليس يبتغي ما يجاوز هناءة مولاه. أفلا يفسح له الشهابي في البقاء اربعين يوماً في بيروت فيبني خرابها، ويقوّم اعوجاجها، ويصلح المتداعي من برجها وأسوارها، فيتسلمها منه الأمير درة مصقولة، بادية الجهارة، ومعقلاً منيعاً تتحطم دونه الوثبات الناهكة؟... فحار الشهابي في ما يعلن وما انفك الارتياب يساوره. فهتف الجزار وقد أحس بكونه لم يبلغ من نفس الأمير مكمن الثقة: وحرمة الدين، وتربة آبائي، ليس لمهمة التنظيم سواي. بيروت المدينة الحصينة، المكرهة على صد هجمات الأعداء في البر والبحر، المختارة لايواء سعادة الأمير في الشتاء، بحاجة الى ترميم ينهض بها من كبوتها، والا اضحت اكلة سهلة لضاهر العمر وعلي الحكيم العدوين المشاكسين. وأغار عليها الاسطول الروسي يحتلها دون ان يلقى من يصدّه عنها. ولقد فاجأها ونحن نقاتل في صيداء، كما يذكر سعادة مولاي، وفرض عليها المغارم، وانزل بساكنيها من ضروب العدوان ما لا تزال تئن منه، فهل لنا أن نبيحها له أبداً كأنها المشاع؟... ليهبها لي مولاي شهراً وبعض الشهر وليستردها مني

حصناً لا تلوى له شوكة ، ولا تهون منه ذروة . فالجزار من ذوي الضلاعة في زخرفة المدن وصونها من الاخطار !

فنفذت كلماته الى لب الشهابي مجلّلة بالاقناع . فما دام يجنح الى هذا الخير كله فما يدعو الى الامساك عن امهاله اربعين يوماً وسيشتغل فيها لصاحب نعمائه لا لنفسه ؟... واستوضح الأمير يجلو عن باله كل ريبة : وترحل عنها بلا ابطاء يا أحمد بك ؟

فاعلن بألم المفؤود : سأرحل فوراً يا صاحب السعادة الى حيث لا يبدو مني لمولاي خيال . فانا أعلم أن من دأبهم التشنيع على ذوي الفضل نالوا مني في حضرة سعادة الأمير وبالغوا في الاغتياب . واجتهادي في دحض ما وصموني به من فرية يدعوني الى صياغة بيروت في قالب جميل حريز، دليلاً على حفاظي وسلامة طويتي، والابتعاد مضطراً عن سيد له في خاطري اكرم موئل وأصفى مودة ما دام خصمائي يأبون عليّ التوفر على خدمته. وسابقي له بعدي من مدينة بيروت أسنى تذكار يلفته اليّ ويدرك به ان الجزار حريّ بالثقة ، نصوح الولاء . سيندم كلانا على مغادرة الآخر يا سعادة الأمير ، ولكنها مشيئة الحسّاد الانكاد ، لا كان الوشاة !

فتأثر الشهابي وقد خاطبه الجزار بلغة العاطفة وهتف : هي لك لاربعين يوماً يا أحمد بك . فأصلح منها بثاقب حجاك وماضي همتك ما تمسي به عزيزة على الطامعين فيها !

فأكبّ الجزار على يد الأمير يقبلها وهو يقول: ما كنت ولن أكون غير الأمين على عهد مولاي. بيروت ستمسي قلعة عزيزة حريزة تهون دونها وثبات النسور. فالفلك سأسدّه على من يشحذ اسنانه لقضمها. خسىء الغادرون !

وانصرف الى تحصينها بعزوم الوكد وما انفك يعاهد على اخلائها بعد اربعين يوماً . فطوّق أبوابها بالحديد ، ورمم أسوارها ، وأصلح فيها مثوى الأمير . وانقضت الأيام الأربعون فاذا بيروت في منعة الشوامخ . وتحرك موكب الأمير يوسف اليها طاوياً دير القمر . ووقف ببابها وهو يرتجي ان تلين له دروبها ويبدو في الترحيب به الجزار وصحبه هاتفين له هتافهم للفاتح المنصور . غير ان الحارس المغربي المتسلق أعلى السور صوّب الى الأمير فوهة بندقيته صارخاً به بجفوة المستهين : ارجع . أمرني مولاي الجزار باطلاق النار عليك اذا لم تعدْ من حيث أتيت !

فماع الشهابي استغراباً وذعراً . أينطق هذا المغربي بالقول الصراح؟... وما كان ينطق بسوى الواقع وقد ظل يسدد فوهة بندقيته الى صدر الأمير ويدعو بالحاح الموكب الشهابي الى النكوص إجابة لملتمس أحمد الجزار . وظفر بالشهوة . فالتوى الأمير يوسف مكرهاً عن المدينة المحصنة ، الغالية ، وفي نفسه حقد وهول . خدعه الجزار شر خدعة . وأذاع في رجاله النبأ الجائح . استأثر المملوك الجزار بمدينة بيروت بعدما شيد أسوارها ، ووطد معاقلها . فكان ذهول ممضّ شادخ . ونفرت قوات الأمير الى السلاح هادرة ناقمة . ولكن ماذا تستطيع في المدينة الركينة الحوض ، المكينة الجبهة؟... وانتابت الرهبة الأرواح . وانطوت الصدور على إزراء بالماكر المطماع . وتماسكت الألسن عن كل لوم وعتاب وليس المجال بمتسع لهما والمنشود اكراه الغاصب على افلات الفريسة

وتذكر الأمير نصائح سعد الخوري ، ومحمد آغا الكتخدا ، وعثمان باشا المصري والي دمشق . الا أنه لم يحسب الجزار ذئباً قاطع الناب . واستجار

بأهل الرأي على المناكر الوقح. فأشار عليه عمه الأمير منصور بمحالفة ضاهر العمر وعلي الحكيم وكلاهما حانق على الجزار، كفيء له. قال عمه: هما ممن واليتهم ونصروني، وسأستميلهما اليك مع كل ما وقع بينكم من صدمات!

ومهد الأمير منصور الى الالفة. واستعدى ضاهراً على احمد الجزار المعتصم بمدينة بيروت الحافلة بالمدافع والذخائر والحصون. فكتب ضاهر العمر الى الاسطول الروسي المتوسد مياه جزيرة قبرس كي يفاجيء بقذائفه المدينة المتنكرة لوليّها. فقهقه الجزار ساخراً بالنجدة وقد احتاط لنفسه وردم كل ثغرة في الأسوار. وأطلق رجاله المغاربة الى خارج البلدة للفتك بكل من يلوح لهم من رجال الأمير.

وتحرك الاسطول الروسي تحت امرة الكونت «جواني» يغزو مدينة بيروت. غير ان الجزار قاوم لا يبالي. رصاصة برصاصة وقذيفة بقذيفة. وفاق أعداءه بقهقهته وليسوا ينعمون باخت لها في الدويّ والمضاء. بيروت مرتعه وهو رب الأمر فيها. على أنه شعر بعد حصار طال اربعة أشهر، وكأنها الأبد، بنفاد الذخيرة والمؤونة. فلا طعام ولا رصاص. فأغار على الخيل والدواب يذبحها ويأكل ورجاله لحمها. وضاقت به كل سبيل فكتب الى ضاهر العمر يستغيث طالباً الامان: لقد أغراني الشيطان فعفواً عني!

وضاهر فاوض الأمير. والأمير رضي وقد بات جلّ مشتهاه أن يستعيد بيروت من غاصبها. فأوفد ضاهر العمر رسوله يعقوب الصيقلي الى الجزار

يدعوه الى الاستسلام . فألقى اليه الجزار أمره . فساقه الصيقلي وجماعته الى عكاء وبينهم جؤذر وصيفة نسل شاه . وقبض الأمير يوسف شهاب على ناصية المدينة الشاردة المنكفئة . ولكن بعدما أدى الى الاسطول الروسي ثلاثمائة الف قرش بدل نصرة وجهاد

الجزء الثاني

ثأر لا ينام

١

هبّت رياح البحر في عكاء باردة رعناء . فالشتاء أدهم الوجه ، قاسي الظفر. والموج يواثب أسوار المدينة بقحة واضطغان . وفي إحدى حجرات القلعة ، المطلّة على اليمّ ، جلس أربعة على بساط من الصوف متعدد الألوان يتحدثون وما في أحاديثهم غير حسرات . قال أكبرهم سناً وهو يطلق الزفرة تلو الزفرة وقد اكتوى بلاذع الشجن : لم نكن موفقين في اغتصاب بيروت . حاولنا انتزاع المدينة من الشهابي والاستئثار بها فاستعان علينا بصاحب هذه الولاية وقهرنا . وما كان لهما أن يستعيدا من ترابها ذرة لولا الأسطول الروسي . الا أنهم القرصان الروس وأمرنا فيهم لله !

ونفخ نفخة أشبه بعصفات الريح المالئة جوانب القلعة فحيحاً وصفيراً . ولم يكن هذا الاسيان المتأفف من كيد الزمن غير الجزار . وما رفاقه سوى مملوكه سليم ، وعبده أبي الموت ، والوصيفة جوذر . قال أبو الموت : مولاي يؤلم نفسه بهذا الالتياع المستولي عليه ، أفما يرفّه عنه ويسترسل الى حبوره وقهقهته ؟... أصبحنا نحس بحاجتنا الى الجو المرح ننسى به الاوجاع !

فنبر الجزار : لا قهقهة بعد اليوم يا أبا الموت . فما دمنا في الأسر فالعبوس لزامٌ علينا . أتوانا على هناءة في هذا الوكر المشؤوم الوجه وليس لنا فيه منفذ الى استنشاق الهواء الطلق ؟

فأعلن المملوك سليم : لست أشاطر سيدي رأيه في ما يتولانا . شخص لي اننا سنلقى في عكاء الويل ، فإذا بضاهر العمر يحسن لقاءنا ويكرم مثوانا . فأبى أن نقيم لديه أسرى وأباح لنا من أمرنا ما نقوى به على القول إننا ناعمون بحريتنا . والقوم أجمع يكبرون في سيدي إقدامه وفضله . فلم ترتفع الأعواد لصلبنا ، بل ابتسمت الوجوه ترحيباً بنا !

فهزّ الجزار برأسه وقال : هذه المظاهر لا ينخدع بها سيدك يا سليم ولا هي تثنيه عن طماحه . مقامي ليس هنا ، في حلقة ضيقة ، موبوءة الجو ، لا أملك فيها أمر قيامي وقعودي ، بل في مهد وثير أشرف منه على شؤون أمة كاملة . ولا تنس ان عليّ الأخذ بالثأر لمن فجعني بها الشهابي الغرّ . ولقد خيل إليّ اني انتقمت وأنا أستولي على بيروت ، فإذا الملتمس يفلت مني ويقدر عليّ الجدّ في إدراكه . وسأدركه . وسوف ترتاح عظام نسل شاه في ضريحها . فالعهد المقطوع في مدفن القبة في دير القمر منقوش في الصوّان !

فأوضحت جؤذر تزيد في إضرام النار : ليس للشهابي أن يعد ويخلف ، بل ليس له أن يمنع القلوب من الجهر بميولها . قتل مولاتي نسل شاه لكونها تميل عنه الى سيدي أحمد بك . وجزاء القاتل القتل في كل شرعة سنّها ذو رأي وإنصاف !

فجلجل الجزار : وسيقضي البغيض نحبه . أما هددت بقتله ؟... ساطفىء بيدي شعلة أيامه . فلن يبقى الجزار ذلك المغمور المهمل ، بل سيطوي الفدافد

الى استانبول ويعود منها برتبة عالية . فالقوم في دار السعادة بحاجة هنا الى مثلي كي يقود سفينتهم الى الشاطىء الآمن ، وخصوصاً بعد ابتلائي الجماعة . وحق من براها من عدم، سأرجع والياً على صيداء ، وأستقر بهذه القلعة ، وأنيخ الأمير يوسف كالبعير ، وأضرب عنقه وعنق مدبره سعد الخوري بحد سيفي الخاطف وقد حسبا الجزار من البغاث . يا ويلهما مني وقد حلقت نسراً في هذه الأجواء !

وانتعش بالأمل. وتحمس بالحقد. وهاجت فيه شهوة الانتقام . سوف تعرفه البلدان العربية بركاناً محرقاً . وما زالت عيناه تحدقان الى الخفي المجهول ولم تمت فيه الرجاوة الشاحطة الأمد كأنه في العشرين لا في الأربعين

واعتزم استعباد البقعة العربية . سيذهب لصليل سيفه رعشة في العروق وفي العظام تخنع لها النفوس وتلتوي الهامات . ومن هم القابضون على الزمام في دمشق ، وطرابلس ، ودير القمر ، وعكاء ، والقاهرة ؟...أيعادلونه فطنة، ورباطة جأش ، وجرأة ، وحنكة في السياسة والنزال ؟. . . لقد خبرهم جميعاً فما لمس فيهم بعض دهائه وإقدامه . وكل ما يتفوّقون به عليه لا يعدو القوة والمنصب . وسيزدخر القوة والمنصب ويطيحهم وينثرهم حفنة من رماد في مهب الأنواء

وشاقه الانتقام الحاصد . فما أطيب مذاقه واهنأ مغبته . وغاب عن رفاقه كأنه يسبح وحده في الفلك الدوّار . فالسيادة تسكره وهي فاتنته . وسمع دقاً بالباب مال به عن بعيد خياله . والتفت وأبصر عبداً من عبيد ضاهر العمر يحييه باحتشام ويقول : هل لسيدي أحمد بك أن يجيب مولانا ؟

و « مولانا » هو ضاهر العمر ولا خلاف . هذا المجاهر استانبول بالصدود

لا يبالي شامخ سلطانها ولا بأس كماتها . فاستظهر عليها بالروس و كسف فيها المجد العثماني،وأقام نفسه والياً على عكاء على رغم الباب العالي . قال الجزار وقد نهض على عجل يبتسم للعبد وينحني إكباراً لصاحب الدعوة: وأنى لي أن أصدف عن الطاعة المقدورة عليّ للسيد الجليل الشأن ؟

ومشى في أثر العبد المتمنطق بالخنجر، الطويل الجلباب ، الحافي ، المشقّق القدمين ، المرتخي الأذنين ، الناتىء اللبّادة وهو يقول في نفسه : وماذا يريد مني ضاهر العمر ؟... هل يطيب له أن يصرفني عنه ؟

ولم يكن يدري أين يحط الرحال إذا أقصاه ضاهر العمر عن ولاية صيداء بعدما نبذته امارة لبنان . فالمسير الى استانبول يروقه ، ولكنه لا يملك له العدة وكل ما حشد من مال نفد في الحصار .وغار في الانحناء وقد وقف في حضرة والي عكاء يقبّل بين يديه الأرض .فهشّ له ضاهر العمر وبشّ . وأدناه منه يقول بطلاقة الأنيس المطمئن : سمعنا بك يا أحمد بك وخبرناك وأنت الباسل المقحام ، فلا حاجة بنا الى عجم عودك وليست تخفى علينا مخايل الاقدام فيك . ورأينا أن نصونك من الأسر وليس لمثلك أن يأوي الى السراديب . فخصصناك بجباية أموال هذه الولاية . وما يضيرك أن تتولى المهمة وهي ذات عائدة تقوى بها على تيسير أمرك . على أن تحبونا من أمانتك ما يزيدنا يقيناً اننا حيال أخي ذمة وصلاح !

فأعلن الجزار منادياً بالولاء والوفاء : وهل لي أن أشيح عن النعمة بوغادة الكفور يا صاحب السعادة ؟... انا في خضوعي لك لا أزيد على القيام بالمقدور عليّ لمن حجب دمي ووهب لي ثقته الوارفة،وهي أغلى عليّ من حياتي . فالجزار لا يجحد المنّة وسيراه الشيخ ضاهر العمر ، مولاي ، يتهالـــك

على الخدمة المثلى ويرعى الذمام !

فابتسم ضاهر العمر ابتسامة الموقن ان ليس للغادرين لديه مكان . فهو يحسن تأديب الأثيم ولا يتوانى في مكافأة المفضال . وخاطب الجزار بقوله : ما ندبناك للجباية يا أحمد بك لسوى الحؤول دون بقائك في الأسر . فدعنا نشكر لك جميل سعيك بما تبدي من الحرص على خيرنا !

وأطلق له يده في جباية أموال الولاية الواسعة النطاق . له أن يجري في استيفاء الضرائب من صيداء الى غزة ، فالعريش . وراق الجزار الاستيلاء على أكياس الذهب وقد كادت تنقصم بها ظهور البغال . وحدثته نفسه حيال ما غاص فيه من نضار بأن يختلس هذه الثروة الدفاق ويفرّ بها الى استانبول فيشتري منصباً عالي المدرجة . أليس المال وقفاً على استانبول وهي قاعدة البـــلاد العثمانية ، فلمـاذا يستأثر به ضاهر العمر ويمنعه عن أصحابه وهم أحق به منه ؟

وجالت في ضمير الجزار الأماني الصباح . بوسعه أن يفتتح بهذا المال أمنع القلوب في الباب العالي وأن يقودها في رضاه . وأبت عليه مطامعه إلا أن يندفع في سبيلها بلا إبطاء . فلماذا لا ينتهز السانحة ، وهذا أوانها ، وهو أبرع من أغار على الفرص وقبض على مطاولها ؟

ونادى إليه صحبه وتحفز للوثبة . سيستظهر بوالي دمشق عدو ضاهر العمر والحاقد على الأمير يوسف بعد محالفة الشهابي سيد عكاء . فيسهّل له عثمان باشا المصري الى استانبول كي يعالنها بإخلاصه وينفحها بأكياس المال حجة ناطقة عـلى منعة الوفاء . ونشر على مملوكه وعبده وعلى الوصيفة جؤذر ما اعتزم . ليس له أن يقضي العمر مسوداً ولا فلاح للعبد . وانتحى جانب

حاصبيـــا ينسلّ ورفاقه الى دمشق . وعاودته قهقهته وقد أمسى بمأمن من قبضة ضاهر العمر . ضحك له الدهر بعد ازورار . ومثل في حضرة عثمان باشا يتغنى بحبه للدولة العثمانية ذات الصولة والعز . قال : الحمد لله على كون سعادة الوالي بلا الناس وعرف الوازن من الزائف . وثق بالأمير يوسف، حاكم لبنان،فإذا بالمترجرج الذمة يساندخصم الباب العالي ويدعوه الى مقاتلتي أنا المعتصم ببيروت كي أهبها لجلالة مولانا السلطان وهو سيدها ، نصره الله . على اني انتقمت من ضاهر العمر العدو الكنود وجرفت أمواله كي أحملها الى أربابها في دار السعادة . وما جئت مولاي في سوى التماس عطفه كي يمهد لي الى مبتغاي !

فضحك عالياً عثمان باشا والي دمشق وهو يسمع مقال الجزار . واستفهم بفرحة متمادية : هل ملكت هذه الجرأة يا أحمد وحرمت ضاهراً أمواله ؟... إنك لتدهشني بما تقدم عليه من ضروب الاستطالة . فكيف تجاسرت على مصادمة سيد عكاء وهو الوثاب اليقظان ؟

فتطايرت فيه قهقهته . هل له أن يكترث لهؤلاء الواثقين به وما يرومون غير الارتقاء على كتفيه الى المعالي والنعم ؟... ولماذا يكون أُلعوبتهم ولا يكونون ألعوبته ؟... قال وهو على فيض من البشر : سيدي الوالي يعرفني لا أطيق من ينتفخ بلا حق بالنفخة . وأنى لي أن أجاري ضاهراً في شذوذه ومكايدته فأرضى عن اختلاسه ولاية عثمانية خالصة يخفق عليها علم الهلال المفدى ؟... هذه الأموال للباب العالي لا لضاهر العمر ، وسأحملها الى ربها سليمة لا يشوبها نقصان !

فاغتبط عثمان باشا المصري بإغارة الجزار على أموال الخصم وهتف يعلن

تأييده للاقتناص المباح : سلمت يداك يا أحمد . ضربت المخزيّ في كبده . سأكتب الى أصدقائنا في الباب العالي كي يكرموك ويرفعوا من شأنك وأنت الوفيّ الأمين . فلا يقضّ مضجع هؤلاء الخائنين سواك !

وأحله منه المحل المغبوط . وأصغى الى ممازحاته وإلى أقواله في الشهابي وفي ضاهر العمر . وبعد ثواء وجيز المدى بضيافة والي دمشق صمد أحمد بك الى استانبول يسوق إليها الغنيمة مع رسالة من عثمان باشا طافحة بالثناء على الجزار . انه لقاهر الطغاة ومقوّض دعائم الفساد.وصاح المملوك بفيض من انتفاش وقد بلغ قاعدة السلطنة العثمانية : عاش مولانا السلطان !

وهفا الى الصدر الأعظم يذيع البشرى الغراء : رشقت صدر ضاهر العمر بنبلتي فحطمت أضالعه . دعاني اللص الى جباية أمواله وما غاب عني انها ليست له ، وهو المختلس ، فغرفتها وجئت بها الى أولى الناس بامتلاكها وهو جلالة مولاي البادشاه !

وقصّ على الصدر الأعظم حكاية الغزوة الموفقة . فصفق الصدر الأعظم بطاغي المسرة وقهقه الجزار . ونودي الوزراء وأرباب المناصب العاليـة كي يسمعوا . وتناهى الجزار في المفاكهة وهو يسرد القصة فاغرق القوم في الضحك . وبلغ اعجابهم بالمملوك أحمد بك حد الاكبار. فليس بالامر اليسير قهر ضاهر العمر المتمرد على السلطان ، المحالف كاترين الثانية قيصرة روسيا ليُحكم إغماد شفرته في قلب مالك البلاد والرقاب

وسقط الى السلطان مصطفى ما أبدى الجزار من الهمة في خدمة الدولة فقرّبه اليه راضياً عن جهده . وعهد اليه في ولاية « أفيون قره حصار » . وانتشت نفس الجزار بالغبطة وقد أمسى بمقام الولاة وعاد يؤمن بالحظ

المؤاتي . وما درت جؤذر بان سيدها أضحى ذلك الوالي حتى هتفت بمديد الاستبشار : ومولاتي نسل شاه ابنة « أفيون قره حصار » يا سيدي . وسنلقى هناك أهلها وقد أطالت محادثتي عنهم . فلها ثلاثة اخوة وشقيقتان قالت لي فيهما انهما على وارف الجمال ، وان الصغرى تفوقها جهارة ورونقاً . وسيتفق لنا أن نعرف الأسرة وأن نستعيد واياها ذكرى الراحلة . وماذا على سيدي وقد تزوج الأخت المتألقة الأضواء فتزداد رسوخاً في لبه شهوة الانتقام ؟

فصوّب الجزار الى الوصيفة عينين مستديرتين واستوضح : أتكون نسل شاه من « أفيون قره حصار » يا جؤذر ؟... وهل لها أخت ترجحها فتنة ؟

— نعم ، نعم أيها السيد المفدى . واسم هذه البليلة الحسن فيروز . حدثتني ملياً مولاتي المأسوف عليها عن قومها وعن انسبائها . وسوف يرى سيدي ما يطمئن اليه جنانه . فلم تمت نسل شاه !

فغمغم المملوك أحمد، الحامل لقب باشا ، وقد ارتقى بركوب مقعد الولاية الى مرتبة الوزراء : لا يخيل اليّ يا جؤذر ان ثمة ذات صباحة تعلو في دولة الحسن مولاتك نسل شاه . أنا رجل خبر النساء وبوسعي الاعلان اني لم أظفر بواحدة ترجح فقيدتنا الغالية في سمو روائها . فان تكن لها اخت أفتك بالألباب فأية دمية سنية هي ؟... انها ليتيمة الغرّة . زدت في شوقي الى بلوغ « أفيون قره حصار » يا مضرمة الأشواق !

وودّ أن يرمق عاجلاً ذات الحسن النديّ . ألا تزال طليقة ، رهن الملتمس ؟... وقبض على رأس مملوكه سليم وعلى رأس عبده أبي الموت

وقرع بعضهما ببعض وهو يقهقه ويصيح طرباً : أرأيتما أيها النغلان أين أمسى سيدكما ؟... أنا أعلو وأنتما تزحفان في أثري في الارتقاء حتى أوشكتما أن تطاولا الثريا . سأضاعف لكما منذ الساعة مرتبكما . فأين كنا لو بقينا في قبضة ضاهر العمر القهّار ؟

فقهقها لقهقهته وهما يعلمان أن الايذاء سليقة فيه . فليس له أن يشيح عن فطرة الايلام لدى بلوغه من زمنه ما يسرّه . بل هو ممن انطبعت أرواحهم على التنكيد والتنكيل سواء في الغضب أو الرضى . فان رؤية الدم الفوّار لذة تحنّ اليها نفسه ، وسماع صرخة الألم أشبه لديه بالعزف الطروب . قال مملوكه سليم : ما جئنا اليك لسوى التهنئة . فالحبور يشملنا جميعاً . اليوم ولاية « أفيون قره حصار » وغداً ولاية صيداء !

فهتف بملء شدقيه : وهو ما تقول يا ابن الفاحشة . لن تطيب نفسي الا وقد رجعت الى أرض المجد والخير . فهناك يحلو السؤدد ويفيض النضار . أجل ، اليوم « أفيون قره حصار » وغداً صيداء . وليس فينا من ينسى أن علينا هناك ثأراً لا ينام . فما يزال طيف نسل شاه يتراءى لي داعياً اياي الى الانتقام العادل . شرعة « عين بعين وسن بسن » هي منهاجنا في الحياة !

وركب الى « أفيون قره حصار » في رفاقه الثلاثة وواكبهم جماعة من الجند والحشم . ورحبت به الولاية ترحيب الخضوع والاجلال . أهلاً بسعادة الوالي الهمام أحمد باشا الجزار . وتسلم الأمر بيد حازمة لا تلين . فضرب أعناق الشذاذ . وكافأ ذوي الاقتدار . ورهبه القوم وقد عرفوه لا يحابي . فمن سرق قطع يده . ومن وشى استلّ لسانه . ومن تلصص فقأ عينيه .

ومن قتل اجتثّ رأسه . ومن أحسن أكرمه . وفي بعض الأحايين ينقلب هذا الاكرام الى اساءة. فيجدع الجزار أنف من يطمئن اليه أو يصلم اذنه. وتأخذ قهقهته مداها وهو يجازي المعروف بالأذى ، كأنه في أشهى ساعات الانس والرفاه

وما فتئت عينه ترعى في ديار الشام . ماذا لقي ضاهر العمر بعده ؟... وماذا كان من الأمير يوسف في حليفه الجديد ؟... وأين أمسى علي الحكيم من محمد أبي الذهب ؟... وعلم أن عثمان باشا المصري ، والي دمشق ، سأل السلطان في ضاهر العمر ونال عفوه ، وأن ضاهراً بات في عرف الباب العالي والي صيداء . فأقلقه ما ثوى بوعيه وطاب له الدس . الا ان بعده عن استانبول غاظه . فودّ لو كان في استانبول نفسها ليوغر الصدور على ضاهر العمر والأمير يوسف وصحبهما

ولم يبتهج الا وقد انسابت اليه جؤذر تقول بصوت كله همس وكله جذل : البشرى لمولاي . وقعت على المبتغى واهتديت الى أسرة مولاتي نسل شاه.وأبصرت فيها ما عالنتني به الراحلة الكريمة . فالوسامة على دفق في المنزل الأنور . وفي فيروز من الاناقة والنضارة ما لا تسمو اليه فقيدتنا الأثيرة !

فصاح مدهوشاً : وهل قادتك فطنتك الى القوم ؟... وهل أبصرت فيهم النداوة المشرقة ؟... ما أطيبك وما أوفاك . دعيني أرطب شفتيّ بقبلة ماتعة من مبسمك الطريّ !

وضمها اليه يرتوي من مواهتها . وما غاب عنه ما تتمايل فيه من صباحة وهو الثاقب العين ، النقّاد ، الملمّ بكل ظاهرة وخافية . ولم تمنع

عنه جؤذر مباهجها ومن الفخر لها أن يلتفت اليها الوالي أحمد باشا الجزار . قالت وهي تميس فرحة : ما اشتهيت الا أن أراك بجانب فيروز. فهناك المتعة والدلال !

قال يستطلعها مسلكها في الاستدلال على القوم: وكيف وفقت لمعرفتهم يا جؤذر ، وليس من السهل الوقوف على أمرهم وأنت الغريبة عن البلدة؟

فأعلنت بابتسامة الواثق بضلاعته: لم أتعب في الاهتداء الى جماعة الشراكسة في « أفيون قره حصار » . وحدثتهم عن فيروز ذات السنى الفضفاض فارشدوني اليها عفواً كأنها وحدها تحمل هذا الاسم في المدينة الواسعة الارجاء. فاذا ما قلت : « فيروز هانم » فقد عنيت الشمس ، أو القمر . ومن يجهلهما ؟... ولذوات الحسن من باذخ السمعة ما لا يحتاج فيهن الى دليل. وهل للفوح المالىء باريجه الأرواح أن تتيه عنه الأحداق وهو الناطق بألف لسان أنه مصدر الشذا المعطار؟... وما وقفت حيال فيروز يا مولاي حتى أدركني خشوع عقد لساني . فكأني في محراب السحر الحلال . وشئت الكلام لايضاح أمري فتولتني تعتعة مالت بالقوم الى الضحك مني برفق الحليم. وما علموا اني من لبنان حتى استولى عليهم الفضول. وأخذوا يسألونني عما لدينا من المدهشات وهم يرون في ربوعنا مكانز التبر والثراء . ولما دروا اني وصيفة نسل شاه طوّقوني بايديهم وأخذوا في معانقتي وتقبيلي . وتمادوا في السؤال عن الفقيدة المظلومة فاغرورقت عيناي،وواثبتني الغصص تخنق صوتي . فهم يجهلون كل ما انتاب ابنتهم من بلاء . واحسرتاه !

وغلب على جؤذر النشيج. وابتلّت باصرتا الجزار مع وفور قسوته وصلابته واستفهم بلهفة : ثم ماذا يا رفيقة نسل شاه ويا مؤنسة الجزار ، ثم ماذا ؟

قالت وهي تمسح عبراتها : حاولت أن أخفي عنهم الفاجعة يا سيـدي . وصارحتهم بان مولاتي في حمى الأمير يوسف الشهابي وقد أهداها اليه عثمان باشا الصادق،والي دمشق،المنتقل الى رحمة الله . غير انها ليست على هناءة في صرح حاكم لبنان وقد تاقت الى الانطلاق من أسرها . ولاح لها سعادة الوالي أحمد باشا الجزار فالتمست منه حلّ وثاقها وانتشالها من وهدتهـا . فصاحوا بي جميعاً بلجاجة : « وهـل فعل ؟ ... بل لماذا لم يفعـل ؟ » . قلت : « كاد يفعل،واأسفاه!... الا أن اختصامه والأمير مال به الى الجلاء عن لبنـان ! » . فاستقصوا بوجل : « وماذا حلّ بنسل شاه ؟... وكيف غادرتها وصحبتِ سعادة الوالي وأنت تدعين الاخلاص لسيدتـك ؟ » . فانتابتني الحيرة وقلت : « ما لحقت باحمد باشا لسوى الالحاح عليه في انقاذ مولاتي . وسيطلعكم بنفسه على ما يصبو اليه من نجدة لدن أبلغـه اني عرفت أقارب نسل شاه ! » . وآمنوا بما جاهرتهم به. الا أن القلق دهمهم. باعوها وما زالت أفئدتهم ترعاها . وستراهم بين يديك للالمام بما صارت اليه الغادة الحبيبة . فأوضح لهم من أمرها ما توحي به اليك بصيرتك الوقادة وليس لهذا البيان الدقيق سواك !

فساءه أن تلقي اليه أداء المهمة الصعبة وقال : أيشوقك أن أكون من حملة المناعي يا جؤذر ؟... يؤلم روحي أن انتزع الدموع من عيـون أولئك الأبرياء !

قالت تدفع عنها التبعة : أنت وحدك تحسن البلاغ القاطع يا سيدي . وما يمنع أن تنعى اليهم الشهيدة التعسة وأن تعاهدهم على الانتقام لها ؟... فان في النعي والمعاهدة لسبيلاً رحبة الى فيروز . فتتزوج أكرم الفتيـات

رونقاً وأنت تحثّ السعي للبطش بمن حرمك اختها الروعاء . فالقوم سيجدون فيك مغيثهم ، ومفرّج كربتهم ، ولا يبخلون عليك بلؤلؤتهم الفريدة البهاء !

فابتسم لحدة دهائها وقال يداعبها : يا لعينة ، ما أراك الا تستطيبين توريطي في المعضلات . فما يكون مني وقد احجمت فيروز عن اجابتي الى سؤلي وأنا ابتغيها ، أفلا أقطع رأس أبيها كأنه من الجناة ، بل رأس أبيها ورأسها ولست أعفّ عن امرأة تجاهرني بالعصيان ؟

فأطلقت جؤذر ضحكة مديدة الرنّات وقالت : أيخيل الى مولاي أن ثمة امرأة تتقاعس عن تلبية ندائه ؟... ما عرفت في النساء أولئك الملحّات في الازورار . فليس له الا أن يومىء كي تتهالك عليه بنات حواء . وهل لهن أن يلقين في الجزار عاشقاً ولا يتهافتن الى ساحه مفاخرات باصطفائه اياهن ؟... اني لعلى طفاح اليقين أن فيروز ، أخت نسل شاه ، ستحس بالنعمة تغمرها وقد بدا لها في مولاي ذلك الناهد الى مواصلتها . ومن يتفق لها أن تكون زوجة الوالي المعظم وتجنح الى الصدود والجفاء ؟

فانتشى بكلماتها وابتسم وقال باغتباط : خبيثة هي جؤذر وصيفة نسل شاه ، خبيثة وذات إقناع . ولكن نسل شاه لقيت في حاكم لبنان ، وهو أمير بلد رحيب ، عاشقاً وحبيباً ومالت عنه مع كونه ريّان الشباب ، فهل يكون الجزار الكهل أحب الى النساء من الأمير ذي الفتوّة الممراع ؟

فأبانت وما زالت تتلوى غنجاً : مولاي الجزار أعرف بالنساء من الشهابي الجلف . فما تلقى المرأة لدى الأمير يوسف غير الاكراه ، على حين تستنشق عند مولاي الباشا عرف الكرامة . وليس يجتذب المرأة كالملاطفة . فتشتهي

أن تلمس كونها حرة لا عبدة ، ولا يرضَ مهجتها كالامتهان !

فعاد الى القول بلذة : خبيثة هي جوذر ، خبيثـة وملمّة بأسرار الاستهواء !

وما تمالك ان عانقها شغفاً بلدونتها وهو لا يدري من يعانق من الثلاث ، أجوذر أم فيروز ، أم نسل شاه ؟

٢

ما أعلنت الوصيفة جؤذر إلا حقاً . ففي فيروز ، أخت نسل شاه ، من السطوع والرونق ما وقفت حياله « أفيون قره حصار » برمتها على شده وسحر . فالقالب على انسجام . والخطو على رشاقة . والبشرة في نصاعة السوسن . والعينان فحمتان متقدتان على سعة وامتداد هدب . والعنق يشدّ صُعُداً كأنه يتعالى عمن حوله من الخلق . والصدر على انتبار كشجرة زاخرة بالعطاء . والخصر يتلوّى كأنه على نشوة ، وهو الواهب النشوة وما ثمة غير خمرة تموج بها الأرواح

وتعب تجار الرقيق في شراء فيروز من أبيها فمانع الرجل مع كل ما يمور فيه من شغف بالدينار . قال : بعت نسل شاه وندمت . ولن أقدم على سلخ فلذة أخرى من كبدي الملتاعة . وما أدري ما أصاب من تخلّيت عنها من زمنها وقد رضيت باقتطاعها من نياطي في سبيل حفنة من الدنانير ، كلما قلّبتها بين يديّ خبا بريقها حيال وهج نسل شاه . فأبكي مجازفتي بابنتي المورقة الطلالة . ولكن مـا يفيد البكاء وما ان أتمثل من أذللت ناصيتها ، وأبحتها لفتكات الأنياب ، حتى يشخص لي اني خلعتها على النكد فأفناها ؟ ... خذوا ما أعطيتموني ، بل اضعاف ما اعطيتموني ، وردوا عليّ نسل شاه !

وناء رأسه بعمامته الضخمة المرتفعة كالقبة العالية . وهانت ركبتاه بجسده فتقاعدت رجلاه عن النهوض به فرزح غمّاً . قال يندب خسارته في من باع ويأبى أن يكفنها بخسارة أدهى : نسل شاه كنزٌ وزين أفلت مني ، وما أرى

ذهب الكون يعوّضني مما فقدت . وفيروز منجم من التبر لن أسخو به على ذي وفر وجاه ، وهو أغلى من كل وفر وجاه . فشعرها الأشقر مروج من الذهب . وجبينها تاج من الماس . وعيناها ظلمتان منيرتان . فاعجبوا للظلام المنير . ما أغناني بها عن نفائس الكون جمعاء !

وضنّ بها أن يزفّها حتى الى طلابها وقد كثروا . واستهان بكل بدل يعرضه عليه النخّاسون وقد عللوه باهدائها الى مولاه السلطان . قال نافراً من كل مساومة : دعوها لي . قلبي لا يطيعني في الابتعاد عنها . إلا إذا شئتم أن أموت وأنتم تنزعونها مني . هلا أطلتم في أيامي وأبقيتم لي ضياء العين ؟

فجنح بعضهم الى اختطافها . ولكن يقظة أبيها أحبطت المكيدة الآثمة . فما برح الوالد الشيخ مفتوح العينين على ياقوتته الغالية وقد صانها عن كل مبعزق متلاف . ولما سقط إليه ان أحمد باشا الجزار ، الوالي الطريّ الثواء بأفيون قره حصار ، واقف على أخبار نسل شاه ، جمع أمره على المسير إليه مستقصياً . فماذا انتهى الى الباشا من حالة النائية المجهولة القرار ؟... أصحيح انها في مغنى الشهابي ، أمير لبنان ؟

والوالي استأنس بالماثل بين يديه ووفر حرمته . هذا والد نسل شاه الغانية الوازنة الاناقة ، الريّا الروح ، الصادقة الهيام . وتكلم الجزار يبدي ما يعرف عن ذات الروعة الخضلة . قال : هي بسمة النور في العتمة ، وومضة الأمل للتاعس اللهفان . أبصرتها فأزالت عني همي ، وبددت عسري ، وأحيت في نفسي الهناء . وتعاهدنا على المودة فالتمستها من مالكها . على أن الغيرة دبت الى قلب ذلك الولوع بها مع فرط كرهها له . فقضى عليها بالموت مع وعده إياي بأن يزجيها إليّ . على اني لست بالغافل عن الدميم الوغد . فلقد وقفت

على ضريح نسل شاه أجاهر ساكنة الرمس بالانتقام لها من مختلس عمرها . ولست الجزار إن لم أخطف روح من خطف روحها وأطعمها الهلاك !

فضجت الدار باعوال الوالد المفجوع بطلاقة الجناح . غير ان الجزار خفف من الأسى اللاعج معلناً : لا تبكِ نسل شاه إلا وقد طرحت بين يديك رأس قاتلها . عند ذاك باعدْ في النواح وكلنا مشاطروك نوازي الدمع . أما اليوم فاقهرْ ماء عينيك وما زال عليك فرض وثيق لم تحلّك منه الايام . فالأخذ بالثار يقدر الصبر حتى تتدحرج الهامة الجانيـة ثم فلينبجس المدمع المدرار !

ورفع من خموله وأضرم في قلبه الحقد . قال والد نسل شاه وهو ممن حجوا الى بيت الله الحرام واعتصموا بحبل الدين : أأقيم بانتظار يوم الخلاص من البطّاش يا سيدي كي أبكي نسل شاه ؟

فأبدى أحمد الجزار بمضاء الثبت الهمام : لا تبكها إلا ويمينك تقبض على جمجمة قاتلها . اعتزمت أن أثار لها في موعد ليس بشاحط الأمد . على اني بحاجة الى مهماز يحثني على استئصال رأس الطاغية . ولقد قيل لي عنك إنك تقضي حاجتي . فهلا فعلت وكنت لي يداً على الأثيم الغدّار ؟

فلم يدرك الحاج الشركسي مطلب الوالي . أنى يقضي حاجته وهو الكليل ازاء السيد الوسيع الجناب ؟... وانتشرت في نظراته اللبكة . أيقوى على نصرة سعادة الوالي وليس من أرباب الوفر ولا الجاه ؟... لم يبع ابنته نسل شاه عن زهد في البنات ، بل عن شوق الى المال . ولو اقتعد اليسر لأمسك عن المتاجرة بأفلاذ كبده مع هيامه بالنضار . إلا انه رقيق الحاشية وكل ما يزخر به مثواه من غنى لا يرجح مفاتن بناته الثلاث . فأنى يتوافر له قضاء

حاجة الجزار وقد خلت يده من دافق الذخر، ولم يبلغ من المكانة ما يكتب له الاستعلاء ؟

ووقف بين يدي الوالي مفتوح الفم ، حائر الناظرين ، شتيت الذهن كأنه الأبله . ورفق به الجزار فأقاله من ضعضعته معلناً : هل خفيت عليك البغية يا صاحبي ؟... ما يروم منك الجزار أن تشهر سيفاً ، ولا أن تؤدي قرشاً . فكل ما يصبو إليه أن تعوّضه من نسل شاه من تعادلها فتنة !

فوضح للحاج نصرالله الملتمس . ضاعت على أحمد باشا نسل شاه فتاق الى عقد قرانه على أختها . وومض في الخاطرين معاً طيف فيروز وليس يعرف الجزار من الأخت الصغرى إلا ما وصفت له جؤذر الوصيفة المشتعلة الذكاء

وحدق الحاج الشركسي الى سعادة الوالي واستطلعه شهوته . قال : أيجنح مولاي الى فيروز فيتزوجها على سنّة الله ؟

فأبان الجزار مشيئته بجلال السيد الباذخ السؤدد قائلاً : ليس ما يقف بي عن العقد لي عليها ان تكن شبيهة باختها نسل شاه يا حاج نصرالله !

فابتهج الحاج نصرالله بطلبة الوالي أحمد باشا. فيا للفرحة وقد بات صهره سيد الولاية وحامي الذمار . واندلعت منه صرخة الجذل الافيح : وحق من خلق الضوء والظلام ، وأحيا الانسان والحيوان والنبات ، ما نسل شاه غير خيال هزيل لفيروز وليس في السلطنة العثمانية ، على متباعد آمادها ، من تبلغ من فيروز ومضة سنى . ففي طلالتها وهجٌ تخشع بـه العين ولن تستطيع اطالة النظر الى الاشراق الباهر مخافة الحسور فتعيا . ولقد ازدخرتُ هذه الفتنة لا للاتجار بها ، كما أقدمت عليه في نسل شاه ، بل ضناً بالحسن الأنور ألا يقع على من ليس حقيقاً به . أما وسعادة الوالي يبتغيها فليس لي ان أتجانف عن

الملتمس العالي. فهي له . واني لمن المؤمنين بالقدَر يا مولاي. أَمسك بي عن الاجابة في صددها وفرة النازعين اليها كي أستبقيها لسعادة الوالي وهو من يصلح لها . نبل الحسن الى نبل الجاه يُزجى !

وغمر نفسه الاغتباط بعد الأسى . فبكى في لمحات خواطف نسل شاه ليسرّ مليا بفيروز وسيتزوجها الوالي الاهيب . قال الجزار: عليّ بها. فلست ممن يصبرون على شوق . أوثقتني بمودتها وأنت تتغنى على مسمعي بمفاتنها . أين رجل الدين يعقد لي عليها ؟

وكان قاطعاً ماضياً كمألوف عادته وليس للابطاء والارجاء نفاذ اليه . قال الحاج نصرالله : هي بين يدي سعادة الوالي ، بل كلنا بين يديه. ولكن هلا أعددنا للأمر عدته ؟

فغضب الجزار والحاج نصرالله يحدثه عن الاستظهار للزواج ونبر : وما عدة الأمر ؟... خذ ما شئت من المال . واطلب لابنتك ما تروم من صداق . وتعالوا باجمعكم شاطروني مسكني ، وليس يضيق بالجزار ان ينفق عليكم بسخاء !

ولكن الحاج نصرالله آثر البقاء بعيداً عن هذا الصهر الرحب الذراع لحكمة لا تخفى عليه . قال: زوّجتك اياها يا مولاي على ما تحفزني اليه مخايل الخير الشائعة في أساريرك. فعش لسعادتك وسعادتها ولتخلع عليكما الأيام العزّ الدائم والهناء المديد . أما أن نأتي اليك فنقاسمك مبيتك فهو مما يزيد في رغدنا . ولكننا نكره الاقلاق وليس في الرفاه أطيب من العزلة . فلا يندمج شمل في شمل والفسيح يضيق في الاختلاط المشوّش. فتتبرم بنا وتمسي زوجتك مطلّقتك وقد أحرجك ظلنا !

فقهقه الجزار. وهبت الأيام للحاج نصرالله رهافة البصيرة ووضاءة الحنكة. وشاع في «أفيون قره حصار» ما نزع اليه الوالي فتوهج البشر في الجوانح والملامح. أكرم غادة ستزف الى أكرم مولى. وقال الجميع: ربعت فيروز بسدتها!

وهي ما تجلّت للجزار حتى أدركته التعتعة. ما بالغت جؤذر في الاشادة بهذا البهاء الفريد. ولا غالى الحاج نصرالله في الاطناب في الروعة المستكملة النضج. ففي فيروز من روائع الفتنة ما يكاد يعدو السحر. وساءل الجزار نفسه وهو يميط عن وجهها اللثام، أحيال بشر هو ام ازاء طيف من أطياف الجنة؟... وهل من حقه ان يستمتع بهذه الصباحة أو انها حرام عليه؟

ولم يسلم من السهو والشده الا وقد ابتسمت له فيروز. فأيقن عند ذاك انها بشر مثله، وانها وقفٌ عليه، وان له وحده ان ينعم بمواهتها. ومال عليها يعانقها ويهتف بها بوارف الولوع: سمعت عنك فلم أؤمن. أما وقد أبصرتك فأيقنت ان كل ما سقط اليّ من أوصافك دون الواقع الملموس. أراني أسعد الناس وأنت تأوين اليّ. فمرحباً بك زهرة عطرة يتضوّع شذاها في مسكني، وبلبلاً غرّيداً يشنف سمعي بصداحه الشجيّ!

وما تمالك ان غمغم: رحم الله اختك نسل شاه!

وانتشى بخمرة الحسن المتجلي. وخشي ان تدركه المنون قبل ان يرتوي من نهلة الأفاويق. وتحدث عن نسل شاه بما أبكى فيروز. قال: عقدت بيننا المنازع وتلاقينا. وبثّت الحواني خلجات الروح فتعاهدنا على العيش الجامع. بيد ان الطاغية أبى الا ان ينحر فينا نبضة الوصال. فقضى على اختك وأباحني للحسرة ولشهوة الانتقام. فأقسمت على محوه. ولا عزاء لي

الا وقد أطفأت فيه الحشاشة. فكوني شريكتي في الغيظ والرضى، في الحقد والسماح، في القهر والرحمة. لنكن يداً واحدة في اكرام المهجة المظلومة المنادية بالاشتفاء!

فابتلّت حدقتاها حزناً والتياعاً. فما أشقى المرأة وما تعدو كونها سلعة. مالت نسل شاه الى مسايرة أشواقها فعدا عليها القضاء. قال الجزار وهو يبصر فيروز تطلق سخين الدمع: ما كنت أُريدك على مرّ الأسى يا بهجة خاطري وأنت تدوسين عتبة منزلي، الا ان النزوع الى الأخذ بالثأر هاجني الى نفث حفائظي فما تورّعت عن رميك بدائي. ومن المسرة لي ان تشتعل أضالعك بعدوى الاضطغان!

فقالت وهي لا تزال تسقي جزعها على اختها دموع الألم: أنا لك في ما تقرّ من نهج. وليس أشهى الى قلبي من أن ابصر قاتل اختي يتشحّط بدمه. فيعاني من الهلكة ما تمسي به روح نسل شاه قريرة المثوى في عالم التراب!

فعاد الجزار الى معانقتها بوله واكبار معلناً بفيض من حبور: هكذا يروقني ان اشاهدك بقربي. لبؤة في زئير، لا بومة في اعوال. واذا بدا لك مني اني تهاونت في انتصاري لاختك فحثيّني على الوثوب الى الأخذ لها من مختلس ايامها. فليس لنا ان ننام عن دمها المستصرخ الحق والعدل. أنت ترجحينها نضارة وصباحة مع طاغي رونقها، بيد ان سجيّة الوفاء تأبى عليّ ان أكتفي بك دون الانتقام لمن أودى بها الظلم!

قالت تنفي عنها الغيرة: من يكرم اختي فقد أكرمني. نسل شاه عندي حبة الفؤاد وما تبرح مني في البال. فاذا انتقمنا لها فقد أدينا فرضاً لا غنية فيه عن الانجاز!

فقال أحمد باشا باشراق وجه وطلاقة ضمير: اذن لنعش معاً في ذكرى نسل شاه يا حبيبة الجزار !

وقصّ عليها ما يزمع من تدبير. فلن يبقى مدى العمر والياً في «أفيون قره حصار» ولن يلمع فيها نجمه. فالأناضول الساكن لا تطمئن اليه مهجته وهو من عشاق الحروب والفتن. فما يغفو على سوى فوهة بركان والهدوء يؤرقه ويقضّ مضجعه . فتنوء به اعصابه وتفتر عزائمه ولا يحس بكونه يعيش . ولقد نشأ منذ الفطام في المناكرة ويروقه ان يمضي فيهـا حتى المنتهى . وكم انتعش قلبه وهو يتولى في مصر مهمة الجلد والقتل . فيحصد الرؤوس ويخلع الاكباد . وهذا الحنين الى اراقة الدم ما فتىء يلازمه وما يصبو الى سوى ضرب الأعناق ورؤية الجميع أشلاء تطفو في بحيرة من قاني النجيع

والغوص على البطش والهتك في الأناضول مجلبةٌ للخطر والقوم أتراك أقحاح موالون للسلطان. فاذا عمد الجزار الى الفتك بهم ترامت أخباره الى استانبول وعزله البادشاه . وربمـا سجنه او نفاه او قتله . عـلى حين لا حساب في الأرواح في البلدان الناطقة باللسان العربي . فالأهلون عرب لا أتراك . ومعظمهم حاقدون على الخليفة التركي وليسوا يحجمون عن الكيد له والمناداة بالانسلاخ منه. فاذا أطاحتهم الأسنّة بالعشرات والمئات والالوف فلن تكون استانبول الا راضية وقد أذلت من لا ينتصرون لها، ويعيّرونها في كل حين كونها اغتصبتهم السؤدد وامتلكت دونهم الزمام

والجزار ينهد الى القبض على نواصي هؤلاء المرذولين فيستصفي أموالهم، ويجري في اطواقهم سيفه لا يستبقي منهم هامة مرفوعة. وانه ليقهقه بشماتة وطرب للدم المترقرق بين الترائب والنحور. وما يهب به الى اللذة المنكرة

سوى دائه الأثيل . داء الحقد على الناس وقد رماه به نموّه في بؤرة النكد والشقاء، واجتيازه نداوة العمر مقهوراً يكابد شظف العيش ومرارة الحرمان. فانطوت نفسه على تعذيب من حوله انتقاماً لمهجته المعذبة وما تزال حافلة بندوب البؤس والضيم . فلم يكن يلتفت اليه في صغره ذو رأفة فيأسو ما تزخر به كبده من جراح. وما لقي في شبابه غير الكارهين الممعنين في الوقوف به عن الرفاه والارتقاء . حبا الى دنياه نكرة وأبى الساخرون بالكفايات الا ان يبقى نكرة مع كل ما يزخر بـه لبه من مواهب تمهد له الى الظهور وركوب السنام . قال وكله نقمة على أبناء الصلصال : سأعود الى البلدان العربية يا فيروز ، ولكن والياً على صيداء . ولقد بات من حقي ان اكون هذا الوالي في كل بقعة من السلطنة بعد ركوبي المقعـد في « افيون قره حصار » . وولاية صيـداء موئل شامخ وعز باذخ . وهذه السدة مرقاة الى تلك . وهناك سأكون السلطان بنفسه وليس ليد استانبول ان تمتدّ اليّ مهما طغوت وتعسّفت !

وقهقه جذلاً وصاح : أما كيف أبلغ الرجاوة فلا أجد الأمر صعباً عليّ. سأستعين على أربي بالمال والمال يبدد كل مشكلة يا فيروز . بالمال اشتريت هذا المنصب وبالمال سأشتري ذاك. وأي عقدة لا يحلّها النضار مهما استعصت على الأحلام ؟... فالسلطان مع وفر ثرائه لا يشيح عن المال . فالهدايا تجنح به الى مساندة من يلوذون به. وسأغزوه منها بما يعميه فيؤيدني في المنشود، ان لم يكن عن ايمان بمضاء ساعدي وكفايتي فعن استحياء ومداراة. وأقبل على صيداء سيداً خطيراً . واقتعد قلعة عكاء. وأشير الى الأمير يوسف الشهابي بطرف سبابتي فيقبل اليّ كالعبد. ولك عند ذاك ان تفصلي بيدك هامته عن

جسده وان تطرحيها أنى شئت . فما عليك حسيب . ولقد وعدت أباك بان يشهد بنفسه صرعة الانتقام. وسيشهدها ويشتفي. فالجزار أقسم اليمين المحرّجة على اراقة دم من بطش بنسل شاه ولن يكون في ما أقسم عليه من الحانثين !

وقال كمن يخاطب نفسه : واذا عفا السلطان عن ضاهر العمر فلن يضيق بي ان أحرض الباب العالي على الشيعي الثائر، حليف كاترين الثانية، عدوة البادشاه. فأوضح للصدر الأعظم ما عانى وما سوف يعاني من المشاغب العنيد. وادعوه الى التنكيل به . فيخلو لي الجو وأبيت السيد المطاع !

وعاش وفيروز يتغذيان بصبوة الانتقام . فهما جبيبان وخدينا ملتمس يحزمهما رباط واحد. فالأخذ بثأر نسل شاه هدف جامع ليس لهما ان ينثنيا عنه. ونادى اليه الجزار الوصيفة جوذر يقول لها بفيض من قهقهاته التالدة : هذه هي أخت نسل شاه يا جوذر ، فكوني في خدمتها كما كنت في خدمة اختها الراحلة الكريمة. ولكن حذار أن تؤثريها عليّ، لعنة الله على أبيك وامك وانسبائك أجمعين . فالجزار لا يباع يا ابنة اللئام !

وما كان للضحكات الا ان تعلو . فالجزار يمزح . قالت جوذر وقد ارتاحت الى الشتيمة وهي أبداً ملح الطعام في أحاديث أحمد باشا : سأخلص لها اخلاصي لك ، بل اخلاصي لمن فقدنا. وسنعيش معاً بانتظار اليوم الهدّام!

فأعلن والي « افيون قره حصار » جادّاً : انه ليوم قريب الموعد يا جوذر. فواشوقي الى نفض العبء من كتفي وأكاد أعيا بحمله !

وعبس وزفر . فهو على متأجج النقمة . ليس له ان ينام طويلاً عن أمير لبنان

٣

نعي السلطان مصطفى الى جميع أنحاء الدولة العثمانية، ونكست الأعلام حزناً على فقده، ونودي بالسلطان عبد الحميد الأول سيداً وملاذاً. والسلطان عبد الحميد لم يختلف عن سلفه في العفو عن ضاهر العمر. فغفر له عصيانه وأقرّه في ولاية صيداء وقد شملت في سنة ١٧٧٤ صيداء وعكاء وحيفا ويافا والرملة ونابلس واربد وصفد

واهتز الجزار حنقاً لما درى بما غنم ضاهر العمر من أريحية السلطان الحديث العهد بالعرش العثماني. ونفر الى استانبول على جائش المضض يعالن الصدر الأعظم بما تتعرض له السلطنة من ضيم وهي تصفح عن عدو هاتك، وغاصب ماكر، يستحلّ الحرام ويزري بالحلال. فلم يطق والي «أفيون قره حصار» هذا العفو المزدوج يهنأ به من لا يزال في عين السلطنة رمداً، وفي كبدها ناراً. وهتف في حضرة الصدر الأعظم يذيع الغبن، وينذر بالويل: ولكنكم تنحرون الدولة في صميمها يا صاحب الدولة وأنتم تقيمون أبداً ذلك الشاذّ والياً على صيداء. إن هو الا الصلّ النفّاث ولن ينام عن السوانح يتحيّنها لرضّ الضلوع وطعن الألباب. عرفته عن كثب وما لمست فيه غير الأشر والنفاق. فحالف كل عدو للدولة العثمانية. وعبث بالطاعة لمولانا جلالة السلطان. وتأييدكم إياه في مخازيه أشبه بالحضّ على الفتنة. فيجاريه كل من تسوّل له نفسه الخروج على النظام!

فقال الصدر الأعظم راضياً عن ولاء الجزار: ليس لي إلا أن أذهب

مذهبك في الرأي يا أحمد باشا . إلا ان المراوغ وعد بانتهاج الأمانة والخضوع لرب الأمر . وعلينا أن نصدّقه ريثما يبدر منه ما يعلن مواربته . وعندذاك سنلوي شكيمته ولسنا عاجزين عن الجناة !

فما وافق الجزار على التراخي في أمر ضاهر العمر . قال يبدي ما يحزّ في روعه من المخاوف وما تحفزه إليه الشهوات : لا تهبوا للوقح مجال الدس والختل يا صاحب الدولة . فكلما أطلتم له الرسن لجّ في الضلال . فإن لم تسحقوه أدركه الزهو وتمادى في الغواية . وخير ما تداوون به وغادته أن تسحقوه كالعقرب ، وإلا لدغكم لدغة لا تحمد مغبتها . والمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين !

فابتسم الصدر الأعظم وقال معجباً بقدرة الجزار على تشويه الأعراض : كلنا عيون عليه يا أحمد باشا !

فلم يسكن والي « أفيون قره حصار » الى هذا التخدير بالوعد الرجراج وقال : ليغفر لي صاحب الدولة إلحاحي . فما أجيز لنفسي الاستطالة لولا جزيل إخلاصي للعرش وراكبه . فليس للدولة العلية أن تعاني من نكد ضاهر العمر الغدر والدلال !

فآمن الصدر الأعظم بصدق الجزار ، الا انه وقد طلب الى السلطان خلع عطفه على ضاهر العمر ضاق به أن ينفي ما أعلن من امتداح . وأنى يقول للسلطان إن ضاهراً منافق ، زنديق ، لا بد من حصده ، بعدما جاهره باخلاد المجاهر بالعصيان الى الخضوع والتمس له الأمان ؟

ونظر الى الجزار بحيرة . ليس له أن ينقض ما أبرم . وودّ لو ينصرف الوالي المحرج . غير ان أحمد باشا أصرّ على البقاء ريثما يظفر بالوعد الناجز .

وسمعا دقاً بالباب. وعلا صوت الصدر الأعظم يقول بلهجته الآمرة: ادخل!

فدخل رئيس الكتّاب يحمل بين يديه كدسة من الرقاع وفي وجهه أمائر الجد والغيظ كأن الدولة جمعاء تركب عاتقه. وفي هؤلاء الأقزام من عبدة المناصب من يتصنع العظمة ويخيل إليه انه صاحب الشأن وليس يعلو نملة تحت قدم. وعرض حامل كدسة الرقاع، المتجلبب بوقاره الأجوف، على الصدر الأعظم كتاباً من محمد أبي الذهب والي مصر وقال ببيان يجمع بين دعوى الفهم وميعة المداهنة: أطلب الى مولاي صاحب الدولة إنعام النظر في هذا الكتاب وليس يخلو من الخطورة. فهو من والي مصر محمدبك أبي الذهب وقد رفعه الى جلالة السلطان يستأذن في مناكرة ضاهر العمر المترجح في اذعانه للعرش المصون. فيوالي ليصدّ، ويعاهد لينكث. ومحمد بك أبو الذهب يرجو الخلاص من هذا الأجرب المتعدد الألوان!

فسمع الجزار وانتشى حبوراً. فالرسالة في خدمته وقد وقع فيها على أطايب مناه. واتقدت عيناه ببريق الفرحة والتشفي. سقط ضاهر العمر في الشرك. وحدق الى الصدر الأعظم وفي وجهه تنتشر ابتسامة الظفر. ورقب ما يكون من صاحب الدولة. أما اتسع له الى الغضب؟

والصدر الأعظم طالع كتاب والي مصر وأدرك منه مرمى أبي الذهب. فهو لا يطيق أن يقوم بجانبه عدو محتال لا تشفع فيه ذمة، ولا يؤتمن على موالاة وقد اقام على حسن صلات بالروس. فزحفت بوارجهم الى عكاء وحبا إليه ربابنتها يلقون عنده الايناس. وأنى يطمئن العثمانيون الأقحاح الى ذئب شرس، يتظاهر بالمودة ويبطن العداء؟

ومما قال أبو الذهب في كتابه الى الصدر الأعظم: ليس لنا إلا أن نطحنه

يا مولاي . وإذا ما عهدتم إليّ في كسره أطفأت ناره وقطعت خبره . فكل حاقد علينا يلجأ إليه . وكل نافر منا يجد عنده المثوى الآمن والمرقد الهنيء . ومن البلاهة أن نحتمل قباحته ولسنا نقع فيه على سوى غادر دميم !

فالتفت الصدر الأعظم الى الجزار التفاتة الارتياح وقال : فزت بالطلبة يا أحمد باشا . والي مصر يحاكيك في الملتمس ويعالننا بضرورة القضاء على ضاهر العمر !

فهتف الجزار بفيّاح البشر : هل أيقن الآن صاحب الدولة اني اصدقه المقال ؟

وأبو الذهب لم يكن في أثناء ولايته على مصر بالغافل عن سلفه علي بك اللائذ بضاهر العمر في عكاء . فلم يغب عنه ان لهذا السلف جماعة من الأنصار في مصر لا ينفكون يحنون الى عودته ، وان علي بك يكاتبهم ويغريهم بمن سدّ مسدّه . ومال أبو الذهب الى اجتذاب هؤلاء اليه وقد رفع من قدرهم وأجرى عليهم جزيل الخير . وأفلح في التودد اليهم فحفزهم الى مخاطبة علي بك بالرجوع الى وادي النيل ومعالنته بكون السبل ممهدة . فما ان يبدو حتى يهبّ الى نصرته معظم الأهلين وقد سئموا عهد أبي الذهب ، وما هو بالذهب وليس له وهج ولا بريق .

وعلي بك قرأ رسائل أصفيائه واطمأن الى موالاة الزمن . وحشد رجاله من جماعه الغزّ وزوّده ضاهر العمر الف فارس يقودهم ابنه صليبي . ولكنه ما بلغ صحراء العريش حتى صدمته قوات أبي الذهب فبددت شمله . وسقط علي بك جريحاً . وقُتل صليبي ولم يبقَ من فرسانه غير رجل فرد . وحمل أبو الذهب خصمه علي بك الى القاهرة يداويه من جرحه . ولكن علياً لم

يلبث أن مات . وشاع أن أبا الذهب سكب على الجرح السم القاتل لا البلسم المحي

وخيل الى ضاهر العمر ان اليمن مشى في ركاب حليفه علي بك فأجمع على اللحاق به الى مصر ببهجة الطروب ، الراضي عن بسمة الدهر الأليف . وحطّ في غزة رحاله ليزحف منها الى مصر . ولكن ورد عليه نبأ الهزيمة الصادع فانبهر وانكفأ الى عكاء يبكي فيها ابنه المكفّن في الصحراء القاحلة بدمه الطريّ

وحنق أبو الذهب على ضاهر العمر الباذل معونته للخصم المخوف المؤذي . فشكاه الى استانبول في تلك الرسالة الطفحى بالغيظ والألم، المنتهية الى الصدر الاعظم يطالعها ويردد بعض عباراتها على مسمع من الجزار المنبسط الفرحة، العامر القلب بصيّاح الرجاء

ومع وفور نقمته على أبي الذهب ، وهو الداعي الى قتله ، أيد جنوح سيد القاهرة الى نسف رب عكاء. قال يخاطب الصدر الأعظم: ليس لمولاي صاحب الدولة الا أن يبيح لوالي مصر أمر ضاهر العمر كي ينجو من خبائث الكفور بالحسنى. فان لدى أبي الذهب من الجيوش ما لا يتسع فيه للمعتصم بقلعة عكاء مجال الى الغلبة . فليضرب به مولاي وليأمن شره !

وما رام الجزار الا أن يقذف بعضهما ببعض ليحطمهما معاً فيهون أمرهما، ويسهّل لنفسه الى ولاية صيداء . ولا بد أن يقهر أبو الذهب ذلك الثاوي بعكاء وقد أمسى وحيداً . فجلا عنه الاسطول الروسي بعد عقد الصلح بين استانبول وبطرسبرج. واضطر الى المناداة بالخضوع للباب العالي والفوز بعفو السلطان. وخسر علي بك الحكيم وهو عون مأمون النصرة، صادق العزمة .

وما عبث الصدر الاعظم برأي الجزار . فما عرف ضاهر العمر على سوى شذوذ ومشاكسة . فأعرض عن استانبول واستظهر عليها بعدوها التليد . وما ان يحس بكونه ذلك الغانم اذا مال عنها حتى يعود الى منافرة راكب العرش العثماني ، كأن المواربة طبع فيه . قال الصدر الأعظم يساند أحمد باشا الجزار في الرغبة : ما عدوت الصواب يا أحمد باشا . علينا أن نسحق رأس الأفعى والا عادت تنفث فينا سمومها . ليس لأمثال ضاهر العمر ان ينعموا بحلمنا والركون اليهم غباوة ومهلكة . سأوافق أبا الذهب على شهوته ولينقذنا من المنافق المجهول اللون ، المصانع في المودة !

فهتف أحمد الجزار على وفر من بهجة : وهل لسيدي صاحب الدولة ان يسلك غير هذا المسلك الرشيد ؟ .. ما كان ضاهر العمر الا غادراً لا يستنام الى ولائه المشوب بالختل . هو قذى في العين ، بل حسكة في الحنجرة . ولن ينقذ الدولة العلية من دواهيه سوى أبي الذهب . فالنصلة الراعفة لؤماً وقعت على درع صلبة تقصفها !

وكاد الجزار يقهقه بملء شدقيه لولا انه في حضرة سيد الوزراء . والتفت الصدر الأعظم الى رئيس كتّابه يقول متأثراً بتحريض والي « أديون قره حصار » : اكتب الى محمد أبي الذهب انه في حلّ من دم ضاهر العمر . فليصبّ على المحتال ناره وليخمد فيه لهبة النفَس . فليس للدولة أن تفتح صدرها لمن لا يزال حربة في نحرها . نحن بغنى عن زعانف دأبهم الكيد والالتواء . فنبدي لهم الرحابة ولا نلقى فيهم غير الاستذئاب !

فاستوضح رئيس الكتّاب وقد راقه البطش بالمتقلقل في الطاعة : أنهدر دمه يا مولاي ؟

فأعلن الصدر الأعظم بحزم من نفد فيه الصبر ، وعزّت الشوكة : ليس للشانىء أن يعيش . لينقضّ عليه والي مصر قذيفة حاصدة الشظايا . هذه الدمامل في جسم الدولة العثمانية بحاجة الى مبضع مستأصل . فليكن والي مصر ذلك الجرّاح الحاذق في بضع الجوارح الفاسدة في عكاء !

وأطلق كلماته بقوة ونفرة وما كان إلا ذلك المؤمن بأن ما يعلن ليس له مردّ . فالسلطان لا يعانده في مشيئة . ولا بأس أن يمحو اليوم ما أعلن بالأمس والعفو ليس عطية الأبد

ودخل على صاحب الجلالة ينحني بين يديه ويعرض على هذا المستقرّ بالعرش أمر ضاهر العمر : خائن ذميم لا يرتجى وفاؤه يا صاحب الجلالة . يمالئنا اليوم ويناكرنا غداً . لمس فيه والي مصر محمد بك أبو الذهب النفاق والخداع فطلب منا ان نجيز له تدويخه . ومصلحتنا في ان نهبه له اذا وافق جلالة مولاي على الملتمس !

والسلطان مع جميع ما يكتنز من رفيع القدر ، وجامح الصولة ، لا يدري من أمر دولته الا ما يعالنه به الصدر الأعظم ورجال الحاشية . فهو مالك الرقاب والمتحكم في الأرواح ،الا أنه شاحب الرأي في مصير أمته وقد أباحها لهؤلاء المزدلفين اليه يمدّونه بالمشورة . ففتح فمه بتردد غير الواثق بما يبدي من بيان حيال ما يسمع عن ضاهر العمر وقال في شبه تعتعة : أنمنع الأمان عمن أنلناه رفقنا ؟... ولكن الغرور همد في والي صيداء !

فعاد الصدر الأعظم الى انحناءته — ولا بد من الانحناء مراراً بين يدي هذا المستوي على الأريكة العليا مع كل ما يخيم على ذهنه من جهل وخمول — وقال : سياسة الدولة تفرض نزع الهبة ممن ليس بها حقيقاً يا مولاي . وضاهر العمر

ممن لا تجمل بهم منحة ، ولا يجدر بهم سماح. فلننقذ منه أنفسنا بابادته وإن هو إلا عقرب في حجرنا. وأنى نودّ عنا غشه بسوى محقه ؟... حليف كاترين الثانية ، قيصرة روسيا ، لن ينصر جلالة السلطان !

فعاد الفم المتردد الى فتح شفتيه المضطربتين بالقولة الحائرة : إني أَعهد اليك في تدبير أمره وأنت هامة الوزراء . فإذا رأيت من الضرورة إخفات صوته فاضرب ولا ترهب . زوّدتك سلطتي ورضاي !

فانحنى الصدر الأعظم مرة أُخرى وتمتم كلمات الشكر. وانصرف وهو يبتسم ابتسامة الموقن بسامي خطره وليس للسلطان ان يصادمه في رغبة وقد ضاع رب الأمر عن نفسه، وبَعُد ما بينه وبين قومه. ومن هو السلطان؟... خيال يحمل عنوان أسلاف أشداء طفروا الى ضفاف البوسفور وأضاء نجمهم فيها. وما أن ولّوا ، وقد خلعوا على ذراريهم المجد المشمخرّ ، حتى شعر الخلف بكونه يحتل سؤدداً لا يدري كيف يقبض على عنانه وأنى يوطد له. هم سلالة كماة مغاوير ، إلا أنهم سلالة واهية الهمة ، كليلة الذهن ، قلقة الخطو. وانه لاختلاف سحيق بين محمد الثاني ، وسليم الأول ، وسليمان الثاني ومن أقبل بعدهم من السلاطين العثمانيين. فالنعمة امعنت في خضد العزيمة والوثبة، ففتر السعي، وبات الهمّ الأول ركوب العرش للاغارة على الشهيّ السنيّ، والنوم على الليّن الوثير . أما الدولة وشؤونها فلها البطانة الوافرة . ولماذا يحرق راكب العرش يديه في اعداد طعامه وثمة من يطبخ له ؟... وما كان عبد الحميد الأول من سوى هؤلاء الطامعين في المجد الموروث والعز الموفور . أما ان يكدّ ويبذل من مهجته فهو ما تناءى عنه وسعه وكلّ طماحه. وما غاب عن الصدر الأعظم اي سيد يقبض على الناصية ، فنزع الى البناء والتخريب كما يشاء

وحكم على ضاهر العمر بالافناء . أبو الذهب خير وأبقى . وألقى بين يدي السلطان الأمر بالقضاء على والي صيداء . فوقعه السلطان اعتماداً على دراية رئيس وزرائه . بات ضاهر العمر بجرّة قلم في حكم المعدوم . ورجع الصدر الأعظم الى أحمد باشا الجزار يطلعه على أمر صاحب الجلالة السلطان . فرفع أحمد الى شفتيه الأمر الشاهاني فقبّله ، وعلا به الى رأسه فتبرك به ، ثم أهوى به الى صدره دليل الاستسلام والخضوع . ولا محيد عن القهقهة حتى في حضرة الصدر الأعظم حيال بلوغ الامنية السمينة . والصدر الأعظم جاراه في الضحك ، ولكن باتئاد خبيث وليس يخفى عليه طبع الجزار . فراقه ان يبصر هذا المستطيب الهدم في أوج لذواه . وقال يخاطبه وبسمة الخبث تنتشر في أساريره : أيكون احمد باشا راضياً الآن ؟.. زعزعنا بخصمه دعامة البقاء !

فهتف الجزار يؤيد بمستشف المسرة الرغبة الشادخة : اذا انهار ضاهر العمر فقد توطد لرب العرش جانب عزيز من السلطنة . قلعة عكاء سور هذه القاعدة لمن يهاجم الدولة العثمانية من الجنوب . فان لم تقبض على مقاليد ذلك السياج الحصين يد نزيهة مخلصة فان استانبول لفي خطر !

ومهد لنفسه الى الرسو في عكاء فيما ينطق بالواقع . عكاء مفتاح استانبول . قال الصدر الأعظم : ربما فكرنا فيك ونحن نقصي ضاهر العمر عنها . فهل لنا أن نثق بأمانتك وأنت ترسخ فيها ؟

وما جهل فيه المماذقة المجلوّة الأدلة . فنفر في مصر عن واليها علي بك الحكيم بعد مديد الخضوع لمن دفع عنه خموله . وأشاح عن الأمير يوسف شهاب ، حاكم لبنان ، يوم تسلم منه قيادة بيروت . ونهب أموال ضاهر

العمر وهو المؤتمن عليها . وآلم الاستيضاح أحمد الجزار فبلع ريقه وقال يدفع عن نفسه سوء الظن : ما استأثرت ببيروت الا لأعيدها الى الدولة العثمانية وليس للشهابي ان ينعم بدرّة يجهل قدرها . وأموال ضاهر العمر ، وقد استولى عليها ظلماً ، عدت بها الى مرجعها . وأراني في الموقفين أديت الأمانة لجلالة البادشاه !

فنزع الصدر الأعظم الى مداعبته وقد أحسّ منه بالحرد. قال وهو يلقي يسراه الى كتف الجزار تحبباً : ليس لي الا ان اكبر فيك الاخلاص للعرش يا أحمد باشا . ولك عليّ العهد الوثيق بانالتك الطلبة . ولاية صيداء ستنتهي اليك لدن يجلو عنها ضاهر العمر !

وما طمع في ما يسمو هذا الانعام الوزين وولاية صيداء غاية الارب . وطمأن ظهره في حضرة الصدر الأعظم وطبع شفتيه على اليد الواهبة . فما عليه وقد أسفّ كي يعلو ؟... إن في ركوبه منصب الوالي في صيداء واستقراره بقاعدتها عكاء للمشتهى الأوفى . وليمت وهو هناك على كتف لبنان ، بجوار نسل شاه ، وسيكون السيد الأرفع . فان لم يعلن عصيانه اقتداء بضاهر العمر فسيبدي من الاستعلاء ما تبيت به استانبول طوع يمينه. فيقوّض ويشيّد وليس من حسيب. ويميت ويحيي ولا من يعترض. وسيذل الشهابي المنتفخ غروراً ، الطائش النهية . بل سيسحقه ويحرقه وينثر رماده في مدفن القبة في دير القمر ليعالن نسل شاه بان الفتّاك الحقود أمسى ذروراً لا يبين له أثر . فلتهنأ في مضجعها منتشية بلذة الانتقام !

وتفتحت شفتاه عن قولته المخضبة بالبهجة الطروح فأذاع : ليس لي سوى مولاي من عاطف عليّ ، مدرك حسن بلائي . فأنا في الخدمة النصوح

حتى الممات . نصر الله جلالة السلطان !

قال الصدر الأعظم وقد انتشرت في صدره لحيته الشمطاء كالمروحة ، والعهد عهد لحى : ارجع الى مقرك في « افيون قره حصار » يا احمد باشا وانتظر أوامرنا. ما ان تخلو ولاية صيداء من الرابع بسدتها حتى تصير اليك عطية مأمونة !

فعاد الى اعلان الشكر وتقبيل اليد . وابتعد وهو يترنح سروراً . فالغبطة تتقد في شرايينه كالخمرة المنعشة. وجاد بالابتسامات على جميع من حوله. وعاد الى « افيون قره حصار » على متناهي الانشراح. فالغد مكتوب له وسيبدو سيداً خطيراً في من نبذه بامتهان . ووثب على فيروز يعانقها لدن أبصرها ويصيح بفيض الاعتزاز والمرح : لك البشرى . قتلنا الشهابي الخؤون وسكبنا البلسم على عظام نسل شاه. أضحى المجرم في بطن الثرى وقد دفعت الباب العالي الى مناوأة حليف حاكم لبنان اللعين ضاهر العمر. والباب العالي رمى الغادر بمحمد أبي الذهب. وكلاهما شرس محتال. ولكن أبا الذهب أقوى ساعداً . وسيتفانى الذئبان ومن الخير ان يبيدا معاً . فيخلو لنا الجو وأتولى الأمر في هاتيك الأصقاع على رغادة وصفاء . فالصدر الأعظم عاهدني على منحي ولاية صيداء لدن يتدحرج عن دكتها ضاهر المكّار !

ورفع فيروز بين يديه لفرط حبوره. وقرع رأسه برأسها تلذذاً بالفرحة ، بل هو نطحها كي يعول فيها الألم. وصرخت فيروز تتوجع والجزار يضحك ويتلوى اختيالاً. واقبلت جؤذر على صوت سيدتها الشاكي فأمسك بها احمد باشا وقرصها في خدها ، وحلج شعرها ، وقد شاقه ان يبصرها تتعذب وان

يضحك. وقفز الى مملوكه سليم والى عبده أبي الموت يلكمهما بلا شفقة. وهربا منه فلحق بهما مجلجلًا: أتفرّان مني أيها اللصان؟... والله، لأريقن دمكما!

فزلت بمملوكه سليم القدم فعلت القهقهة الوارفة كقصف الرعد. وتبعتها هتفة تعلن بشماتة ونقمة: هكذا أريدك يا ساقط الكرامة!

ولم تتبدل فيه عاداته مع كونه الوالي المهيب، الجسيم الخطر. فالقهقهة لا تهدأ فيه. والسعي للايذاء أشهى ما يصبو اليه. وأقام يفتح على أحداث القاهرة وعكاء عيناً، ويلقي اليها أُذناً. عمّ سوف تسفر الواقعة؟... أيُقضى على ضاهر العمر، أم تدور الدائرة على أبي الذهب؟... أما يفزع ضاهر الى الاسطول الروسي مرة اخرى؟

ولكن الاسطول الروسي لن يلبي النداء وقد لجمته القيصرة كاترين الثانية. وزحف أبو الذهب الى قتال الثاوي بقلعة عكاء يتقي فيها طمحات الدهر. فقذفه بستين الف مقاتل احتلوا مدينة يافا بعد حصار دام عشرين يوماً. وهجموا على عكاء فدانت لهم أبوابها. وولجوا قلعتها وقد فرّ منها ضاهر العمر يخضخضه الوجل وتقضّ الخيبة عظامه. ضاع عليه الحول والطول وأمسى مهيضاً مرذولاً

ودخل أبو الذهب المدينة يجيل البصر في ما كتب فيها التاريخ من سطور الجلال والقدرة. وطاف في قلعتها معجباً بصلابة بنيانها وبمناعة سورها. غير انه لم يقرّ فيها ولا في مدينة عكاء، بل شدّ أطناب خيمته بجانب قرية السميرية ومنها دفع قواته الى الاستيلاء على صور وصيداء. فخشعت له الولاية على بكرة أبيها وأمسى وليّ أمرها

ولكن السعد المبسوط الجناحين لم يلبث ان زمّ قوادمه وهوى من حالق نافراً من الموالاة ، حاقداً على خدينه. والسعد غدّار لا ذمام له. فلم يشعر أبو الذهب بسوى النار تشبّ في خيمته وهو الغارق في عزه وظفره. وحاول الفرار فسقط في يده والنار تتقد في جنبات الخيمة الأربع . فصاح يستجير بجنوده والخلاص لا يبيح له منفذ الأمان : انقذوني وادفعوا عني هذا الغضبان . ردّوه . فهو يروم محوي !

ومن هذا الغضبان ؟... لم يبصره أحد . والتهمت النار أبا الذهب لا تبقي منه غير فحمة سوداء . وذعر رجاله ازاء ما لاح لهم من مصرعه فانتثروا في طريق مصر يرتعدون فَرَقاً عائدين الى بلدهم على انخذال ورعب . فالشؤم نشر عليهم ويلاته فتضعضعوا كحفنة من ريش في غدير طفحان . ورجع ضاهر العمر الى مربضه على هتاف وحداء . وصال البارود . ابت مشيئة القدر أن يكبو الشيخ ضاهر على رغم صولة أبي الذهب وسعاية الجزار

٤

وجمت استانبول حيال ما وصل اليها من أنباء عكاء . فالعناية تصون ضاهر العمر من حكم الاستئصال . فكأنه يعوذ بالتمائم من أذى الناس

وحنق الصدر الأعظم على مكابرة القدر. فما كاد يرد عليه ان أبا الذهب احتل ولاية صيداء ، لا يعفّ عن ذرة من ثراها ، حتى جاءه ان النار التهمت الغازي وشتتت شمل رجاله المرعوبين . فانكفأوا الى مصر ورجع ضاهر العمر الى قلعة عكاء سيداً مكين القدم

واوجع الصدر الأعظم أن يهون في المغالبة . فمثل في حضرة مولاه السلطان يقص عليه الخبر الممضّ ، ويشكو اليه روغان الزمن . فقال السلطان وليس ينهد الى القلاقل يثيرها في دولة يوشك ان يفلت من قبضته زمامها : أما أيقن رأس الوزراء أن الحظ لا يوالي من لا يبرّ في العهد ؟... وهبنا لضاهر العمر الأمان وما لبثنا ان انقلبنا عليه نجبهه بالعداء . والله لا يحب من يحنثون في الذمة . كان علينا ان نرقب فتوره فنقتصّ منه بما يكفينا مَيْنه . أما ان نعتدي عليه وما خرج عن الميثاق فهو العسف الأخرق!

فأدهشت يقظة السلطان رئيس الوزراء . هل تفجرت ينابيع الحكمة في البصيرة الوهون ؟... قال الصدر الأعظم : ان ما يعلن جلالة مولاي لهو الصواب . أما وقد بدأنا فعلينا ان نمضي في ما أقدمنا عليه . وما الوقوف في منتصف الطريق سوى دليل العجز يا مولاي . وهيهات أن يتوفر ضاهر العمر على طاعتنا وقد كشفنا له عن نياتنا. فلنضربه حتى لا يختلج فيه حس ، وإلا أبصرناه غداً يصافح أعداءنا !

وأعداء السلطنة العثمانية هم الروس . الروس أبداً . في المناجزة والمهادنة .
وما أشار اليهم الصدر الأعظم حتى ارتعد السلطان وعنده من أخبارهم ما لا يحفزه الى الطمأنينة . وهتف مستجيراً بالله من شر هؤلاء المستأسدين العتاة : ألا اسحقه إذاً . اسحقه وانثر لحمه لعقبان الجو . عكاء لن تكون غير عثمانية ، وإلا فالسلام على العثمانيين !

فتعاظم دهش الصدر الأعظم لاتساع مدارك مولاه . بات يوقن أن عكاء سور من أسوار استانبول على متنائي مداها . وانحنى كبير الوزراء وانصرف وهو يقول : الأمر أمر صاحب الجلالة وما كنا له الا عبيداً طائعين !

والعبودية شعار الناس يومذاك . فتعلنها الشفاه مؤمنة بما تذيع وليس للمرء حرمة ودمه حلال لراكب السدة . فما ان يرفع رأسه حتى تحصده الشفرة المسنونة . بل هو لا يكاد يطمح بعينه الى جلالة السلطان ابن السلطان حتى تتدحرج هامته عند قدميه ، والنظر الى رب الأمر حرام

واستقر الصدر الأعظم بمقعده على مليّ التفكير وقد راعته انتباهة جلالة البادشاه بما أنساه ما أباح له عبد الحميد الأول من أمر والي عكاء . وفيما يسترسل الى هواجسه طرق اذنه صوت حاجبه يقول : بالباب سعادة أحمد باشا الجزار يستأذن على صاحب الدولة مولاي !

فابتسم وهو يسمع باسم الجزار . فالثعلب لا يأنس الى وجاره وما ينفك ينأى عنه . أمر ضاهر العمر يقلقه . ورام الصدر الأعظم الوقوف على رأي أحمد باشا في سحق ضيغم عكاء . فمن له وقد هان في طحنه أبو الذهب

المغامر الصؤول ؟... وهتف الصدر الأعظم بحاجبه : ليدخل سعادة والي « أفيون قره حصار » !

ونهض له مرحباً وصافحه مصافحة الرضى . فاعتكف الجزار على يد صاحب الدولة يقبلها . وبدا في ملامحه الجد فقال : لا أحسب مولاي دهش من مجيئي اليه وما دعاني الى رحابه . فالحالة قادتني على رغمي الى رب المجد والفطانة . وهل لي أن أنشط الى ما وقع في عكاء ؟... طرقت الأنباء الحادثة اذني قبل أن تقع في مسامع دار السعادة وأنا أقرب منها الى الجنوب . فراعني ما انتاب أبا الذهب من داهية . أفلت الصلّ من القبضة العاصرة وخلا له الجو . إلا أن مولاي صاحب الدولة لن يغفل عنه . وما جئت لسوى الفداء . فما عليّ وأنا أسير في لواء من الجند الى المحتال أدكّ دعائمه ؟... أفلا يراني مولاي على قدر ما أندب له نفسي من شأن ؟

فأذاع الصدر الأعظم بلين المجاملة وقد أثلجت صدره كلمات الجزار : بلى يا أحمد باشا . انك للكفيء ولست دون ضاهر العمر صدق عزيمة . ولك في نصرتك والي دمشق وحاكم لبنان . ولم يبق لنا أن نخشى الاسطول الروسي يوالي ضاهراً وجلالة مولانا السلطان عقد الصلح وقيصرة روسيا . فانطلقْ في قهر الماكر قبل أن يبادرنا بالعداء !

فصاح الجزار يرنّحه ثمل البشرى : قضي على الأفاك . ليس للمخاتل أن يبقى لحظة في ولاية صيداء وقد أضحت لنا . لننطلق اليها من البحر والبر يا صاحب الدولة وعليّ اقتحام خدورها !

وتواثب جذلاً . سيمسي والي صيداء ويقبض على زمام الشهابي حاكم لبنان وينتقم لنسل شاه . وضاق صدره بفرحته فماع . فالأمنية أمست لقمة

يضغها الفم بهناء . ورنا اليه الصدر الأعظم بيقظة بال فأبصره يترنح في أوج مناه وقد تراءى له انه يربع باريكة ولاية صيداء كأنه سيد العرش العثماني. فابتسم الصدر الأعظم وهو يلمس في الجزار فرحة الأطفال بثوب العيد ، وقال يوافقه على الرأي : سنهاجمها براً وبحراً يا أحمد باشا . فليتحرك هذا الاسطول الراسي في البوسفور والدردنيل وقد أوشك أن يعلوه الصدأ ، ولينازل الثعلب المراوغ المستعصي في عكاء . أما آن للدولة العثمانية أن ترفع رأسها بعد طول إطراق ؟... أما أنت فستنعم بالرجاوة ، ولكن بعد أن نظفر بالصعاب !

وما كان ليؤمن بولاء هذا المتقلب في المساندة والغدر من طبعه . فقد يمسي أشبه بضاهر العمر وهو يحبو اليه يناهضه . وحسب الدولة أن تكون نجت من شبح معاند فأنى تكابد شر معاند آخر ؟... واكتفى بالوعد يخلعه على الجزار . ولدن يهوي ضاهر العمر عن منصبه سينظر الصدر الأعظم في ما يتدبر به وعده ، وليس للسياسة ذمة ، ولا للحالة ثبات . ونادى اليه حسن باشا ، قائد الأسطول العثماني في البحر المتوسط ، يجاهره بالقولة الصادعة : طال نومنا عن الأثيم يا حسن باشا . ولقد اصطفيتك لاستباحة حماه . فاندفع اليه باسطولك واهدم معاقله . لتنصبّ قذائفك على قلعة عكاء ولتدكها من أعماقها . فقد وطنت النفس على محو كل شذوذ في أرض السلطنة !

وحسن باشا على جرأة وعزة . قال : الرأي ما يعلن سيدي صاحب الدولة . فالاسطول في خدمة العرش . وما ان تلوح له اشارة آمرة حتى يضرب كبد اليمّ ويهصر روح المحتال !

ومخر الاسطول العثماني العباب منقضاً على الوالي العاتي . وأبصر الجزار بعينيه الاثنتين مداخن البوارج تنشر دخانها على مضيق البوسفور في نأيها عنه الى مصادمة ضاهر العمر . فطابت نفس أحمد باشا واستلذ طعم الامنية قبل ان يذوقها وقد بدت له دانية القطوف . آن موعد الانتقام لنسل شاه!

وتمثل نفسه يمسك بخناق الشهابي ويجرّه صاغراً الى الأعواد يصلبه عليها. وسيصلبه ويرميه بالشماتة والاحتقار صائحاً به: أذللتني في غرامي واني لاذلك في سؤددك . فان تكن ذا قدرة فانقذ عنقك من عقدة الحبل !

ولم يطرح الاسطول العثماني مراسيه في مرفإ عكاء ، بل جاوزه الى يافا وواثبها فاحتلها . وعاد منها الى عكاء ينـذر ضاهر العمر بالاستسلام والا هـدم وكره وشتت شمله . وضاهر العمر أحس بأنه دون الحملة المجهزة لنسفه ففزع الى نصيره أحمد آغا الدنكزلي في مفـاوضة حسن باشا الربان المتوعد . فأي مبلغ يشوقه ان يتقاضاه في مقابل العفو والجلاء؟... وأحمد آغا ممن أُوتوا قوة الاقناع . فألقى في نفس حسن باشا الميـل الى الغفران على ان يشتري ضاهر العمر نفسه بمائة وخمسين الف قرش . والمال موفور لدى والي عكاء . ولكن غير الموفور هو السخاء . فضنّ ابراهيم الصباغ ، أمين أموال ضاهر العمر ، بالمبلغ الجسيم وحرض مولاه على المغالبة . فحرد الدنكزلي، وقد ساءه ان لا تستجاب له شفاعة، وأمسك برجاله المغاربة عن نصرة من خيّبه في الوساطة . واندلعت قذائف الاسطول تهز جدران عكاء. وشعر ضاهر العمر بضعفه والمغاربة يتخلون عنه فلاذ بالفرار . الا انـه عدّ نساءه وهاله ان تتخلف عنهن من هي عنده في السويداء ، وان يستأثر بهـا أعداؤه القساة . فرجع الى انتشالها من فوهة النـار . وأبصره مغربي من

رجال الدنكزلي فرشقه برصاصة هشّمت وجهه ، فسقط يتخضّب بدمه مبدد الانفاس

ودخلت القوات العثمانية عكاء. وأغار حسن باشا الربان العثماني على القلعة يستحلّ مذخورها. وينتزع نفيسها. ويقيم عليها أحمد آغا الدنكزلي حاكماً. ويأسر الصباغ أمين المال الشحيح اليد . على ان الجزار كان قد بدا يقود حملة البر وفي يمينه أمر صريح البيان يفوض اليه شؤون ولاية صيداء. وخشي حسن باشا ان يبوح الدنكزلي بما صارت اليه أموال ضاهر العمر فبطش به ولجأ واسطوله الى جزيرة قبرس يخفي فيها ما امتدت اليه يده من كنوز. وما نسي الصباغ وهو من أرشده الى مخابىء الثروة في ولاية صيداء، فاستصحبه كي يحول بينه وبين نشر الفضيحة

والجزار مانع في المسير الى عكاء الا وهو واليها . فتصدر قلعتها تملأ القهقهة شدقيه . ان سنة ١٧٧٦ لهي عليه خير وبركة . هي بدء خطوه في الجنة وما ولاية صيداء غير النعيم المرتجى . وأحس بالقوة والنعمة . انه لسيد هذه الأرجاء وقد وكلت اليه استانبول توطيد سلطانها في البقعة القلقة النصرة . ألا أين الأمير يوسف في غلوائه وتيهه وسوف يزحف على بطنه الى عكاء مستغيثاً بسيدها ، بل بسيده ، وقد بات الجزار له سيداً ؟... فما أشهى ساعة التدويخ والتحطيم وسيقلقل أحمد باشا روع ذلك المقتعد دكة الامارة في دير القمر بما يمسي به دون الهباءة . وهتف الجزار يخاطب نفسه بنفخة الغلاّب : ألا افرحي يا نسل شاه وقد دقّت ساعة الخوّان !

وأزمع المنافرة وليس يطيق الصبر . فدفع قواته الى بيروت تستقرّ بصميمها . ولولا خوفه من حسن باشا اللابد بقبرس لمشى الى دير القمر يقلق

فيها الأمير يوسف ويختلس أيامه اثثاراً لنسل شاه ، ضجيعة مدفن القبة ، وما زال حبها يتقد في شرايين الجزار مع زواجه باختها فيروز ، ومع كون فيروز أبهى

على ان لحسن باشا من الحرمة ما لم يجز والي صيداء لنفسه خرقه . فاكتفى بالاستيلاء على بيروت يضمّها اليه ويقلّص ظل أمير لبنان عنها . وتداعت همة الأمير يوسف وهو يسمع بالجزار. هل بُعث الميت حياً؟.. شخص له ان المملوك أحمد لن يرجع الى الشرق العربي ، فما به يطلّ باذخ المكانة ، وافي الصلابة ، واسع السلطان ؟... والتفت الأمير الى مدبره سعد الخوري يصيح بذعر: ألا ماذا لديك من ناجع في هذا الشيطان الزنيم يا سعد ؟... عاد الينا أقوى مما كان وتفتحت برجوعه أبواب جهنم النار. لن ينام عن سحقنا وهو الحاقد علينا ، فكيف ننجو من المناكدة المزمجرة ؟

وارتاع وشحب لونه . فالماحية الماحقة ذلته على كونه أمسى هباءة تائهة الغد، وليس له من العزمة ما يتقي به المكروه وعدوه المتهالك على استئصاله بات ولي أمره . فأنى الخلاص؟... وسعد الخوري أدركه الوجوم. فالضربة لا رحمة فيها وستدقّ عنق الأمير . وقد تزعزع دعائم الامارة فيبيت لبنان قطعة من ولاية دمشق، او من ولاية صيداء. وانعقد مجلس أهل الرأي في صرح دير القمر . وتذكر الأمير جاريته نسل شاه . فلو جاد بها على الجزار لصان نفسه من الهلكة الناعبة . كان أعمى البصيرة وهو يبخل بالجارية الشركسية على المملوك المطماع بعدما عاهده على نفحه بها

ومجلس أهل الرأي في صرح الأمير لمس هول الوعيد ورانت عليه اللبكة والخشية . فالامارة كلها في خطر . على ان ثمة فرجة من ضوء لا تزال تحفز

الى الأمل . فالأمير يوسف أقام وحسن باشا قائد الاسطول العثماني على صلات أيّدة . وما يقعد به عن الاستجارة بهذا الصديق المواتم وهو أسمى منزلة من الجزار ، وأمضى يداً ؟.. قال الشيخ سعد فضّاض كل معضلة : لنكتب الى حسن باشا في أمر هذا المحرج ولن يبيح له اختلاس مدينة بيروت ، كأن همه الأقصى ان يسلبنا اياها ، وما اعتبر بما حلّ به في الاغارة الاولى !

فأذاع الأمير يوسف باسترحام المهدود الحيل : ألا اكتب اليه يا شيخ سعد . اكتب . لم يبق لنا غير هذا الباب نقرعه وقد يكون فيه الفرج !

ومجلس أهل الرأي دعا الى الاستنجاد بحسن باشا. فهو المغيث الاوحد. وأبحر الى قبرس من حمل الرسالة اللهفى . فطفر حسن باشا الى بيروت يزيح الجزار عنها هاتفاً به بغيظ : ألا ما شأنك فيها ومن دفعك الى اغتصابها ؟... أما تراها لبنانية خالصة ؟... اسرع في براحها !

وأكرهه على الجلاء عنها . فحنق الجزار . أيظل قصير اليد وهو المقبل من استانبول على سعة سلطان ؟... ولكن الاسطول العثماني لن يرسو حتى الأبد في مياه قبرس ولا بد له من القفول . وما ان يغيب حتى يلقى الشهابي مصيره الأسفع . وانطوى احمد باشا على غلّ يتحفز للاشتفاء . واوفد الى امرأته فيروز وأبيها ان هلمّ اليّ ، أنا بالانتظار . ففي مرأى شقيقة نسل شاه وأبيها ما يزيده غلواً في تسديد النصلة الى النحر

وفيروز بدت يصحبها والدها الحاج نصرالله . وما تباطأت عنهما جؤذر . وكيف ينتقم الجزار للغانية الراحلة ولا تشهد وصيفتها مصرع الشهابي الطاغية ؟.. ورحب بهم أحمد باشا وهم ينزلون القلعة وقد باتت مثواه. وأشار بيده الى

البحر يقول : هذا المزبد الساخط دوننا وأمواجه وقذائف سفنه لن تقوى علينا . فكل عنيد تتحطم جبهته على أسوار هذا الحصن الشامخ الحريز !

وأومأ الى البر معلناً: وكما تتحطم الأمواج والقذائف على أبراجنا ينشدخ كل رأس يصادمنا وقلعة عكاء لا تلين لغارة ولا لوعيد !

والتفت الى امرأته يقول جازماً : هنا ستطير روح الشهابي يا فيروز . وما ان يجود الأرعن بأنفاسه حتى نتسلق مشارف دير القمر . ونقرأ على روح نسل شاه السلام. وننثر عند قدميها رماد ذلك القزم الطامع في ارتداء ثوب الجبار وليس فيه من الجبابرة شعرة ، وهو صنو الهباء !

على ان الشهابي وقد لقي في غوثه حسن باشا استخفّ بالجزار . وجنح الى التنكيل بهذا المقبل اليه بادي الأشر، صلب المراس ، يغمز من قناته ويقهر فيه الطماح. وما اجتازت قوات الوالي مصب نهر الدامور، في جلائها عن بيروت الى مضاربها، حتى صدمها رجال الأمير يوسف يرومون إفناءها وقد تولى قيادتهم المشايخ النكديون . على ان هذه القوات لم تكن لترهب المناوأة . فانقضت على مهاجميها انقضاض النسور على صغار الطير تمعن فيهم تقتيلاً ، ولا تبقي على سوى فلول وأشلاء . وسقط من النكديين نخبتهم . فقضى منهم أبو فاعور قائد الحملة. ووقع في الأسر ابنه محمود، وواكد ابن الشيخ كليب

وماد الشهابي رعباً وهو يلمّ بما انتهى اليه جهده . أنى يغفر له الجزار المناكرة المبيّتة في ليل ؟... وأنكر ان يكون المحرّض . فليس لمثله ان يألف الغدر . على ان أحمد باشا سمع وابتسم ابتسامة من لا يرى موعد الانتقام يفوته . أفلا يرجع حسن باشا باسطوله الى استانبول ؟

وكانت الرجعة . واستأسد الجزار والجو يخلو له . وأطلق الى الشهابي

من يتوعده بالقضاء على الأسيرين النكديين اذا لم يبادر الى افتدائهما بالمال. فهان الأمير حيال التهديد وأبان من كبد تتمزق: ولكني أؤدي عنهما مائة الف قرش ، فأين من يتقاضى المبلغ ويعيدهما الينا ؟

فدفع اليه الجزار رسوله مصطفى آغا قره منلا يقول : هات المال !

وأنى يجد المال والامارة منه على جفاف ؟... فالشهابي عاهد على بذل ما ليس لديه . واستعان على التحصيل بزيادة الضرائب . فرفض الامراء اللمعيون الاداء . ففار فائر الأمير يوسف ودعا مصطفى آغا قره منلا الى احراق مزارعهم في ضواحي بيروت . قال : لك ان تحتل المدينة وان تستعدي على العصاة الجزار نفسه ، فينجدك برجاله لجمع الفدية !

غير ان مصطفى آغا أبى احتلال بيروت الا اذا أباح له الأمير يوسف بصك مكتوب حق نزولها . فما تردد الشهابي في كتابة الصك . فاستقر بها قره منلا وأبى براحها اجابة لرغبة الجزار . فهي حبة تناثرت من السمط اللبناني ولن يعيدها اليه والي عكاء. وهوجمت مزارع اللمعيين بقسوة. فالجزار شدد في التخريب والتشريد . وما اكتفى ، ولم يكن يجنح الى الاكتفاء ، فأهاب بمصطفى آغا قره منلا الى غزو البقاع والاستيلاء على غلالها في افتداء الشيخين النكديين . فكادت روح الأمير يوسف تطير . الى أين يبتغي الوصول أحمد باشا الجزار ؟... على ان الشيخ سعد الخوري لم يكن يجهل شهوة والي صيداء. فما يبتغي مالاً، ولا غلة، بل قهراً وفتكاً. فهو بشوق الى التلذذ بمرأى النجيع يتدفق غزيراً من الصدور والهامات . ومن له غير الشهابي يهب له هذه اللذة وما تحنّ الى سواها نفسه الحمراء ؟

وجهر سعد بكل ما يتأجج في حناياه من نفرة. قال ومن جوارحه جمعاء

يصيح الغضب عالي الزعقة : لم يبق الا النار نشعلها يا صاحب السعادة. يريدها الجزار مجزرة فلتكن شهوته وما تعوّد ان يعيش في سوى المسالخ شاهراً مديته للاغتيال. فاذا ما تعرض لنا في البقاع فلنكن السبّاقين الى المصادمة ولا غنية عن ازهاق الأرواح !

وجمع بينه وبين اللمعيين واحتدمت معركة البقاع. الا ان النصر لم يحالف فيها الشهابي بل الجزار. فانتصرت قواته على الحشد اللبناني وبات فارس الميدان. وسخر ما شاء بالأمير وصحبه. وقهقه ما استطاع وكأن في حنجرته قصف الرعد. وهان الشهابي حتى أمسى في غيبوبة من الألم لا يستيقظ منها. وتراءى له دنو الأجل. عصف به عاصف الموت والجزار يتولى الأمر في عكاء الوطيدة الركن، كأنها ذؤابة من ذوائب الجوزاء

٥

اربعة ضمتهم حجرة الوالي في قلعة عكاء التياهة بعلو قبابها ، وصلابة جدرانها ، وسعة قاعاتها ، وطول أروقتها ، وضخامة بنيانها . والأربعة يضحكون ويشمخون على الدهر لفرط ما حباهم من هناءة وبشر

وما الأربعة غير الجزار نفسه ، وامرأته فيروز ، وأبيها الحاج نصر الله ، ووصيفتها جؤذر ، وقد صفا لهم المقام وبات احمد باشا سيد ولاية صيداء وامارة لبنان . فلوى تيه الشهابي المتشامخ وحرمه مدينة بيروت ، وهي وجه امارته . وقهره في البقاع ودله على انه كليل عن المناوأة ، قاصر الرأي ، وان عليه ان يقف من مولاه الرابع بقلعة عكاء وقفة العبد الصاغر المهين . واذا خطر له ان يشيح عن فرض العبودية فلن يلقى غير النصلة تبتر رأسه ، وتبيحه للمنية طعماً رخيصاً . ولكن هذه النصلة لن ترأف به سواء أطاع أو عصى والجزار يشحذها للاستئصال . فما يزال يذكر عهده في مدفن القبة في دير القمر للراحلة الحبيبة نسل شاه

وصاح يتباهى في مجلس انسه بما أدرك من توفيق وقد أزرى بالشهابي الحانث في الذمة : حرقت مهجته بالنار يا فيروز ، وسأشويه طويلاً عليها قبل أن استل روحه . وما علي وأنا اشاهده يموت في اليوم الف مرة ، وانتقم منه في كل مرة للعزيزة نسل شاه . فيتلاشى ويظل حياً . أليست احدى المعجزات ؟

فقال الحاج نصر الله راضياً عن الاذلال والارهاق : لا بأس ان ننظر

اليه في حقارته ونشمت به حبّاً ، على ان نعود فننتقم منه بقتله !

وقالت فيروز : ما دِمنا سادته فلنمعن في قهره وفي استصفاء قواه ، ولنطرحه في لجة الموت فتبتلعه أغوارها !

ولم تكن جؤذر من هذا الرأي وهي تجنح الى البتر بلا هوادة . فما دام العنق سيتدحرج فلماذا البطء في الاجتثاث ؟... فقهقه الجزار وصاح بها : انك لطافحة القلب بالحقد يا ابنة القاذورات ، ألا اقتربي مني فاقطع لسانك !

وخشيت أن يفعل فهتفت به غاضبة : أتجازي المخلصين لك بالاقتصاص منهم ؟... أراك زدت على الأمير يوسف في الكفران بذوي الولاء . هلا ذكرت اني وصيفة نسل شاه ؟

فغاظته وقاحتها . أتتطاول عليه بمثل هذا القول القبيح وهي من خدمه ؟... ونهض اليها يروم الامساك بهـا لتأديبها بما تعوّد من قسوة ففرّت منه . فصاح بغيظ : انها لذات لسان قاطع كالفأس هذه اللقيطة وما زالت تنفث في عروقي السم حتى أمسيتُ منه في بحر موّار . ويدهشني ان تتجاسر عليّ في ما تبدي كأنها لا تبالي خطري . فمتى كنت في درك الخدم وأنا من يسمو الى النيّرات ؟

وجنح الى شفاء غيظه . فرفع فأسه وجدع بها أنف حاجبه صائحاً به : كيف أبحت لهـا الهرب يا ابن السافلة ؟... أتبصرها تفرّ مني وتطلق لها جناحيها ؟

فارتاع الحاجب وملأ دمه قميصه . الا انه ما تجرأ على الصياح والا أهوت الفأس على عنقه لا تتهيّب القطع . وسكن الجزار وهو يبصر الدم

يسيل ونفسه تحنّ الى هذا القاني يفور فيكسو الأبدان ويروي الرغام. ورجع الى امرأته وأبيها يقول وقد خلا لبه من كل حرد واضطغان : الرأي ما أبديتما . سنذيب الشهابي في امتهان كرامة وتحطيم أوصال. فلا نستلّ فوراً روحه ، بل نعمد الى تنكيد عيشه وحرمانه الاستقرار . فما ان يخيل اليه انه بأمان حتى تدهمه الضربة فيغشى عليه . وما ان يستيقظ حتى نعاجله بضربة أدهى. وهكذا نقلقل فيـــه الروع . فيرثّ وهو ما يزال يتنفس . ونجبهه بالضربة الفاصلة فيغور في التراب مذموماً بكل لسان ، ونثأر منه بملء شهوتنا لمن سلبنا وهجها وطلالتها . اني للجبان اذا لم أهدم فيه خفقة الحياة !

فقال الحاج نصر الله : أمسيت سيده وأنت والي صيداء ، فلتنفذ حربتك الى كبده ولتنتعش بموته عظام من حرمنا اياها بهوسه . ولا عليك وأنت تمشي الى قتله بخطو وئيد ، على ان لا تغفل في النهاية عن البطش به وليس للمنكود ان يرسخ في متعة البقاء !

فصاح : يميناً ، لست بالغافل . وحق تربة نسل شاه يا حاج نصر الله ستبصره بعينيك يترجح على الأعواد . واني لأحفر له الحفرة تلو اختها كي يهوي الى حتفه وسأجعل من طريقه مدافن لوأده . فتمسي حياته طوافاً في الارماس . سترى وتسمع ما أبدّت له من نكال !

ونادى اليه مملوكه سليماً يقول له : أتقسم لي أيها العريض الدعوى على كونك تفلح في ما سأعهد فيه اليك ؟... سأبلوك وأتبين فيك القدرة على انجاز المهمات . مجالك دير القمر تظهر فيها ضلاعتك وتكيد لأميرها الأخرق الرأي. فليس يغيب عنك ان للأمير يوسف أخوين هما الأميران سيد احمد وافندي . فهلا وثبت اليهما تزين لهما المناداة بخلع أخيهما عن مقعد الامارة

وبركوبهما المنصب ولك مني ما تطمئن اليه روحك ويسمو به قدرك ؟...
وحذار ان يدري بك الأمير الممسوس . فادخل دير القمر كالطيف وابرحها كالذرارة . فلا تبصرك عين ولا تسمعك اذن . وما لك الا ان تسير الى سيد احمد وافندي دون سواهما . فتخاطبهما على خلوة وتحمل اليّ جوابهما وأنت تعالنهما اني في نصرتهما اذا جاهرا بالعصيان وأعلنا الثورة .
فلا بد من ثورة في لبنان تجرف الغبيّ الناعم بالسلطة وليس منها بذي جدارة.
وطالما حدثني أخواه عن قصر باعه واغتاباه على مسمع مني مترحمين على أبيهما وقد انخدع بالمأفون الغرّ !

والمملوك سليم لا يخفى عليه ما يكابد اذا رفض . ومع يقينه ان في الوثبة مجازفة رضي بأن يتسلق روائس دير القمر وبأن يزحف الى الأخوين الحاقدين على أخيهما لاستئثاره دونهما بعنان الامارة. فهما من صلب الأمير ملحم مثله ، فلماذا لا يظفران بما يرتع فيه من سيطرة وفخار ؟... والجزار وقد ثوى بدير القمر وقف على ميول الأخوين الكارهين للرابع بالذروة . ودرى ان بني نكد لا يؤيدون بأجمعهم الأمير يوسف ، وان بني جنبلاط سئموا عهده وما يستقر على حال . أما مشايخ بني العماد وتلحوق فما يفتأون يكيدون له . واذا اهتدى النافرون الى شهابي يتنكر لراكب السدة أعانوه على خلع الحاكم الطائش اللب

وزوّد الجزار أحقاده وشهواته مملوكه قائلاً له : كن شرارة الفتنة ومكافأتك عليّ . فأنت تعرف سيدك الجزار يأخذ باليسار ويعطي باليمين، فلا تخش الغبن في المنحة . عليك ان تركب الصبح الى دير القمر ورفيقك أبو الموت. فكلاكما وافي الاطلاع على الحالة وليس يخفى عليه القوم ولا المكان !

فاستوضحته فيروز: هل لي ان أكون بجانبهما فيرشداني الى ضريح نسل شاه؟

فأذاع بنبرته الصادعة : لن تشخصي الى دير القمر الا وقد فصلت رأس الزنيم عن كتفيه . حينذاك لك ان تسيري الى مدفن شقيقتك وان تقبلي ترابها بطرب واشتفاء ، لا بحزن ونواح . فدعي الزمن يمهد لك الى البغية وهو في خدمتنا !

ونادى أبا الموت يصيح به : هيا الى دير القمر . سليم يوضح لك ما أنت مدعو اليه . واحذر الوهن والبوح . والا هوت عنك هامتك كصخرة عن تلة . فلست تجهل مولاك !

ونقدهما كيساً من المال وقبضت يداه على شواربهما معاً كأنهما تحوشان تلافيف العشب . وشدّ بهذه الشوارب بجمع راحتيه وهو يزمجر : سأحفوها واجعلها في وجه امرأة اذا تقهقرتما عن الرغبة . اذهبا واعلما ما يرقبكما في اليسر وما يصيبكما في العسر. مولاكما الجزار خبير بقطع الرقاب كما أيقنتما!

وأشار الى سيفه والى فأسه وكان يتقلدهما أبداً . فهما رفيقاه في قيامه وقعوده ، في يقظته ومنامه . وما كانا ليعطشا الى الدم وهو يطلقهما بلا ونية في الرؤوس والنحور . فما يوشك الجفاف ان يعروهما حتى يخضبهما أحمد باشا بنجيع ضحاياه وليس يلمّ بهذه الضحايا نفاد. فالأرواح تطير في ولاية صيداء كما تطير الزرازير فتحجب وجه الفلك. والحنين الى التهشيم والتنكيل نعم بمداه يوم استقر الجزار بقلعة عكاء

والمملوك سليم والعبد أبو الموت قادتهما ركابهما الى دير القمر المقيمة على بحران. فلا الأمير يوسف على رضى، ولا الشيخ سعد الخوري مدبره على صفاء وفي جوانحهما خوف ميّاد من دهمة الغد. فليس الجزار المستذئب بمن يركن

اليه والغدر من طبعه،والحقد على الأمير يوسف وعلى الشيخ سعد يستشري فيه وقد هضما حقه وغمطا فضله . وتبينا عجزهما عنه وتفوّقه عليهما في المرتبة والقوة، وقد ظفر بمقاليد ولاية صيداء، فما انفكا يرتعدان. فيجلس بعضهما الى بعض وليس في الصدر غير نيران تشتعل ، وضلوع تقضقض . دنت ساعة الفناء . قال الأمير يوسف،وأنى التفت لاحت له حفرة الموت: لم يبقَ علينا يا سعد الا ان نعقد في أجيادنا مناديل الاستسلام ونسير الى الجزار فنطرح بين يديه مصائرنا . الا ان الوغد لن يرحمنا وسيصلبنا معاً . يخيل اليّ اني في الدقائق الأخيرة من عمري . ولكني سأموت شجاعاً ، لا نذلاً . حكم علينا القدر بالنكد وهو يرمينا بهذا الظالم البطّاش !

فلم يجب الشيخ سعد وفي نفسه من الخشية ما في نفس مولاه . انقضت أيام الزهو والخيلاء ، وبات الحكم لهذا النافر ، المقتات بالضغن وليس في ضميره علالة من عفو وسماح ، كأنه من سلالة أبناء النار . وأحس سعد الخوري بهفوته في مناوأة المملوك أحمد ، وكان عليه ان يبدي حياله بعض اللين وليس من يدري كيف تنقلب الأيام . فالسيد قد يمسي عبداً ، والعبد سيداً ، وليس للزمن وئام ولا ثبات. وعضّ أصابعه ندماً هذا المحنك، أخو التجارب ، وقد خذلته حنكته . عمي عن وزن الجزار فجرّ على نفسه وعلى أميره المتالف وليس ثمة ما يبشر بحسن المآل

وغار الشيخ سعد في خواطره السود وفلّ سلاحه. وانتظر كلمة الليالي فيه وفي أميره والأمل يتداعى في الصدر والداهية تتوعد . والتفت الى الامارة فبدت له تنهار . أيستولي عليها الجزار ويمحوها ويبدد كل أثر من لبنان ، حتى الشوامخ والأغوار ؟

وبكى الشيخ سعد امارة تولى إحياءها ، وعهداً استعلى فيه . على انه وهو الحلب العزمة أبى ان يصير الى التلاشي . فجاهد في استعادة همته وصمم على مجابهة الدهر . غير ان الدهر استكلب وشمخ على الرجل الواسع الحيلة ، المستحلب حتى الصخر . وليس ما يشقي ذا الدهاء كعجزه عن مغالبة تيار المحن. فيبصر بعينيه جميع مساعيه تلتوي عن هدفها وتتناثر كالغبار . وما ان يرفع مدماكاً حتى يهدم له الدهر دعامة وليس من مسعف في ردّ أمر القضاء

وما ضلّ المملوك سليم والعبد أبو الموت في دير القمر عن الصراط السويّ . فدخلا على الأمير افندي في العتمة يعلنان أمرهما: رسولا الجزار !

والأمير افندي عرفهما لدن أبصرهما . وأنى يجهل المملوك سليماً والعبد أبا الموت وقد طال قرارهما في دير القمر؟... وهاله ان يشاهدهما في داره. هل من رزيئة يرشقه بها والي عكاء ؟... ورحب بهما وفي عروقه رعدة وفي فمه ابتسامة متكلفة : أهلاً وسهلاً . كيف حال مولانا أحمد باشا ؟

وتذكر ذلك المقهقه في مقهى الميدان وفي صرح الامارة ، والمزمجر في صيداء وفي بيروت . انه لممازح خلوب المفاكهة ، الا انـه ممازح مخيف . فيطرب جليسه ويخيفه معاً وفي عينيه وجار يتقاسمه ذئب وثعلب . فالثعلب يراوغ والذئب يتحفز للنهش . ولم يتبدل الثعلب الذئب وقد أمسى والي عكاء ، بل ازداد مكراً وشراسة . فهل يكون الأمير افندي من ضحاياه؟

على ان المملوك سليماً ما ابطأ في الايضاح . قال : ليس للامير افندي ان يخشى وما أقبلنا اليه من عكاء للاحراج ، بل للمسالمة . سعادة الوالي أحمد باشا يقرأ عليه السلام !

فتنفس الأمير أفندي وجرى الدم في عروقه بعد انحباس وهو يسمع

بالمسالمة. قال: وعلى مولانا أحمد باشا السلام. كلنا في خدمة صاحب السعادة والينا!

وابتسم ابتسامة الاطمئنان. فالجزار لا يبتغي الايذاء. قال المملوك سليم يزيد في خلو البال: ولقد أوفدنا اليك والى أخيك الأمير سيد أحمد كي نباحثكما في شؤون الامارة بما تعلو به مكانتكما، وتتسع صولتكما، فهل انتما على استعداد للاجابة الى ما يرغب فيه مولاي؟

فسطع في عينيه الرجاء الفيّاح. ماذا يطلب منه والي صيداء أحمد باشا الجزار؟... قال بوافر المجاملة: ولكننا لا نبخل على سعادة الباشا بدمنا. ولقد أقام بيننا وخبر مدى صداقتنا له، فليعلن مشتهاه وكلنا له المطيع الأمين!

فأبدى المملوك سليم بفطانة من يجيد البيان السلس بلا تقعر ولا انتفاخ: مولانا الجزار يسألكما عن رأيكما في أخيكما الأمير يوسف. فهل راقكما ما بدا منه في مغاضبة سيد عكاء؟

فهتف بغضب: أيخيل الى أحمد باشا اننا نؤيد ذلك الغبيّ في سياسته العوراء؟... لا والله ياصديقي. فما كنا من سوى الناهين عن هذه الشوائن. ولكن ما حيلتنا في أمير أحمق، وفي مدبر خبيث الروح يميل الى العسف والطغيان؟... قبض على ناصية أخي ليتولى الأمر فينا. ليس حاكم هذا البلد الأمير يوسف شهاب، بل سعد الخوري. وما نحن الشهابيين غير ستار يخفي مكايد سعد المستأثر بالأمر على هواه. فيرفعنا ويحطنا كأننا في يديه أكرة يديرها كما تشاء ميوله. وما من حجر ينقلب في لبنان، او ينتقل من ناحية الى ناحية، بسوى أمر سعد. بل ليس من نسمة ريح تهب علينا الا وسعد يأمرها بالهبوب والا سكنت او حادت عنا. وكل مـــا وقع من منافرة

ومناكرة أشار به سعد. وكل ما سيقع من كيد وعداوة سيقضي به سعد. وليس أخي الأمير يوسف غير خيال يلوّح به ابن صالح الخوري الرشماوي ليقول ان الشهابيين يتولون الامارة اللبنانية، وانه بريء مما يجري، وما يقبض على الرسن سواه!

فارتاح المملوك سليم الى ما يسمع وقال: وهل يشوقكم ان يطول هذا الكيد فلا يبقى لكم في لبنان، موئل عزكم، مجال الى سؤدد، ولا مظهر من كرامة؟... مولاي أحمد باشا الجزار يتألم شديداً وهو يبصركم عاطلين من القدرة. فيتلاعب بكم رجل من الدهماء لا يبتغي سوى امتطاء ظهوركم لبلوغ المعالي، ويسخّر لمآربه الأمير يوسف الأعمش البصيرة وما يجيد غير الأكل والنوم، والثرثرة، والتباهي الفارغ بقوة ساعده، كأن قوة الساعد هي كل ما تفرض السياسة الرشيدة من يقظة، ومعرفة، ودهاء. هلا خلعتم عنكم العبء ونهدتم الى التحرر من النير؟... ليس للذل ان يكوي رقابكم بميسمه أبد الدهر!

فانتعش فيه الأمل. هل له ولأخيه ان يركبا مقعد الامارة اللبنانية بالاستناد الى الجزار؟... قال: لسنا نحجم عن هدم الاعوجاج. فالجميع في لبنان يتذمرون مما يبدو لهم من شذوذ وعلة. غير ان الجند في نصرة أخي الأمير يوسف. فهل لمولانا الجزار ان ينجدنا بقواته اذا ما دعت الحاجة الى الغوث؟

فأبان المملوك سليم بيقين المؤمن بالمساندة: مولانا أحمد باشا في عونكم ما دمتم تجرون في رضاه. نادوا بالثورة واعتمدوا على مظاهرتنا لكم. فما ان تذيعوا خلع الأمير يوسف حتى تبصروا في أبواب دير القمر جيش الجزار!

فاتسعت الغبطة في صدر الأمير أفندي وقال : اذن عليّ أن أنادي أخي الأمير سيد احمد كي يقف على رغبة مولانا الجزار . فهل أدعوه كي توضح له ما يهيب بنا اليه سعادة الوالي ؟

قال سليم : مولانا أحمد باشا أوفدني اليك والى الأمير سيد أحمد معاً. وهو يرى ان يخلع عليكما الامارة بالمساواة . فيكون شأنك فيها شأن أخيك . فليقبل الأمير سيد احمد كي اذيع فيه مشيئة سيدي الجزار !

والأمير سيد احمد لبى النداء . ووقع عليه النبأ البشير وقع الغيث على الروض العطشان . فهتف بحبور وثاب : يوم الخلاص حان يا سليم بك . ابلغ سعادة والينا احمد باشا اننا طوع يديه . فما أمست الامارة عرضة له من المخازي يفرض علينا الانقاذ . فالشعب يرزح بعبء الضرائب . والغلاء ينهش الذخر . وأرباب الشأن يعانون الاضطهاد. والأمير يوسف أخي أشبه بالطفل في يمين سعد الخوري. فالحاكم في لبنان هو سعد ابن الخوري صالح، أما الشهابيون فقد نأوا عن مراتبهم السنية وباتوا في شلل وهوان . رحم الله أبانا . عهد الى سعد في الوصاية على أخينا الأمير يوسف فمدّ ابن الخوري صالح الرشماوي هذه الوصاية حتى أبد الدهر. وأي أمر يجري في لبنان ولنا فيه رأي ؟... ألا ابلغ سعادة والي عكاء ان سيادتنا أفلتت منا، واننا لن نضن في استعادتها بكل نفيس . فالثورة نعلنها غداً والجميع في ركابنا !

فقال المملوك سليم يصبّ الزيت على النار : وبعد غد تبصرون جيش الجزار يظاهركم على الارعن !

فاعلن الأمير سيد احمد وهو الجزيل الحماسة ، المتفاقم النفرة مما صارت اليه الامارة في استضعاف الأمير يوسف واستفحال سعد الخوري :

هل يشوقك أن ننادي بها الساعة ؟... فالجنبلاطيون بجانبنا ، ومعظم النكديين ، وآل عماد ، وبنو تلحوق ، وبنو عبد الملك . فلا يبقى للأمير يوسف غير سعد الخوري ، وابنه غندور ، وابن اخته جرجس باز ، وبعض النكديين ، وفئة من الجند اذا نصرنا عليها الجزار بددناها كالبغاث . ومولانا أحمد باشا أدرى منا بالحالة وقد عرف من أخبارنا ما أضحى به ملمّاً بجميع الخفايا !

فأوضح رسول الجزار : مولاي يعالنكم بأنه لا يمسك عنكم يده ، على أن تنقذوه من العيب الطاغي . فلا بقاء للأمير يوسف في مستقر الأحكام وكلاله ظهر ، وعداؤه لسعادة الوالي دلّ على فاسد النية . أهدماه ولكما الزمام !

فأبان الأمير سيد أحمد : لك ان تنعاه الى سعادة والينا يا سليم بك . سندرجه وشيكاً في الكفن وان يكن ابن أبينا . لبنان تراث الأجداد وليس لنا ان نساعد على انتثاره حرصاً على صلة الدم . فما دام الأمير يوسف لا يصلح نفسه – ولا قدرة له على الاصلاح وهو المسترسل الى رغبات سعد الخوري الانكد – فعلينا ان ننقذ وديعة السلف الكريم حتى مع اضطرارنا الى الغوص في دم أقرب الناس الينا . لا محيد عن نسف الوجه الدميم البادي اليوم في لبنان نصرةً للحق الوضّاح !

فاستفهم المملوك : أأبلغ مولاي ان النار على وشك الاندلاع ؟

– ابلغه انها أخذت تضطرم . فما ان تغيب عنك دير القمر حتى تكون قد استطارت حمم البركان !

فشاقه التوفيق العجلان . ما طمع فيه مولاه أحمد باشا لقي طريقه الى النجاح . غداً ستهوي بالأمير يوسف أريكة الحكم ويقهقه الجزار قهقهة

الفوز والشماتة. أما من سوف يربع بالمنصب الحالي فهو من يزيد في العطاء. قد يكون الأمير افندي ، او الأمير سيد احمد ، او الأمير حسن ، أو سواهم . فالمهم ان يخشخش الذهب في قبضة الجزار ولا قدر لديه للأسماء .

وقفل المملوك سليم الى عكاء بصحبة أبي الموت. وضحكا طويلاً في الطريق من الجبابرة الأقزام المعتلين مركب الامارة وهم تحت رحمة والٍ من الولاة. فما ان يزمجر احمد باشا الجزار حتى تندكّ صروح تنعم بالسيادة والجاه، كأنها من زجاج لا تثبت على ضربة حجر ، بل كأنها من قشّ يحرقها عود ثقاب

٦

المكايد تنسج حبائلها في دير القمر. وقهقهات الجزار تتعالى في صرح عكاء. ففيما يحشد الأميران افندي وسيد احمد شهاب حولهما بني نَكد وآل جنبلاط لمناوأة الأمير يوسف وخلعه عن امارة لبنان، جمع مجلس والي صيداء مماليكه الثلاثة المقدمين لديه، سليماً الكبير، وسليماً الصغير، وسليمان، والحاج نصرالله والد فيروز، وفيروز نفسها. الا انها جلست وراء ستار في هالة من الجواري الوسيمات، المخضبات الوجوه بالطلاء، المصبوغات الأيدي والأرجل بالحناء. وعلت طراطيرهن كأن على رؤوسهن التيجان. وتدلت سراويلهنّ المزركشة بخيوط الحرير والقصب والفضة تشفّ عما يتهادين فيه من دعة ونعمى ودلال

وتكلم الجزار يوضح مراميه. فقال يخاطب مماليكه وزوج امرأته بتيه السيد الغارق في متعة الحظ المأمون: قبضنا على رسن الأحمق وسنجرّه به أنى شئنا. فهو اليوم من حشمنا وسنذيقه من مرارة الذل ما يوقن به ان ثارنا لا ينام. ولقد حرضنا عليه أخويه وسنشهد غداً في لبنان اندلاع النار. ليحترق المقيت بلظاها وخرق رأيه كتب عليه الخزي. والله، لن نوبط جيادنا في سوى ميدان دير القمر، ولنا جميع هاتيك الصروح ومن فيها، وما تحوي من فرائد واموال!

واشتدت به القهقهة. فهو في أوج سعده. ورفع عمامته الضخمة عن رأسه ليمسح العرق عن جبينه والحرّ في عكاء كاوي الملامس، ملتهب الأنفاس.

وشاطره مماليكه وحموّه وامرأته وجواريه قهقهاته وبهجاته . الموت للأمير يوسف الشرس المأفون. وكان مملوكه سليم الكبير وعبده أبو الموت قد قصّا عليه من أمر الشقيقين افندي وسيد احمد ما قرّ به عيناً واتسع له شدقاه ضحكاً . على ان الوصيفة جؤذر تخلفت عن هذا الحفل . فهي ليست في القلعة وقد توارت عنها بعد ذلك التنديد الراعب . فما دام الجزار يغلظ لها في القول ، ويتوعدها بقطع لسانها مع صادق أمانتها له ، فلن تقيم بجانبه . أيكون نصيبها منه المخاشنة والايذاء بعد كل ما أجهدت فيه نفسها من خدمة وولاء ؟

والجزار شعر بغيبتها وسأل عنها. قال بلهجته الزاخرة بالتهكم وهو من تعوّد الاستخفاف بالناس : ألا أين هي اللقيطة الفاجرة جؤذر ، هل طاب لها الهجران ؟... والله ، لاسحقن رأسها واطمره في بطنها واشوينّها على النار. ألا ليقبض عليها جنودي حيث هي . ومن لا يحملها اليّ صلمت اذنه ، او جدعت أنفه ، أو سملت عينه ، وقد انزل به العقوبات الثلاث. وربما أَوديت به !

وصلم في عكاء الآذان . وسمل العيون . وجدع الأنوف.وهو تهشيم من أَرحم ضروب القصاص لدى الجزار.وكان يرى أحياناً عندما يصلم اذن أحد رجاله ، أو يسمل عينه ، أو يجدع أنفه ، انه يمازحه أو يتودّد اليه . وربما يكافئه عن حسن صنيع . وماذا على هذا المجدوع الأنف ، أو المصلوم الاذن ، اذا عانى التشويه وقد أضحك الجزار؟... فالمهم ان يضحك أحمد باشا وان يطرب لمرأى الدم السائل . وان يجد في من حوله عيوباً في الملامح صان منها نفسه . فهؤلاء هم عبيده وليس للعبيد ان يشابهوا سيدهم في صورة من الصور ، ولا في حالة من الحالات

وعكاء امتلأت بهؤلاء المشوّهين وما كان يدهش السائر في أزقتها واسواقها من سوى رؤية الناعمين بسلامة جوارحهم . والسارق تقطع يده في عرف الجزار ، بل في عرف جميع الولاة يومذاك . وكثر القطع في ولاية صيداء تأديباً وانتقاماً . ورهب القوم الوالي المفطور على الايلام . فنكسوا رؤوسهم . وذهبت عنهم جرأتهم . وباتوا أشبه بجثث ميتة حية . تجول فيها الروح ، الا انها موقنة انها تعيش في الأرماس . فلا ضجة ولا حركة ، ولا قدرة على البوح بما ينتفض به الضمير من ميل ورأي . ورضي الجزار وقد شعر بان الناس أمسوا دونه عزة واكتمال ملامح . فمن ازدروه بالأمس لحقارته وضعفه ، خرّوا ساجدين بين يديه عبيداً أذلاء يحرقون القرابين ويلتمسون الابقاء عليهم حتى في نطاق من الصغار

وهبّ الجنود للبحث عن الوصيفة المتوارية عن الأبصار فما اهتدوا اليها . والخوف من القصاص وقد ضاعوا عنها جنح بهم الى الفرار أسوة بها . والا كان لهم ان يمسوا من المصابين باحد أوصالهم ، فاما عوراناً ، أو عمياناً ، أو مجدوعي المناخير ، أو مصلومي الآذان . ولكن أحدهم عاد الى سيد عكاء يروي ما انتابهم في البحث من اخفاق ، كأنه يرتضي نقمة مولاه الحانق أبداً حتى في أقصى مدى من ضحكاته ، وما يقهقه الا بعد ايذاء . قال وهو ينحني ويشعر بالموت يجتاحه غير مهاود : لم نبصرها يا مولاي !

فهتف به الجزار : وأين رفاقك منها ؟

– ربما لا يزالون في البحث !

فنبر : بل ركنوا الى الفرار . لعن الله آباءهم وأمهاتهم وجميع من يتصل بهم من الأهل والانسباء . سيعلم الجبناء ما يرقبهم من بطشي . أما انت

فقد عفوت عنك . اذهب . لست من الجناة على الامناء !

ودعا الى القبض على من فرّوا ودمدم عليهم وقد أمسوا بين يديه دمدمة الضواري على الفرائس . وجدع أنوفهم . وصلم آذانهم . وسمل عيونهم . وشاهدتهم في صباح اليوم التالي عكاء بأجمعها مرفوعين على المخازيق في أعلى ابراج القلعة . فارتعدت هولاً واعتبرت دون ان تتعجب مما ترى وقد تعوّدت قسوة الجزار .

وما زالت الوصيفة جؤذر محتجبة عن كل عين والجزار يتهالك على الالمام بخبرها دون ان يقع عليها . وصاح من كبد تشتعل حقداً وتتبرم بالخيبة : هذه اللقيطة تشغلني بما يرجح ما يصرفني اليه أمير لبنان من جهد في الترويع والتنكيد !

• وبذل المال في استجلاء مصيرها . أين أضحت الضائعة الأثر؟... واقسم ان يريق دمها . وقلق وهو يعجز عن الوصول الى مخبأها وانتفش شعره حنقاً . وصرخ بمملوكه سليم الكبير : هلا جئتني بها ؟

فأبان المملوك بابتسامة خشيا: زاد الله في عمر مولاي وفي عزته. بوسعي أن أجيئه برأس الأمير يوسف حاكم لبنان ولن اتقهقر عن الرجال ، أما النساء فاني لعاجز عن مناوأتهن وما أملك في مغالبة مكرهن الوسع . قد تكون الوصيفة جؤذر فزعت الى قصر الشهابي في دير القمر نفرة من الوعيد!

فصرف بأسنانه . أيذلّ الطغاة ويتضاءل عن وصيفة ؟... وفرار جؤذر أرهف غيظه فاشتدت نقمته على الأمير يوسف وقد تراءى له أن الوصيفة لجأت اليه . وما تراءى له غير الواقع الراهن . فالوصيفة برحت عكاء في طريقها الى دير القمر تذكر سيدها القديم وتحمل اليه أسرار الوالي الرهيب

المغالي في العنت والايلام . قالت : موتي في خدمة مولاي ولا حياتي في حمى الجزار وليس لمودته بقاء ولا ليمينه وفاء !

فرحب الأمير يوسف بناشرة الخفايا وما جهلها وهي وصيفة نسل شاه . قال يستدرجها الى النطق بما في نفسها من حقد على والي صيداء، والى اذاعة ما تجلى لها في قلعة عكاء من دسائس وأحابيل : ألا ماذا بدا لك منه يا جؤذر ؟... أيريد بي شراً ؟... هو من جرّ على سيدتك نسل شاه البلاء وما كنت لأتعرض لها بمساءة . ولكن النذل شاء انتزاعها مني، لا يحتشم، مع يقينه اني منها على هوى . فأبيت عليه ان يسلبني كنزي وآثرت موتها على رؤيتها في قبضة الزري ّ . وهل يلام عاشق على استمساكه بهواه ؟

فأبانت وقد شقّ عليها ان تعود الى صرح دير القمر بعد خلوه من سيدتها نسل شاه : عرفت من غرائب الطاغية يا مولاي ما أهاب بي الى الندم على ركوني اليه . فليس له دين ولا ذمام وهو يخادع ربه وسلطانه . وجلّ ما يطمع فيه ان يسود . ولقد انطوى لك على ضغينة جارفة ومن طبعه الغدر والتنكيل . فما يشتهي الا ان يقوّض بك السدة وله من استقراره بولاية صيداء اليد الطولى في النفاذ الى لبنان !

فوجم الشهابي . وما برح ذلك الواجم منذ درى باعتلاء الجزار منصة الولاية القائمة على تخوم لبنان . واستوضح : ألا ينفك يتعمد النيل مني يا جؤذر ؟

قالت بفورة من الاضطغان : نعم يا سعادة الأمير . فان اقامته من نسل شاه على حرمان، وقد أبيتها عليه، أضرمت فيه شهوة الانتقام وما كانت لتخبو . فاحذر ثورة حفائظه وهي تغلي فيه كمرجل على وشك الانفجار !

— أيجمح به ضميره الى سحقي ؟

– ما ينهد الى سوى القضاء عليك يا سعادة الأمير والختل من شيمته، واختلاس الارواح أشهى ما تصبو اليه نفسه اللقيطة . فما يطيق أحداً على هناء وصفاء كأن هؤلاء المتقلبين في الرخاء اعباء ثقال على كبده . فيشوقه ان يحصدهم جميعاً كي يمسي الكون برمته في حالك من البؤس ولا يطيب الزمن لسوى الجزار . وفي أعماق روح الرجل ميل الى التحطيم والتشويه كأنه يأبى ان تقوم لمخلوق قائمة . فإما ان يكون الأحياء دونه شكلاً ومقاماً وثروة ، وإما فلا أحياء !

فرضي عن تصويرها الجزّار . هذا هو الرابع بقلعة عكاء على متفاقم الكره والاستعلاء . واشتدت به الوهلة والجزار لا يهادنه . فالحرب المعلنة بينهما منذ مقتل نسل شاه لا تبرح متأججة الأوار . قال يخاطب جؤذر ويستكشف أحوال والي صيداء: وهل كنتِ بجانبه في « أفيون قره حصار » يا جؤذر ، وماذا كان منه فيها ؟

فأعلنت الوصيفة والغلّ يستشري في لبها: رافقته في جميع رحلاته يا صاحب السعادة وأقمت حيث أقام . ولقد سقط في « أفيون قره حصار » على أهل نسل شاه . فعرف الحاج نصرالله أباها ، وفيروز اختها ، وشقيقيها . وتزوج فيروز وهي أبهى من نسل شاه !

فهتف مدهوشاً : أبهى من نسل شاه ؟

– أبهى يا مولاي. ان في فيروز من اللدونة ما تتفوّق به على اختها الراحلة وقد ملكت الرقة ، والمواهة ، والحوَر . ونسل شاه ما خلت من هذه المفاتن ، الا ان فيروز جاوزت فيها المدى !

فصاح صيحة من لا يؤمن بان ثمة من تعلو نسل شاه في الجهارة: وماذا

كان ينقص نسل شاه من هذه الحلال يا لعينة ؟

قالت تستميله الى الاعجاب بامرأة والي صيداء: وددت لو تبصر فيروز يا مولاي ، اذاً لوافقتني على كونها تسمو شقيقتها . هي في جهارة الافق الصاحي في البكور وقد أوشكت الشمس ان تطلع . فما فيها غير ذهب ، وورد ، ونصاعة ، كأنها قطعة من غوالي الجنة . على ان الجزار ما يفتأ يحنّ الى نسل شاه وما تزوج الاخت الا لينتقم للفقيدة. فكن على وقاية من كيده أيها السيد المفدى !

فهاله ما يسقط اليه وقال : أيتزوج الجزار وهو المقتعد ذروة الخمسين ابنة في نداوة الربيع ؟... ألا ماذا أبقى الرخو الناب للفتيان ؟... وهل رضيت به فيروز ، وعلى مَ ؟... أتستوسل الى غرام من جفّ عوده ولم يبقَ فيه قطرة من صبابة ؟... إنكنّ لتحيّرنني انتنّ النساء !

فتأوهت. صدق الأمير. ماذا لقيت فيروز في الجزار الطاعن في الكهولة ، الصعب المراس ؟... قالت جؤذر وما أنكرت على نفسها كونها وفقت بين الزوجين : هي ليست وحدها في القلعة يا صاحب السعادة وثمة حفلٌ من الجواري، وعلى مقربة منهن اربعون مملوكاً معظمهم في رونق الشباب!

ففطن الى أمرٍ فيما تحدثه عن مجاورة الشباب للشباب واستفهم : وهل سلم الجوار من شوائب الاستهواء يا جؤذر؟... أما زلّت ببعض الجواري القدم حيال نضرة المماليك الفتيان وذبول بشرة الجزار ؟

فهزّت برأسها تقول: وهل لمخلوق ان يتنفس وأحمد باشا مرفوع الرأس؟.. لن تقع الفاحشة يا مولاي الا وقد غار والي صيداء في المهواة !

– واذا غاب أحمد باشا عن عكاء ؟

فأبانت بميل الى الاشتفاء : اذا غاب عنها يا مولاي فاعتمد عـلى نفرتي من الذميم وسأتولى بنفسي تنكيده. فأجمع بين المماليك والجواري واشهرها على البغيض حرباً تلتهمه نارها . ولكن هل له ان يبرح عكاء ؟

فقلب شفتيه كأنـه يقول : « من يـدري ؟ . . . فليس من أمر بعيد الاحتمال ! » . قالت جؤذر : ما ان ينزح عن القلعة حتى تقوم فيها القيامة وأنا من سوف يشعل اللهبة . أصبحت لا أشتهي سوى محو العاتي وساستعين على بغيتي بكل دسيسة . فدعا الوغد الى قطع لساني وأنا أثير في روعه ذكرى نسل شاه !

فقال الأمير يوسف متململاً مما يبدو له من شدة وقد تحرج الأمر وساءت الحال : وأنا ظهيرك على البغية يا جؤذر. فان يكن لا يطيب له الا ان يهدمني فان بي منه مثل ما به مني. وسوف تنصف الأيام أحدنا من الآخر. إبقي عندي ريثما تسنح لي النهزة فارشقه بك ونحاول معاً نسفه بما نملك من حيلة . فقد نوفق لخلع الكابوس المصور !

فهتفت بملء الصبوة الى القهر : أنا في قبضة مولاي قذيفة هدّامة، فليدمّر بي قلعة عكاء !

وجاءه من يلقي في مسمعه ان الشيخ سعداً يرجو المثول بين يديه فأقلقه المطلب . هل من حدث يستدعي المشورة ؟... وما كانت الأيام إلا تزجي اليه الصروف . فما ان ينجو من مشكل حتى تدهمه مشاكل وقد بات حيال سلسلة من المتاعب والصعاب تفاجئه منذ انقلب عليه الجزار . كأن هـذا اللاجىء اليه ، الظافر بعطفه ، وجه شؤم ناعب وما يفتأ يجرّه الى الدواهي فيكويه بجمرها

واستبقى جؤذر في حضرته كي تروي للشيخ سعد الخوري ما اطلعت عليه من أمر والي عكاء . فليقف مدبره على ما ينسج له المملوك أحمد باشا من الغواشي بعد كل ما نفحه به من جزيل الاحسان وقد أكرم وفادته ، وآثره على جميع قادته ، وفسح له الى المجد . قال بنبرة الموتور : وأين الشيخ سعد ؟

وأطل الشيخ الهرم بابتسامته المخضبة بالأنس مع غموض معناها. وانحنى بين يدي الأمير برأسه الأبيض ، وقلنسوته السوداء ، وجبته الفاحمة. فتطيَّر منه الشهابي وكاد يصيح به : « ليكن لون جبّتك بلون شعرك يا سعد ! ». غير انه لم يشأ ان يؤلمه بالكلام الواخز وهو يده وعقله .قال سعد الخوري وقد رفع هامته وما تزال تنتشر فيها البسمة الغامضة أبداً : ليس في الجو ما يهيب بنا الى الاغتباط يا مولاي الأمير . فالفتنة توشك ان تندلع والجنبلاطيون والنكديون جمعوا لها الوقود ولم يبق عليهم الا ان يشعلوها. شرارة واحدة تحرق لبنان وتلتهمنا !

فاتسعت عينا الشهابي هولاً . ماذا يقص عليه مدبره؟... قال سعد وهو يلمس في الأمير الشده : وفي طليعة الداعين الى الهياج والشغب أخواك الأميران افندي وسيد أحمد . وفي نيتهما ان يتوليا الأمر وان يقصياك عن الأريكة . واني لألمس في جميع هذه المساعي يد الجزار !

فخرج الأمير يوسف عن لعثمته وقد وضح له أمر أخويه وجلجل: افندي وسيد أحمد يلعبان بالنار؟... ألا ويلهما مني!... ماذا تسرد لي يا شيخ سعد؟

– يمضّني ان اروي لمولاي صاحب السعادة الواقع . فالأميران أخواك ينصران أعداءك عليك. وفي محاولتهما ما يؤذينا والناقمون علينا ينصرونهما

وهما ابنا أبيك . فالامارة وقد انتقلت اليهما لا تخرج عن موئلها . وربما كان من الحكمة ان نرحل عن دير القمر ونكتفي ببلاد جبيل !

فزعق وما كان ليدري ان الحالة بلغت من الحرج هذا الأمد : أنرحل عن دير القمر يا سعد؟...ويحك !...هل أصبحنا ضعافاً حتى لا نطيق الذود عن حمانا ؟... أأنزل عن مقعد الامارة وقد جاهدنا الشدائد في الاستواء عليه ؟... أتمزح ؟... ما عرفتك ممازحاً قبل الساعة . وانه لمزاح غريب هذا النعيق . أأبيح لسيد أحمد وافندي أن يتوليا الأمر في الشوف وأتيه في الفلوات جوّاب آفاق ؟

وامتقع لونه وارتجف . بماذا يحدثه سعد الخوري ؟... أما يروقه سوى ابلاغ المناعي؟... ألا تعساً لهذه الجبة السوداء وما تبطن الخير!...ووقف حياله سعد على استسلام لمشيئة القدر الطاغية وما انفك يبتسم بحكمة الرجل المستظهر على البلية بالصبر الجميل. فلا بد من الاذعان وهو اذعان موقوت تفرضه الساعة الخاذلة وجميع الأنصار تحوّلوا عن المناصرة . وتكلم سعد فقال : لا سبيل الى مجابهة التيار يا سعادة الأمير . فهو جارف وقد انصبّت فيه جميع السواقي . فما كان لأخويك الأميرين افندي وسيد أحمد أن يستأسدا لولا قوة غريبة عنا تعضدهما . وهي قوة الجزار . فلنفرّ من الزوبعة قبل ان تقتلعنا من جذوعنا ولنحرص فينا على بعض الحياة !

— أنفرّ يا سعد كالجبناء؟... والى أين ؟... ما عرفتك في مثل هذا اليأس الخانق . هل زلزلت بنا الأرض ووهنت أقدامنا فأمسينا عاجزين عن الوقوف ؟

فأجاب ابن الخوري صالح الرشماوي بنافذ رأيه وصادق خبرته : جيش

الجزار أضحى في مصب نهر الحمام في فوهة الشوف . وإني لأخشى أن يدهمنا في دير القمر ويعتقلنا . وما يكون منا وقد سقطنا في قبضة المنتقم الطاغية ؟

– هل أصبحوا هنا يا سعد ؟

– هنا يا سعادة الامير . وحامل الخبر بالباب . فهل لمولاي أن يسمع منه بنفسه النبأ ؟

فغلب عليه الهلع . طارت منه الامارة وقد سلبه اياها الجزار. هذا هو جزاؤه ممن التحفوا بثوبه ، وأكلوا زاده ، ونعموا بخيره . ولولاه لقضى الجزار نحبه جائعاً ، حافياً ، عرياناً . أطعمه وكساه فتشامخ وزها وامتدت يمينه الى وليّ نعمته يبتغي اقصاءه عن المرتبة والجاه . ولما اشتدّ ساعده رماني . وأبى أن يلين حيال المكر واللؤم والكفران بالجميل فهتف بسعد والارض تدور به ، والصداع يغلي فيه : لن أطرحها مني سلعة بخسة يا سعد ، بل سأدافع عنها بملء جهدي وطول يدي . أين رجالي ينحدرون الى نهر الحمام والمكان على مقربة منا ، ويصدّون الطامع فينا عن انتهاك حرمتنا ؟... أصبحت من الهائمين بالمجازفة حيال ذلك النغل الرجيم الثاوي بعكاء . فإما موت ، وإما حياة !

ودفع جنده الى النضال . فلن يهوي عن سدته رعديداً حقيراً وما برح ذا قدرة على الكفاح . وصاح بمن لديه من الكماة : عليهم ايها الشجعان !

وانطلقت الكتائب تلو الكتائب. وانتقل النصر من جانب الى جانب . وتجلت للأمير يوسف طلائع النكبة فعصرت كبده وأحسّ بضؤولة شأنه . فتّ في عضده في المغالبة ولم يبقَ عليه غير النزوح . فجلا عن دير القمر الى غزير مؤمناً بنفاد الحيلة وعتوّ القدر . من الشوف الى كسروان . انها

لرحلة غير طويلة ، بيد انها كاسفة ، دامغة . ولكن الشهابي مع انخذاله وجزعه لم ييأس وسعد أهاب به الى اتقاء الاعصار ريثما تسكن العاصفة . ولا محيد عن سكونها . وما عليه وقد تناءى عن مصادمة الزمن القهّار وليس في مقاومته جداء ؟... سيرقب الحين المؤاتي والليالي لا تتشابه في حلكتها. واعتلى اخواه السدة بأمر الجزار . فالحكم للاميرين سيد أحمد وافندي . من بيت أبي ضُربت . ومات الشيخ علي جنبلاط فأطلّ الامير يعزي بالراحل. وهي تعزية شاء بها التظاهر بكونه يتخلى من تلقاء نفسه عن المنصب الرفيع . بل ذهب فيها الى التباهي بكونه وحده جديراً بالامارة . ستعرفني متى جرّبتَ غيري . قال له سعد الخوري : «لندع الجزار يختبر أخويك في السدة وسيشفع عجزهما فينا.فيدعونا الغادر مكرهاً الى امتلاك العنان!». والأمير يوسف ركن الى المناصحة . ليختبر الجزار . فأي الفريقين يصلح للقبض على المقاليد ؟

وحشد الأمير في فسحة نبع الباروك أكابر اللبنانيين وعالنهم بنزوله عن مقعد الحكم . فليربع به أخواه افندي وسيد أحمد . قال : ليتوليا الأمر بما هما أهل له من سياسة وكياسة . أما أنا فاني لأعود مختاراً الى بلاد جبيل أشرف على شؤونها وأنا أميرها قبل أن أكون أمير الشوف !

وتنحى ولا بأس أن يبتعد عن هؤلاء النافرين منه وقد تكاثروا . فلا بد أن يذكره القوم عندما يتبينون استرخاء أخويه في تدبير الشؤون . وهو ابتعاد الموقن بان عودته مقدورة ، وبان الجزار نفسه مع شديد نقمته عليه سيلتمس منه الرجوع الى تسيير الدفة. فالاحتجاب موقوت ريثما تخمد النفرة وتتجلى الحاجة الماسة الى الصفيّ الندب . فيقبل عند ذاك الأمير يوسف

الى دير القمر ، عاصمته ، على تيه وخيلاء وليس للمهمة سواه وهو كافيها

واستقر بغزير يستريح وسعد الخوري يجتلي لون السياسة ومجراها ، وجؤذر تتحدث عن طباع الجزار الشاذة وهيامه بكل غريب ، وأبصار الجميع شاخصة الى دير القمر تنعم النظر في ما يبدي الأميران افندي وسيد احمد من جهد في الاضطلاع بالعبء وارضاء الجزار . قال سعد : وعداه باداء مائة الف قرش وبمنحه السيطرة المطلقة على جبل الشوف . فله فيه الأمر والنهي كأنه السيد المطلق وما هما من سوى الخدم والحشم . تباً لهما من أبلهين يتعطشان الى السيادة حتى على اطلال العزة التالدة!.. لقد باعاه وطنهما بأرخص الأثمان . أَمثل هذه المذلة بنى أبوهما الأمير ملحم ، وجدهما الأمير حيدر ، ومن سبقهما من المعنيين الأبرار ؟

واشتعل سعد ألماً . هدم الجزار منعة العرين وذهب بالصولة . فأي قدر بقي للامارة اللبنانية وقد استولى على عنانها والي صيداء ؟... وانطوى الشيخ سعد على حفيظة جائحة ودفع الأمير يوسف الى التحكك بأخويه . قال يحثه على المصادمة : ليس لنا أن نبيح لهما التقلب في مهاد الامن والدعة يا سعادة الأمير وإلا طال عهدهما . فان أصالة الرأي لتقدر علينا اقلاقهما وإظهار ضعفهما بما نثير في جبل الشوف من القلاقل والفتن !

والأمير يوسف نقم على أخويه افندي وسيد احمد ولم يتنكب عن الاخذ بمشورة مدبره . فليس له أن يؤيد من باعاه رخيصاً وهو ابن أبيهما . فأزالاه عن المنصب ليحتلا مقعده . ولمس في عملتهما الدناءة والشين . ولم ينم عنهما وكل ما بات يرجو أن يغض منهما . وأبصره مراراً من حوله يغور في سهوه ثم يفور حنقاً ويسقط لأخويه بالقول المهين العضوض . وما قتل الامراء

اللمعيون في البقاع أحد رجاله حتى التمس من محمد باشا العظم ، والي دمشق يومذاك ، أن يهب له الأمر في نواحي البقاع جمعاء لتأديب العابثين بقدره . وأجابه محمد باشا الى المشتهى فوثب الى هاتيك السهول الفساح يستولي على قرى اللمعيين ويبدي الشدة في الأخذ بالثأر . وجلُّ ما ينهد اليه اظهار ضلاعته ومعالنة خصومه بكونه ما يزال على صلابة عود وسعة جناح

وقسوته في التنكيل لفتت أخويه القابضين على مقود الامارة فرهبا مغبتها ، وأيقنا ان نفس الامير يوسف لا تنفك تحدثه بالعودة الى دير القمر. وتحرشا به لاخماد ناره بأن دفعا الجباة الى استيفاء الضرائب عما اقطعاه من ديار كسروان . فطرد الامير الجباة ووقعت الواقعة . فاستعدى الامير يوسف على أخويه بني رعد أصحاب الضنية ، وبني مرعب أصحاب عكار . فاستظهرا عليه بالجزار . ولم يتقاعد الجزار عن التلبية وقد هفا الى النجدة مزمجراً يعالن امرأته فيروز وأباها الحاج نصر الله بعزمه على اجتثاث المشاغب . قال وهو يركب البحر الى صيداء فبيروت : سأجيئكما به حيّاً او ميتاً لتشتفيا منه بما يطفىء فيكما لهبة الانتقام. حانت ساعة الجبان. أيعصيني في ما اقررت وأنا رب الأمر في الشوف ، بل في لبنان على مداه ؟

واستقر ببيروت ودفع قواته الى جبيل يقودها سيد احمد لتدويخ الأمير يوسف واستباحة حرزه . ولكن رجال الأمير صانوا المعقل من الدمار وحاصروا فيه يأبون على جنود أحمد باشا الانسلال اليه . وخلت دير القمر من حاكميها والامير افندي لحق بأخيه سيد احمد الى النزال وثوى وجماعته بالذوق . فانتهز الامير يوسف السانحة وهبَّ الى دير القمر للرسوخ فيها . بيد انه لم يدخلها ، بل أقام قبالتها في بعقلين يتحين الآزفة لاستعادة قاعدته

وسؤدده . ودرى بأمره الجزار فصاح بصوت فيه جلجلة وزئير : لأحرقنّه وأنثرنّه رماداً !

لكن سعداً تدخل في الأوان . وسعد يقظان أبداً وثمة شأنه ومجده وليس لرجل السياسة ان يهجع وإلا طوته الغفلة . فهرع يخشخش بالذهب هاتفاً : ما عجز عنه الاميران افندي وسيد احمد نحن نتولى القيام به . بايعا على اداء مائة الف قرش الى سعادة الوالي احمد باشا الجزار ونحن نبايعه على المبلغ . إلا انه مال سيتقاضاه برّاقاً طنّاناً لا وعداً خالباً كذوباً !

فاطرق الجزار . أيؤيد سعداً في ما يعرض ويتشهّى ، أم يرذله ؟... وما ندّ عنه ما صارح به فيروز وأباها، بل ما صارح به نفسه وقد نزع الى البطش بالشهابي ساعة يظفر به. وما نسي ما لقي من غدر الأمير ومن مكر سعد الخوري . على ان ثمة مائة الف قرش تلمع كأنها وجه الصباح ، فهل يتخلى عنها المملوك احمد الجزار لأجل عهد قطع ؟

واستفاق فيه جشعه . وجال في ذهنه ما عانى في زمنه الأول من املاق، وما يضطر إليه من بذل وهو الوالي الوافر الجند، الناهد الى البذخ والترف . وقال في نفسه : ومن لي في لبنان غير الأمير يوسف أخلع عليه الأمر؟... اني لافحص عن رجل سواه ألقي إليه زمام لبنان فلا تقع عليه عيني . هو وحده من أركن إليه وقد بلوت أخويه فخيّباني . ولكن عهدي يفضحني ، ماذا أفعل بعهدي ؟

وترجح طويلاً بين العاطفة والمصلحة . أيوافق سعداً على الشهوة أم ينبذه ؟... وتمثل سحنة فيروز وهي تلمّ بما أقدم عليه من استهانة بروح أختها ، بل تمثل خيال نسل شاه يتلظى غضباً وتبكيتاً . غير ان بريق الذهب كسف في ضمير

أحمد باشا وضاعة المفروض فجنح الى الأستمتاع بالنضار . رؤية المال أشهى من منظر الدم . وإذا خفر العهد فكم من عهود تطوى كالرقاع المهلهلة وترقد في الزوايا تتوسد الاهمال

وأجاز ما منع . ورجع في سنة ١٧٧٨ الأمير يوسف الى دير القمر في مقابل مائة ألف قرش يؤديها الى والي صيداء . أما الذمة ، فوارحمة الله عليها ، إن هي الا جمرة تنطفىء في حوض دهاق !

٧

الصرخة قائمة في حصن عكاء والجزار في بلبال . أوجع عفوه عن الأمير يوسف وإعادته إياه الى منصب الامارة امرأته فيروز فندت به وعيّرته خفر الذمام . قالت وهي في ثورة عليه مع يقينها بكرهه للشذوذ والعصيان : أنت رجل لا قدر لديه للكرامات . فالمال يبدد فيك كل عزم ويمحو من نفسك كل اخلاص . فأين ما أذعت في مسامعنا من مواثيق وكيف تعتذر عن توانيك في انصاف نسل شاه ؟ ... أهذا هو مقدار الوفاء فيك لمن وقفوا عليك الأرواح ؟

وتمادت فيروز في صخبها والجزار الغضوب لا ينفك سادراً في إطراقه وقد تجلى له انه أساء الى الحفاظ . وتعجب مماليكه وحشمه من سكوته وما تعوّد الظهور ملتوياً خانعاً . وجنح الى التكفير عن زلته بما يضمن له عطف زوجته الملتهبة غيظاً ونفرة . فقال بلهجة لينة لم يسمعها قبل الساعة منه أعوانه وهو الجيّاش النبرة سرمداً : غرّر بي ابليس يا فيروز ولم يكن عليّ أن أنخدع بالمال . ولكنها الحاجة وليس لي أن أشيح عن جنودي في اعالتهم وإلا نفروا عني وغدروا بي . وهو لسان سعد الخوري المعسول البيان وأنت تجهلين سعداً . فلو سمعته لآمنت بوقع السحر وقد طغى سعد بدهائه على مقوله وأداره لهواه . فيندى كأنه العشب المخضوضر ، ويخشوشن كأنه الساقية المزبدة وليس يضيق به أن يلبس لكل حالة لبوسها . على أنه يخلب حتى في إزباده ، ويخدع من يحسب نفسه في مناعة من الاستهواء . ولقد خدعني مع وفرة يقظتي وليس يخفى عليك اني ممن لا تظفر بهم مداجاة . على أني سأنتظر الفرصة

لتهديم ما بنيت على خلل وعيب . فلا تشخني في النيل مني . إذا اضطجع الشهابي اليوم في المهد الوثير فسوف يقع في العاجل على رهيف الأسنّة ومودة الجزار سريعة الزوال !

وقهقه سيد عكاء . وظهرت في قهقهته نفسه الطفحى بالغلّ والمواربة والمبادرة الى المحق . وخشيت فيروز هذه القهقهة ووضحت لها بها روح زوجها العابث بكل ولاء في سبيل نفعه وإرواء ميله الى الايذاء . على أنها وقد أفاضت بما في صدرها من تنديد أبت أن تنثني ولا بأس أن يقتلها أحمد باشا . فقالت بصخبها الهادر : أما أن تكون مودتك جوفاء فمما لم يبق فيه عندي مراء وهي أشبه بالدخان . ما أن تنعقد حتى تتلاشى . ولو كنت فيها على ثبات لوجأت عنق الشهابي وقد ضربك في صميمك ، وحرمك الاستمتاع بنبضة الولوع . ألا تشعر بأنه استهان بك وهو يعدك بنسل شاه ثم يفتك بها لئلا تصير إليك ؟... يدمي مهجتي أن أراك تنوء بالضيم !

وبالغت في احراجه . فخرج عن استكانته وأضحى المخطىء المقرّ بهفوته ذئباً كاشر الناب لا يبالي الزلل والإثم . فالزوج الكسير الجناح بات قذيفة تتفجر . وانتضى فأسه وهتف بفيروز : والله ، لولا شغفي بك ، واكرام روح نسل شاه ، لهشمتك وقد كويت مهجتي بالخنى . آمنت بكوني أخطأت فدعيني أتوفر على محو إساءتي ولست دون الفلاح في السعي المبرور . أفلا يروقك أن تشاهدي هنا ، بعينيك ، رأس الأمير يوسف مغلّفاً بدمه ؟... سأحصده كالسنبلة بجناحها المنجل الحادّ ، فكفّي عن إيلامي !

وتطاير رشاش فمه فيما يتواثب سخطه حمماً متوهجة . قالت فيروز لا تهيّب نقمته : هذا كلامٌ طال ترديدك إياه وما تكاد تبصر عطايا الأمير يوسف

حتى تنساه كأنك لا تهيم بسوى الدينار !

فأوشكت الفأس أن تهوي فتقتطع هامة فيروز . الا ان أحد الخصيان فتح الباب ينبىء الجزار بان حامل بريد استانبول بدا في القلعة يستأذن على سعادة الوالي في أمر خطير . فارتدّ أحمد باشا الى الخصيّ يصبّ عليه نقمته . وضربه بالفأس فصلم أذنه وهو على مستفيض الزئير مدمدماً على الخصيّ البائس : من أباح لك دخول هذا المكان أيها الجاسوس الوغد ؟... أتتنصت بالباب؟... انك لحسن الطالع وقد وهبت لك الحياة مع ان عقابك الموت الهادم . أتدخل عليّ دون أن أجيز لك المثول بين يديّ ؟... أين حامل البريد هذا ؟

وبرح الحجرة مبرطماً وفيروز تنظر وتسمع وهي ترتعد. وما ارتعدت خوفاً بل نفرة . انها لعيش قبيح مساكنة الجزار . واندلعت في أخت نسل شاه أوتارها وكل إخلاص فيها لهذا المتقلقل الذمة تصدع . ستطعنه في كبده وقد جنح عن الانتقام لأختها . والتفتت الى الخصيّ المصلوم الأذن تقول له : تعال اقترب مني . هذا الدم الفائر منك لن يذهب هدراً . كن عوني على الغاشم فنستلّ روحه . إن يكن جزاراً فلسنا نعاجاً . سوف يلقى جزاء ما يستنسر فيه من طغيان !

وغلت فيها سخائمها . ودنا منها الخصيّ يقول وهو يتلوّى ألماً ويطلق الدمع : ما ذنبي ، ما ذنبي ؟

فهتفت فيروز : وهل لك أن تبحث عن ذنب اقترفت حين ينزل بك جور هذا العاتي ؟... انه ليقضي على الأبرياء ويعفو عن المجرمين . بل هو يطوي جناحيه ازاء القوي ويستأسد حيال الضعيف . لاهدمنّ فيه عجبه وعسفه . ألا ما اسمك ؟... ما اسمك ؟

فأجاب الخصيّ وما انفك يتظلم ويلتقط بمنديله الدم السائل من أذنه : اسمي أدهم ، عبد مولاتي الأمين !

فقالت بحزم صادع : وستكون يدي في القضاء على الطاغية يا أدهم وليس لمثل هذا الباغي ان يسود . تعال اليّ ساعة يروقك أن تبدو في حضرتي ولا تحجم عن تنظيم كل مكيدة تذهب بالجزار ولك مطلق تأييدي في نسج الأحابيل . نفسي كرهت هذا المتجبر العنيد وليس يروقه إلا أن يغوص في الدم ويلتهم الذهب عابثاً بالذمة والوفاء . ما ندمت على سوى ركوني إليه وهو ممن لا يؤتمنون في ثقة ولا يؤنس إليهم في مخالصة !

وكشفت عن نياتها .امرأة الجزار من أعدائه .قال أدهم آغا الخصيّ والحقد يتواثب فيه : وأنا في خدمة مولاتي . سيذوق أحمد باشا الهول . فإن للظلم حداً لا تحمد فيه المجاوزة. سأكون في عون سيدتي المكرمة بما تطمئن إليه !

واندفع طليق العنان في الكيد لسيد عكاء . هذا الاستخفاف بالناس طال فيه الأمد . وان يكن الأحياء بأجمعهم عبدان الجزار فمن حق العبد أن يتنفس وأن يسلم من الأذى . وهو مما لا يتسع له إدراك أحمد باشا . ولم يكن أدهم آغا وحده ذلك المتذمر من عنف مولاه وقد ضمت القلعة عدداً وافراً من المماليك والخصيان المكتوين بالحيف والمجلجلين بالكره المستعر في حناياهم . وأدهم آغا التفت الى هؤلاء في سعيه لاشعال النار واهتدى فيهم الى تربة خصبة لا تضنّ عليه بالعطاء

وفيروز انقلبت الى من تسكن اليهن من الجواري تحرضهن على الصد والجفاء . لن ينعم الجزار بمودتهن ما دام ذلك المتجرىء على سيدتهن فيروز وهي وجه نسائه ، وعنوان الروعة في تلك البقعة الفسيحة من الشرق .

وأحسّ الوالي الفطين باكفهرار الجو ففزع الى الحاج نصرالله ، والد فيروز ، يستغيث به من دلال ذات الجهارة المثلى ، قائلًا بمرارة جيّاشة : أتريد لي الهضيمة والنكد يا حاج نصرالله؟... فيروز لا تلتفت اليّ ولا تهب لي منها ما يجلو عني اللهفة . فكلما دنوت إليها باعدتْ في الفرار كأني شبح الموت !

والحاج نصرالله درى بما كان من الجزار في الأمير يوسف شهاب . وغاظه ان يعود قاتل نسل شاه الى مكانه من الحكم بادي العزة، موفور الاكرام، مع كل ما خضد من شهوة أحمد الجزار ومن جنوحه، ومع كل ما استفاض به أحمد باشا من معاهدة على اطاحة مانع المتعة ، ومذلّ الناصية . قال يوضح لسعادة الوالي صدوفه عن انجاز الوعد : فيروز عاتبة على احمد باشا لقعوده عن الوفاء . فما أقبلت الى عكاء لسوى الانتقام لاختها فضلًا عن حبها لزوجها المعظم . فأين أضحى هذا الانتقام وسعادتك كافأت القاضي على ابنتنا بالمنصب المنيف وبالخلعة السنية ؟

فهاله ان يفجأه التعريض به من كل ناحية . وأعلن وهو يقرّ في أعماق نفسه بكونه أساء : لا أرى فيكم من درى بما أنوي يا حاج نصرالله . لست أنكر اني رفعت الوغد الى حيث لا يحق له ان يبلغ من سمو بعدما أبحته للتراب . غير اني رفعته كي اجيد خفضه وكي يذهب لبطشه به بعيد الصدى . فاذا ما أرديته وهو عاطل من الامارة فسوف يقال عني اني قضيت على رجل لا حول له . أما اذا فتكت به وقد اعتلى الذروة فستتداول الألسن النبأ باكبار وخشية ، ويشيع عن الجزار انه لا يبالي الجاه والمنصب . فليس لمن يتنمّر عليه الا ان يمد عنقه للسيف . والأمير يوسف سيمدّ عنقه لسيف الجزار ، فما يحدو فيروز على الحرد والنفار ؟

فاستفهم الحاج نصرالله : أتميل الى سحقه بعد ترقيته الى سدة الحكم ؟

فأجاب بقوة المضطغن الهازىء بخصمه : سأدحرجه عن أريكته كما تدحرج يمناك صخرة من أعلى الجبل الى قعر الوادي ، فيتناثر شظايا لا تجبرها صياغة مهما أُوتيت من براعة السبك . وما عليّ وأنا استدرّه فانتزع منه الأموال بلا حساب ريثما أقع على من يزيد عليه في المنحة ؟... هل تصدّقني يا حاج نصرالله اذا عالنتك أن لبنان يخلو من الرجال وما وقعت فيه على من يعلو الأمير يوسف في الفهم مع بعيد غباوة صاحبنا المبجّل؟... كلهم دونه. ولقد خبرت أخويه فراعني عجزهما . وليس لي الا ان اداري الأعور حتى أظفر بالصحيح العينين . وعند ذاك ننقذ أنفسنا من هـذا الناظر الى دنياه بعين واحدة . أفما تصبر فيروز على من يريد لها تحقيق المراد ؟ ... بلوغ المنى خطوة فخطوة يا حاج نصرالله !

ولكن الحاج نصرالله أضحى كابنته في اساءة الظن بالجزار . فمن يعبث بعهده في مقابل حفنة من الأصفر الغرّار لن يستقيم له اعوجاج . قال والد فيروز يبدي ارتيابه ببلوغ اللبّانة : أنى لابنتي ان تقنع بكونك ذلك الجادّ في انالتنا الارب والمال يذهب بكل ما ننصب من فخاخ الانتقام؟.. فالأمير يوسف في قبضة يدك ، وليس لك الا ان تضغط كي تعصره وتقضي عليه ، فهلا فعلت ؟... انك لتدعونا الى الصبر ، وسنصبر . ولكننا نخاف ان يعاد تمثيل الدور نفسه . فلا توشك ان تصرع المجرم حتى يلوّح لك بصرّة الدنانير فتهون فيك كل نقمة عليه !

وتكلم الحاج نصرالله بجرأة لا ترهب فأس الجزار . واستكبر أحمد باشا هذه الاستطالة عليه فومض ناظراه بالشر ودغدغت يده مقبض فأسه . الا

انه تهيّب فيروز زوجته البليلة الحسن ، وما غاب عنه طيف نسل شاه ، فتمالك على قحة حميّه وقال وهو يبلع ريقه: لن يطول عهد الشهابي بالامارة يا حاج نصرالله . فهل يروقك ان أعود فاحرض عليه أخويه كي يهدما به مقعده ويغتالاه ؟

فأعلن والد فيروز بشدة : وهو ما لا غنية لك عنه لخطب مودة ابنتي. فليست تطيق فيروز ان تبصر قاتل اختها يربع بسدته كأن يديه لم تتلطخا بدم نسل شاه !

فثارت بالجزار حفائظه وهو يسمع باسم تلك الراقدة في مدفن القبة رقدتها الأخيرة. وجلجل بفائر السخط نادماً على اعادة الأمير يوسف الى سابق مجده: لن تكون فيروز الا راضية يا حاج نصرالله . ففي غد سأطلق الى خصوم الزنديق من يغريهم به. دمه حلال لهم. فما أنا بالعاجز عن الواهي العود !

وصاح بحاجبه بصوته القاسي الرهيف : أين المملوك سليم الكبير يا ابن الخالعة الذمام ؟

وما تلكأ الحاجب عن التلبية والا فالويل له من ضربة فأس تقضي عليه . وبدا المملوك سليم ، رفيق الرحلة الى دير القمر ، يلوي عنقه في حضرة مولاه وفي صدره نفرة تتلظى من هذا المتقلب في آرائه وما يقيم على هو . فصاح به أحمد باشا : عليك ان ترجع يا سليم فتنسف ما شيدنا !

فاستوضح بصوت خافت الا انه واضح : أرجع الى أين يا سعادة الوالي ؟

– الى دير القمر فتحرّض الأخوين على اخيهما !

فابتسم سليم ابتسامة ما خلت من التهكم وقال: أنحرضهما عليه ثم ننصره عليهما يا مولاي ؟. . . أخشى ان لا يؤمنا بي وأنا أدعوهما الى نقض

عهدهما لمن غفر لهما ثورتهما عليه وفسح لهما بجانبه. فاذا كنت لا تعضدهما على مطلق المدى فلا تحفزني الى ختلهما عن أنفسهما وما كنت بالمخادع المضلل!

فغضب الجزار غضبة رفعته عن أريكته في انتفاضة أشبه بشواظ النار. ووثب على مملوكه يمسك بناصيته ويهزه بها وقد رام الاشتفاء به منه ومن فيروز ومن أبيها صارخاً: أتعيّرني الرجرجة في سياستي يا ابن الفاحشة؟.. ألا من أنت سوى عبدي، وماذا ترى في السياسة غير حالك الظلام؟... والله، إن قحتك لتبيح لي دمك. وكنت أفرغ هذا القائم بين كتفيك لولا بعض حرمة من رأفة. تسلق على الفور مشارف دير القمر واضرم الفتنة. ليرجع الأخوان الى الاقلاق ولهما ذمتي وما كنت لها خافراً. واذا أفلحت في تفجير الضغائن فسأجيئك من استانبول بلقب «باشا» وارفعك الى رتبة سنيّة. وبعد اسبوع واحد اريد ان أبصرك في عكاء وقد أنجزت المهمة، والا فلتبكك رحم قذفت بك الى النور!

واحتدم الغيظ في أحمد باشا وتطاير وعيده شرراً لهوماً. واضطر المملوك سليم الى الامتثال والا فالفأس مسنونة الشفرة للتهشيم. وما تنكب عن مناداة أبي الموت كي يرافقه. قال يمازحه وفي نفسه جراح: أنت شريكي في المحن يا أبا الموت، فقم بنا الى شفاء حزازات هذا المجهول الطبع وليس من يعرف له شهوة ولا لوناً. فيرضى عنك ثم يغضب عليك. وقد يفتك بك وهو يضمك الى صدره ضمة الرفق والحنان!

وما صان الجزار من المطاعن الشداد. فقال فيه انه مجنون وليس له ثبات في رأي، وان من الظلم ان توليه الدولة العثمانية ولاية ذات قدر كولاية صيداء وهو المتقلقل الرغبات، المتعدد النزوات. على ان المملوك

سليماً لم يتردد في انجاز المفروض . فبلغ دير القمر والليل يغمرها بجلبابه الأسفع وبسكونه الهنيء . وطرق باب الأمير افندي وما يجهله . وفتح له رجال الأمير على وهلة وقد عرفوه . وهفوا الى مولاهم ينبئونه بخبر الزيارة المفاجئة : سليم بك ، مملوك احمد باشا الجزار ، يلتمس مرأى سيدنا !

فوثب الأمير افندي الى لقاء الرسول وفي نفسه خلجات زواخر بالأمل. هل عاد الجزار الى التحريض تمهيداً الى الحكم؟...وفرك الأمير عينيه وهو يبصر المملوك سليماً . أهذا هو بعينه مملوك أحمد باشا ؟... ورحب ما أمكنه الترحيب . واستوضح عن الصحة الغاليـة وعن الخاطر الكريم . وأبدى الخضوع والتأهب للقيام بكل خدمة ارضاء لسعادة «افندينا» الوالي المعظم . فابتسم المملوك وقال : « افندينا » يدعو الى إعادة الكرة. فالأمير يوسف ليس من تطمئن اليه المشيئة العلية . فقوّضْ الصرح المشيد واقبض على الأعنة وسيد عكاء في غوثك لا يحيد عن التأييد !

فاستبشر افندي بما يسقط اليه والرجاوة لا ترجح هذا القدر من السمو. على انه ما نسي ما عانى من انقلاب أحمد باشا عليه فقال ببسمة يساورها الريب : ولكن سعادة أحمد باشا الجزار وعد بالأمس ثم تراجع عن المخالصة ، مع ان الأمير يوسف لم يزد على ما عاهدنا عليه من بذل !

فقال المملوك سليم وعنده من غرائب سيده صـادق الخبر : لن يحجم سعادة الوالي في هذه المرة عن المناصرة وقد آمن بنبل الطوية . فالأمير يوسف ليس ذلك الحليف الأمين المخبر وما تبرح الضغينة على الجزار بادية الأثر في مساعيه جمعاء . واذا مـا استطعت ان تخلع سلطته بمعونة أخيك سيد أحمد فالأمر لكما في لبنان !

فأوضح الأمير افندي باستعلاء : ليس من الصعب ان نزيحه عن سدته وما يزال خصوم الأمس بالمرصاد . فمن ساروا تحت لوائنا لا يبرحون على أهبة للنجدة . واذا أبدى بعضهم الموالاة للأمير يوسف فما يزدلفون اليه لسوى النجاة من انتقامه وليس يعفّ عن دناءة في قهر مناوئيه . على ان هؤلاء ما ان يدروا باشتداد ساعدنا حتى ينبذوه ويقبلوا الينا في كسر شوكته وقد ضاقوا بما احتملو من صلفه ، ومن سوء تدبيره . فزاد في الضرائب، وفي الفظائع ، حتى شكا الصخر مرارة العيش وطغيان الحاكم المستبد !

وأفاض بسرد ما لجّ فيه أخوه الامير يوسف من جور فاضح ماحق، وبما سعى المناوئون للوقوف به عنه . قال يذيع المساوىء : فرض خمسة قروش على اوقية بزر الحرير فأوعزنا الى المشايخ الجنبلاطيين كي يهيّجوا عليه الدهماء ففعلوا . واحتشد القوم في ضهور السمقانية يهددون بالهجوم على دير القمر ، وخلع الامير ، والفتك بمدبره سعد الخوري ليقينهم بأن سعداً علة العلل في هذه الامارة الشقية بمثله . واذا انضم اليه النكديون فما زال فيهم من ينافره وقد استولى على أموالهم ليؤدي الى سعادة والي صيداء ما بايعه عليه من بدل الحكم . فالمائة الالف اقتنصها منهم فأضمروا له الحقد وأقاموا يترصدون السوانح للاقلاق . وهكذا يمشي الجميع في صفنا اذا ما أطلق لنا احمد باشا يدنا في التدبير !

فهتف المملوك سليم : لأيديكما أن تمتد على مداها يا سعادة الأمير . نحن براء من دم أخيك القبيح السريرة !

فأعلن الامير افندي بمضاء : اذن لا رحم الله أخي يوسف . هل لي ان أنادي اليّ سيد احمد كي يقع في وعيه هذا البيان الرشيد ؟

– افعل ، افعل يا سعادة الامير !

وسيد احمد أطربه ما يذيع فيه رسول الجزار فترنح ثملًا . قال : ما نبتغي سوى درء الويل . ولبنان في ويل ما دام يسوسه أخي يوسف بارشاد سعد الخوري . فما سعد غير نفثة شرّ في هذه الامارة وقد أفسد صحيحها ، وشوّه أديمها ، وطمس عنوانها . ولا سبيل الى استعادة مجدها بسوى القضاء على مانع الرغـد وماحي الخير . فلولاه لظل لبنان في نجوة من الدواهي والعراقيل !

فاستفهم رسول والي صيداء بحدة : وماذا ترقبون اذاً كي تثوروا ما دمتم في هذه الشدة وليس لأنفاسكم ان تبلغ الامد ؟

– نرقب اشارة سعادة الوالي !

– الاشارة جئت أبديها . فدمّروا وأبيدوا ويدنا بيدكم حتى المنتهى . الله مع الجماعة وليس للكثرة ان تخزى !

فنفر الاميران حثيثاً الى الجنبلاطيين يضعان واياهم رسم الغزوة . سيشنون الغارة على الامير يوسف ويسملون عينيه ويقصونه عن المنصب العالي . ويبطشون بسعد ويودون بالنكديين وليسوا يأمنون جانبهم . الا انهم يستميلون هؤلاء اليهم قبل نسفهم ليستعدوهم على الفتنة ، حتى اذا ما أطاحوا الامير ومدبره عادوا الى النكديين يذيقونهم الحتوف .

ونادوا اليهم كليباً النكدي يعرضون عليه ما اقرّوا ويستظهرون به على الجائحة . فأعلن الشيخ كليب بحماسة المؤيد بسمعه وبصره وكل حاسة فيه : ولكني أمشي في الطليعة الى محق الغـاشم . أنا وقومي جميعاً في نظيرة المنقذين !

غير ان الشيخ كليباً يخاتلهم كما يخاتلونه . فالأميران افندي وسيد احمد لم يخلصا له يوم حالفهما على أخيهما الامير يوسف وساعدهما على ابعاده الى غزير . وما سها عنه ان عليه لسعد الخوري ديناً ولولا سعد لم يسلم من غضب الرابع بسدة الامارة وقد مال الى نفيه لانصرافه الى معاضدة المشاغبين. وفي مقابل هذا الجميل أطلع الشيخ النكدي سعداً على ما يحاك للامير يوسف من شبكة قانصة . قال : هم يشدّون بي اليهم للمناكرة يا شيخ سعد وأنا ما أفتأ اذكر المعروف . فليكن على حذر سعادة الامير !

فبهت سعد . هل عادت العقرب الى لدغاتها ؟... ودخل والشيخ كليباً على الامير يوسف يقول بوارف المضض : لم ينجع الحلم في ذوي الألباب المراض يا صاحب السعادة . رجع المناكيد الى مشاينهم يحرجوننا بها !

ففتح الامير يوسف عينين مبغوتتين واستفهم وهو يبصر في حضرته سعداً وكليباً، ومنظرهما ، ومنطق مستشاره ، يدلانه على كون الغواشي في وعيد : ومن هم المراض الالباب يا سعد ، هل لي أن أدري ؟

– هم من عفوت عنهم يا مولاي وبسطت عليهم جناحيك غافراً لهم جرائهم على حماك !

فتطاير شرر النقمة من باصرتيه وهدر : أَتحدثني عن افندي وسيد احمد ورهطهما يا سعد ؟

– عنهم أتحدث يا مولاي. فقد عادوا الى مفاسدهم واتفقوا على الغدر بنا !

فلم يشأ التصديق. محال . لن ينقلب عليه أخواه وقد أقامهما منه بمأمن من العقاب . فما اقتصّ منهما ولا رذلهما ، بل أكرمهما وأجرى عليهما عفوه وخيره . أيكون الاقرار بالفضل الدس والاستئصال ؟... وظل لا

يؤمن . فأعلن سعد : ولكن شاهدنا قريب منا يا مولاي . فلن نتعب في الاهتداء اليه وهو الشيخ كليب نفسه . ألا حدثنا بما تعلم يا شيخ كليب ليدرك سعادة الامير ما ينسج له الآثمون من أشراك !

فحدج الأمير كليباً بعين ثاقبة كأنه يغير على داخلة هذا المتحفز للبيان الناخع ملحّاً في نشر مطاويها . وتكلم الشيخ كليب العريض العمامة ، الوارف العباءة ، الوقور الطلعة ، فقال : ما نطق الشيخ سعد بسوى الحق الجليّ يا صاحب السعادة . اعداؤك بالأمس أرادوني على ممالأتهم عليك فأوهمتهم اني أعضدهم في المحاولة . الا ان انكار حسن الصنيع ذلة وما كان لي ان أجحد يدك البيضاء عليّ وقد عفوت عني ، وأبحت لي الثواء بأرض قومي . فرويت للشيخ سعد ما يدبر الكافرون بالنعمة من شر وسفال وهم يسعون لابعادك عن صرحك ، ولاغتيال الشيخ سعد ، وللاستئثار بالحكم . فدعاني حضرة الشيخ لابلاغك الامر بنفسي فلم أتردد . فالنيات غير سليمة يا مولاي الامير !

فهدر الشهابي وأوتاره تفور : أتقسم على انك تذيع حقاً يا شيخ كليب ؟

– ما اذيع غير الحق قسماً برب السماء يا صاحب السعادة . ليكن رأس كليب أبي نكد مضرباً لحسامك اذا تشدقت بالبهتان !

فتعجب الأمير من جسارة أخويه أفندي وسيد أحمد عليه بعد كل ما شملهما به من حلم مديد . وقال بمستطير الغيظ : وهل أقدما على هذا الشين ؟... ألا يخجلان مني ؟... على اني لا ازال أرتاب بما أعي . ربما خدعتك أذناك يا شيخ كليب . فما هو دليلك على صدقك ؟... أما من دليل لديك ؟... لا أزال أسمع أفندي وسيد أحمد يعالناني الطاعة وينحنيان في الاذعان حتى

لرفة جفني ، فهل يواربان ليجيدا المخادعة ؟... والله ، لانتقمن من وغادتهما بما تجري به الأمثال السائرة في بلاغة التنكيل . إيه يا شيخ كليب ، هات برهانك . نحن قوم نؤمن بالآيات الصحاح !

فلم يجهد الشيخ كليب في الابانة جهده وليس يمخرق ولا يبتدع . قال : الدليل ملموس يا سعادة الأمير . اتفقنا في هذه الليلة على اداء يمين الوفاء في مقام سيدة التلة بجانب هذا الصرح . فيقسم كل منا على الثبات في التنكيد والشغب . وإذا ما أوفد مولاي رجاله يكمنون لنا في باب المعبد قبضوا علينا واحداً واحداً !

فاضطرب الأمير وزمجر : أعلى هذا اتفقتم يا شيخ كليب ؟... ويحك !

– نعم يا مولاي . اتفقنا على اداء اليمين . غير ان كليباً رأى ان يبوح لسعادة الأمير بالسر وفاء للفضل الراسي في العنق . فليس له أن ينسى الصنيع النبيل !

فاستوضح الأمير ولم يبرح على شك في ما يسقط إليه كأن الأمر يعدو الظن : أتقول اني اقبض الليلة عليهم واحداً واحداً في باب المزار ؟

– سيهوون بين يديك كالزرازير المكسورة الأجنحة يا مولاي !

– وإذا لم أتبين الصدق في الرواية يا شيخ كليب ؟

– ما أزال على قولي بقطع رأسي يا سعادة الأمير !

فاشتد الاضطراب بالأمير يوسف وهاله أن يلقى ممن عفا عنهما الختل والنفاق . وصاح بمدبره الشيخ سعد : ليكمن لهما رجالنا بباب المعبد يا سعد وليسوقوهما إليّ ذليلين محتقرين . سوف يرى الوغدان ما يصيبهما من نقمتي وبطشي !

وارتجف طويلاً حتى لم يكن يقوى على الخطو لفرط ارتعاشه . وأبى على

الجميع المثول بين يديه . فليس لسوى مدبره وقائد جنده أن يقفا في حضرته . وما انتشرت العتمة ، واسترسلت دير القمر الى الهجوع ، حتى كان فوج من الجند يختبىء في الفحمة السائدة وراء أسوار المزار . ولدى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل علا وقع اقدام بباب المعبد . وأضيء مشعل . وارتفع صفير . وعلت صيحة بلهجة الأمر القاطع : عليهم !

ووثب عشرات من الجند على الموكب المذعور ، الممعن في الهرب ، وأمسكوا الأمير أفندي . أما الأمير سيد أحمد فتبطن الظلام وتغلّل في الأزقة والحقول ونجا . وقاد الجند الأمير أفندي الى أخيه رب الصرح المنتظر في صدر ديوانه ظهور أخويه اللاعبين بالنار . وما استطاع الجلوس وقد عزّ عليه الاستقرار بمقعد وهو الجائش الغليان

وهفا إليه أحد رجاله يجاهره بالنبأ معلناً: سقط الأمير أفندي بين أيدينا يا سعادة الأمير ، أما سيد أحمد فقد أفلت منا ؟

فهاله أن تصدق رواية الشيخ كليب وهدر : أأبحتم لذلك المحتال مجال الهرب ؟... انكم لاغبياء . ولكن أين هذا اللئيم أفندي ؟

فما لبث ان أطلّ. ووقف الاخوان بعضهما ازاء بعض والحفائظ تتواثب في الصدرين . هذا سيد الموقف وذاك مقبوض عليه بجرم الخيانة والغدر . حاكم مرفوع الجبين ، مسنون النصلة ، محتدم اللب ، وآثم محطم السلاح ، كليل الهمة ، ملتوي العنق . وجفّ حنان الأخوّة في خلجات المنازع . هذان عدوان لا اخوان وقد تناسيا وشائج القربى . وزمجر الأمير يوسف وكأنه نمر جوعان حيال فريسة طيبة المأكل تعاند في الاستسلام : أأنت ابن الأمير ملحم أيها النذل ؟... ما عرفت أبي يستولد الأوغاد . أين ما حدبت

به عليك من عفو ويمن ؟... أتعود الى مكايدتي وأنت صنيعتي ولم يكن لك أن تنعم بالنور لولا حلمي ؟... جاوزت الأمد في الروغان . والله ، لستُ إبن أَبي إن أبقيت عليك !

واستلّ من وسطه خنجره لا يلتفت الى صلات الاخوّة . وانقضّ به على أخيه الواجم الساهم يمزق به صدره. فسقط الامير افندي في كبد الديوان مخضباً بدمه وعيناه على جحوظ مرعوب. وانوار المشاعل ، وسُرُج الزيت ، وجلال الظلام تزيد في هول الموقف وفي فظاعة الانتقام

ووقف سعد الخوري والجند مشدوهين يسودهم الارتياع وقدْ أمسكت حناياهم عن اطلاق النفَس . فالمشهد الدميم صعقهم وما حسبوا الاخ يقتل أخاه. ولم ترتفع سوى دمدمة الامير يوسف الحاقد الناقم المتشّفي وما فتىء يصرخ بملء شدقيه : هذه نهاية الخائنين . اين الزنديق الآخر فاتبعه أخاه في الوغادة والصغار ؟

على ان هذه الفورة اخذت في الركود . وإذا الندم يعلو الحدة . لم يكن للامير يوسف ،وهو السيد المطلق،ان يقتل بيده أخاه . وإلا فأين حلم رب الحكم واين سموّ الاخوّة ؟... واضحت النقمة نقمتين . فحنق الامير يوسف على نفسه وقد حفزته خفته الى ما يكرم مثله عنه قدره. ودخل حجرته يحتجب فيها وشناعة عملته تأبى عليه هناءة النوم . فقضى ليلاً طويلاً يتقلب فيه على حرقة لا ينطفىء لها وهج . وطلع عليه الصباح وليس يدري كيف يلقى رهطه وقومه وقد اغمد نصلته في نحر أخيه فمزق لحمه بيده . وبادر الى جمع انسبائه الشهابيين يفيض بالاعتذار. سورة الغيظ اعمته عن الرشد. وطارت الانباء الى عكاء مطرّزة الحواشي . فاطرق لها الجزار اسى . خذلته في رميته المقادير وما تقوم على سوى ركن موّار

٨

لم ترقد الفتنة في لبنان بمقتل الأمير افندي ، بل تعاظم شرها وامتدّ لهيبها الى جميع الشوف. فالجنبلاطيون، وفي طليعتهم الشيخ حسن، نصروا الامير سيد أحمد اللائذ بهم واستمالوا لتأييده الشيخ عبد السلام العماد. وازمع هؤلاء المناوئون الوثوب على دير القمر ، وخلع الامير يوسف عن السدة ، ورفع الامير سيد أحمد عليها بعدما سئموا شذوذ الحاكم الطاغية، ودهاء مدبره سعد الخوري الممعن في الاذلال وليس يبيح لذي شوكة أن يهنأ بسلطة ، ولا ان يبسط يده على طلاقة

ودرى الامير يوسف بما يسعى له الكارهون من مناكرة،فاستغاث بحنكة مستشاره البصير،هاتفاً بوجل : ماذا يا سعد ؟

فراز سعد الموقف بكفه المدرّبة على الجس والتقدير وقال بلهجة من لا يجد الامان في سوى فوهة البركان : علينا بالتسليم يا سعادة الأمير !

فراع السيد الشهابي ما يسمع وصرخ بهول تمازجه النقمة : التسليم بماذا يا سعد ؟... أنبيح أمرنا للثائرين ؟

فاعلن الشيخ المجرّب، الواقف على سر الفتنة: لن نرتمي في حضن أخيك الامير سيد أحمد يا مولاي فنقيمه سيداً علينا ، ولا في أحضان الجنبلاطيين والعماديين، بل نفزع الى الجزار نفسه في عكاء وهو اليمين المحركة والبوق النافخ في الاقلاق !

فجلجل الشهابي وقد تفاقمت رهبته ، واضطربت سحنته: ويك يا سعد،

ماذا تبدي ؟.. أتطرحني في كبد النار تلتهمني ؟.. ألا ماذا يبقي مني الجزار وقد وقفت بين يديه ؟

وعزّ عليه الانحناء في حضرة من كان له عبداً فبات له سيداً . بل عزّ عليه أن يسير الى عكاء مسترحماً، كسير العضد، ولن يلقى فيها غير الزراية. فهو يعرف الجزار في فياشه وفي بطره . فيستخفّ بالضعيف الملتمس رفقه، ويفتك بمناهضه . وارتعد الشهابي ونظر الى سعد بعين نافرة خشيا . على ان سعداً لم يتأثر بمظهر الأمير الجافي ، بل اعلن بهدوئه التليد ، وقد تكون النيران تشتعل تحت هذا الهدوء فلا تخرج به عن صفائه : لا غنية لنا عن ارتياد عكاء ياصاحب السعادة. هناك تفصل الامور لا هنا. هؤلاء الصاخبون في المختارة وفي الباروك تخمد نأمتهم بنظرة ممن اثارهم علينا . أنا مثلك اتحامى المسير الى الرجل الغدور ، القابض ظلماً على الناصية ، ولكن الاقدار سخرت بنا وشاءت ان توليه أعنتنا. واذا ما شهر علينا سيفه جبهناه بذهبنا وليس يبدد فيه حنقه غير الذهب . هذا رجلٌ يعبد رباً واحداً وقد كفر برب السماء !

ووفق سعد في بيانه. على ان الخوف من نزول عكاء ما برح يسيطر على فؤاد الامير . أيهفو الى الجزار والجزار سيف رهيف النصلة ، تنتضيه يدٌ غاشمة لاغتيال هذا المستعين به ؟ . . . كم يكابد من مهانة وهو يلتوي في حضرة والي صيداء مستغيثاً به منه؟... وهل كان لهذا المستأسد في قلعة عكاء ان تقوم له قائمة لولا ما نعم به من عطف الامير يوسف وأمانه ؟

ان سعداً ليهوي به الى أدنى درك من الخنوع وهو يزجيه الى عكاء . لا ، لن يسير اليها، بل سيقاوم بالقوة الفتنة المشبوبة ويطفىء لهبتها. وصرخ

والضعضعة تنتشر في لبه، والخنق يمسك بمقوده: أأعجز عن المشاغبين يا سعد؟...
ولكن لي جيشي وقادتي واعواني . فالنكديون بجانبي ، وبنو العيد ، وبنو تلحوق ، و...

وجهل من يعدّ . وما غاب عنه ان الكثرة انقلبت عليه . ولم يخرج سعد عن سكونه ولا عن رأيه ، بل قال : النكديون لا يعضدوننا باجمعهم يا سعادة الأمير . وبنو تلحوق مع الجنبلاطيين . وانى نلقاهم في عوننا وهم على دين عبد السلام العماد ؟... وعبد السلام مع جنوحه عن بني جنبلاط حالفهم في مناوأتنا وما كان لنا الا الخصم المناكد . لا ، لم يبق علينا غير عكاء من مجير . ولست أرى الجزار ينسى عهداً طيباً قضاه بيننا . واذا نسيه فلن يتنكر للمال. عاهدناه على مائة وخمسين الف قرش فلنعاهده على مئتي الف وهو لنا . ما عرفت من يسترخي مثله في هوى الدينار !

– وتسلم رؤوسنا يا سعد ؟

– رؤوسنا وكرامتنا يا مولاي !

وسعد ، وإن لم يكن خطيباً ، ففي رصانة لهجته ، ووقار مشيبه ، قوة إقناع لا تنبو . وما زال الامير يوسف يلقى فيه مدرّبه ووصيّه وقد تعوّد الركون الى مناصحته والايمان بصحيح رأيه . فقال يطأطىء الرأس للحكمة الصادعة: ما دمت تجد السلامة في الرحيل الى عكاء يا سعد فهيّا اليها. ولكن الى من نلقي مقاليد الامارة في غيبتنا ؟

– ليتسلمها من يشاء يا صاحب السعادة وسنعود فنقبض عليها !

– أأغادر لبنان كالمخلوع عن الحكم ؟

وتجلت اللوعة في مقاله اليؤوس . وتألم سعد وأعلن ينفخ في صدر

الشهابي روح الامل : نغادر الحكم لنعود اليه . هي رحلة لاستنشاق الهواء يا سعادة الأمير !

وجنح بالممازحة الى بثّ مولاه الطمأنينة . غير أن الامير مع اجتهاده في امتلاك خاطره ما كان ليطمئن . فكيف يبدو في حضرة الجزّار ويستميل اليه بال هذا المستنسر بعد ضعف ؟... أفما يذكر ما سخا بـه عليه الامير من عطاء ورحابة ؟... على ان طيف نسل شاه اوضح للامير مبلغ الحقـد الفائر عليه في عكاء . قضاؤه على الغانية الشركسية ، وقد اشتهاها الجزار ، اصابه بجميع هذا الويل الهدّام

وبرح ومدبره دير القمر الى عكاء بذهنين شتيتين ، وأعين نواتىء ، واسارير ذواهل . أيتفق لهما ان يرجعا الى حرز السؤدد والتيه ؟ . . . أما يطويهمـا الجزار كأملودين قصفتهماً الزوبعة ؟... وبدا سعد امنع جأشاً ومـا فتىء يؤمن بسحر الذهب في والي صيـداء . ووصلت اليهما الانبـاء ، وهما في الطريق ، ان الأمير سيد أحمد ركب مقعد الامارة في دير القمر يعاونـه الجنبلاطيون والعماديون . فهدر الأمير يوسف : أرأيت أحقر من أخي هذا يا سعد ؟... لست أدري كيف أخطأه رجالي ونجا مني ؟... والله ، لو بدا أمامي في ليلة المكيدة لشبع موتاً كأخيه أفندي . ثم يقبل من يلومني على فتكي بابناء أبي وليسوا يتورّعون من امتصاص دمي !

وتأوه يختنق بحسراته وزفراته وسعد يدعوه الى التؤدة معلناً: لا تزال أمامنا مرحلة عكاء ثم نرى . وفي يقيني اننا لن نعود منها على إخفاق !

وما انفك سعد يجد في الذهب سلاحه وقد فلّ سيفه . وما جهل ان الخصوم حاقدون عليه أكثر منهم على الأمـير يوسف وهم يعزون اليه كل شدة

ساورتهم. فعليه ان يمكر بهم كما مكروا به، وان يظهر لهم كونه لا يبرح فيهم السيد المرهوب. ودخل عكاء يدافع فيها عن نفسه فيما يذود عن حوض الشهابي اميره. فما الانتصار للامير يوسف غير الانتصار لسعد بعينه وسياسته جرّت على الامير صواخب النزوات

وسبقت البشرى الى الجزار الامير يوسف وسعداً. فهرع اليه رسله هاتفين بموّاج المرح: تداعى الشهابي ومدبره الخوري وفاز بالامارة سيد أحمد يا مولانا. فالانقلاب جرف في لبنان العهد القائم وزحف قطباه اليك!

فاستدارت عينا الجزار الساخرتان، المختلجتان ابداً بخبث الثعلب وشراسة الذئب. وشاعت في ملامحه الغبطة وقهقه. وهل يطيب العيش بلا قهقهة؟... ولكن من هما القطبان الزاحفان اليه؟... أيكونان الامير يوسف وسعداً؟... واستفهم بقصفة من متوهج الطرب وقد شاقه ان يتهادى الى سمعه الاسمان فتتعاظم النشوة: ألا من يقبل اليّ، لا رحمكم الله؟

– الامير يوسف ومدبره يا سعادة الوالي!

فانقضّ على الرسل، وكانوا ثلاثة، يلسعهم بالسوط إمعاناً في اللذوى، صارخاً بهم: والله، ما طاب لي سوى جدع انوفكم ورؤية دمائكم تسيل. ولا أدري لماذا أصونكم عن فأسي مع شرهي الى النجيع. على ان في سماع اعوالكم بعض ما يخفف عني شوقي الى اقتطاع جوارحكم اغتباطاً بما تزفون اليّ من نبأ شهيّ!

وما أذن لهم في الانصراف الا ودمهم يجري تحت جلد السوط. فاشتدت به عند ذاك قهقهته وقد ارتوى شرهه الى التعذيب. وأمر لكل منهم بدينار

جزاء ولائه وهو يقول : احملوا اليّ الاخبار الطيبة ولكم من هذه العطايا ما يملأ جيوبكم . فالجزار جزّار ، الا انه سخيّ !

ودرج الى فيروز المبرطمة يهتف بها بمتباعد الجذل : ألا ابشري ايتها الغاضبة على الفلك لكونه لا ينفحك بالريح. فالعاصفة هبّت واقتلعت الاثيم تقذف به الينا . فهو في طريقه الى عكاء !

وصفق بملء يديه كالاطفال للدمى . ونظرت إليه فيروز — وما زالت منه على مصارمة منذ إعادته الشهابي الى دكة الامارة اللبنانية — وأدهشتها غرابة طباعه . فهو تارة على سلامة نية كالابرار ، وطوراً على مشاكسة وكيد كالعتاة الغلاظ . وأطالت إليه النظر في مسرته وابتسمت . ان مرآه ليميل بها الى الضحك. على انها تماسكت لئلا يبدو له ارتياحها دليلاً على الرضى وقالت جادّة مندّدة : أحسبك وقد قبضت عليه لن تعود الى إفلاته . فيكون موقفك منه الموقف الحاسم . فتختلس عمره كما اختلس عمرها ويبلغ الانتقام أشده !

فأعلن بنشوة من حبور : وهل يكون الأمر إلا ما ترضين عنه ؟... سأظهر لك مبلغ ما أضمر له من شر وحقد . فما يفتأ الأنكد يحزّ في أضالعي بإخلافه الوعد وتبديده أنفاس من أضاءت بالحب قلبي . هنا في عكاء سيلقى مصرعه . ولك أن تشاهديه بباصرتيك يلفظ الروح . بل لك اذا شئت أن تقتليه بيدك . فهو مباحٌ لك !

فقالت ببعض السخر وما كانت تتهيّب هذا العابث بالرقاب يضربها بلا اكتراث لأمرها وكأنها ثمار جافة في دوحة مشاع : ولكني أخاف أن يتلاشى

اضطغانك عليه حيال ما يتألق في يمينه من نضار . فتعفو عنه وتعود به الى مرتبته بوافر الاجلال !

فصرخ بصوت شادخ تطايرت به أوتاره في لاعج الفحيح : أتضحكين مني يا فيروز ؟... ليس في هذه الأقطار على شاحط تخومها من يتجاسر على تسديد هذه الأقوال القارصة الحيّ . أيكون الجزّار من عبدانك يا ابنة الحاج نصر الله ؟... وحق السماء ، لولا حرمة نسل شاه لدققت عنقك !

ومشى إليها شاهراً قبضته ، لا فأسه . فلم تتحرك من مكانها غير محتفلة بوعيده وقالت وما زالت تحشوه غلاً : كنت أُريد هذا السخط المتأجج فيك ينزل على رأس الشهابي محرقاً آكولاً ، لا على رأس من ترشدك الى المقدور عليك!

فنبر وفي كل ذرة منه ثورة : ولكني سأدوس قلبه . فما بك تستخفين بي في حديثك عنه ؟

فأجابت وما تزال معتصمة بهدوئها : أأستخف بك ؟... معاذ الله . ما أستخف بسوى ذلك النكس الحامل اسم دينار . فما أكفره ، وما أفتنه ، وليس يبقي على عهد ولا على فضيلة !

فضرب برجله الأرض وجلجل : ولكني أحتقر الدينار وأمقته . وسوف ترين !

فأعلنت بلهجة التهكم المبسوطة فيها : سوف أرى !

فأحرقته وليست تؤمن به يرعى الحفاظ . وكاد يتسع بينهما الجدل لو لم يرتفع صوت المملوك سليم في الرواق مستوضحاً : أين سعادة أحمد باشا ؟... الأمير يوسف والشيخ سعد الخوري بأبواب عكاء !

فنفر الى مملوكه صائحاً والفرحة ترين عليه : هل أطلاّ يا سليم ؟... ألا ادفع إليهما قوة من الجند للقائهما وكنْ في مقدمتها . فهما ضيفان علينا !

وشاء أن يبدو بمظهر المضياف المسماح مع فضفاض نقمته على الأمير يوسف وسعد الخوري . فليس له أن يكشر فوراً للمستعيذ به عن ناب العداء وإن غضبت فيروز وتململ الحاج نصرالله . وتناسى ما بايع عليه زوجته الفضلى من ميثاق التنكيل بالشهابي . فصافحه . وابتسم للشيخ سعد كأن ليس بينه وبينهما خصام ونفار . فما اشتبكوا في معركة ، ولا تكايدوا ، ولا ناموا على بغضاء

وأدهش اللقاء الخفيّ الأمير يوسف وسعداً وقد حسبا الأسنّة مشرعة في عكاء لحصدهما . وأبديا من اللين والاستكانة ما أيقن به الجزار أنه حيال نعجتين في مخلب أسد . فما أن يطلق فيهما ناظريه حتى يدبّ إليهما التلاشي كأنهما في فوهة القبر . نسمة ريح واحدة تدفعهما الى لجة العدم وقد تمثلا الموت يجتاحهما في كل انتفاضة هدب ترتعش بها أجفان الجزار

والجزار نفسه حار في أمرهما . فما أن يصمم على استئصالهما تحقيقاً لعهد قطع على نفسه لفيروزحتى يتراجع .فان للشهابي عليه فضل الايواء والاكرام . عدا ما يعلم من شهوة الأمير في ركوب الحكم والاستعلاء ولن يتوانى في البذل بفيض لادراك الأمنية الماتعة . وليس في لبنان بأجمعه من يقوى على مثل هذا الأداء ، ولا من يملك شأن الأمير يوسف في السيطرة على الأهلين ، وفي التدبير ، ووراءه سعد

بلى ، هناك فتى واعد يعقد عليه الجزار الأمل . الا أنه طريّ العود ، اسيل العذار . فما يبرح الأمير بشير قاسم شهاب دون العشرين . وليس لمن لم يبلغ نضج الشباب أن يستوي على أريكة السيادة ، فيقود بلداً في طريق السياسة الوعر ، المحفوف بالعثار

والأمير يوسف نفسه لقي في الفتى قرناً عنيداً فاتقاه . وخشي منه الحومان على المنصب الأعلى فأكرمه وأسلس له المقال . أما وعمر الأمير بشير يقعد به عن ركوب المعالي فعلى الجزار أن يلاين من لا يطيق ظله وليس له عنه غناء . بيد أنه لم يكن يمسك عن مخاشنته آناً بعد آناً إرضاء لفيروز ولروح نسل شاه . وما تورع في إحدى الليالي من شحذ الخنجر لاستصفاء الروح في الأمير المتشامخ ، الحرون . غير أنه ألقى النصلة المسنونة جانباً حين سمع سعد الخوري يفيض بالمساومة ويتدفق بوعود بالاغراء

قال الشيخ سعد يسخو بالألوف ، وبعشرات الألوف ، كأن لبنان خضمّ من التبر متلاطم العباب : نحن في رضى سعادة أحمد باشا . فإن يكن يرى في ما يتقاضى منا مبلغاً زهيداً لايقوم بالأعباء فلن نحجم عن زيادة المفروض علينا . أفلا يكفي أداء مائتي ألف قرش ؟... بدأنا بمائة ألف ، ورفعناها الى المائة والخمسين ، واننا لنعلو بها الى المائتين !

فبردت أطراف الجزار حيال البذل الطامي . وتراءى له أن يغلو في المهر فقال : أما يبدو لك ان الامارة ترجح ما تؤدي عنها يا سعد ؟... لبنان مهد الغنى ، فمن القليل فيه خمسمائة ألف !

فابتسم سعد الخوري ابتسامة العارف وقال : أوهام يا مولانا الباشا ، أوهام . كان من حظ لبنان أن قطنت فيه زمناً ، فماذا لاح لك من ثرائه وما هناك غير جبال ووهاد تحفل بالصخور وبالأشواك ؟... فإذا ما رفعنا البدل الى مائتي ألف فسنضطر الى ضرائب نجتبيها فينوء بها الكاهل ، ويعلو الصراخ . ولا قِبَل لنا بمجابهة الفتن وما فزعنا إليك إلا فراراً منها !

فقهقه الجزار متهكماً وقال : أيشخص لك يا سعد أني أجهل معين

الاداء ؟... ولكنكم تحملون اليّ أموال الخصوم . فلا يستوسق لكم الأمر حتى تنقضّوا على مناوئيكم وتبيحوا لي أموالهم . فأحصل على المبلغ كله من فئة معدودة قضى عليها نكدها بمناهضتكم . وبوسعكم وقد ثار عليكم الجنبلاطيون أن تجمعوا منهم ما أقدر عليكم في العودة الى الحكم . هاتوا ثلاثمائة ألف قرش ولكم الأمر في لبنان !

فهتف الأمير يوسف يستعظم المبلغ : لو كانت حجارة لبنان بأجمعها ذهباً لقصّرت عن الوفاء يا « أفندينا » !

فسرّ الوالي المزهوّ ان يدعوه الأمير يوسف « أفندينا »، أي سيدنا ، وقال لا ينثني عن مطلبه : وحجارة لبنان من ذهب يا سعادة الأمير . فإذا شئت أن تسود فكن سخياً ، وإلا فأنت عندنا في أطيب مقام !

وأطلق الجزار كلماته بخبث متوعد. وما غاب مرماه عن الأمير ومدبره. فليس المكان الأطيب في عرف أحمد باشا غير الرمس . وارتعد الضيفان وجلًا. وسمعت فيروز من شق إحدى النوافذ فارتجف قلبها هولاً ، وثار خاطرها نقمة . فما رهبت من زوجها الوالي تجلى لها شبحه الدميم. وكادت تثب على أحمد باشا صارخة به: « يا خائن ، أتعود فتبيع دم نسل شاه ؟... أين تكمن فيك حمية الوفاء وأنت تهزأ بمن جادت بروحها كي تكرم فيك نصاعة الهوى ؟ » . ولكنها تفادت من اقتحام مجلسه وليست تجهل سورة جنونه وهو يُمسّ على مرأى من الناس في عزته. فترددت في الوثبة وستكلفها حياتها وتدل فيها على رعونة غير محمودة. وزفرت زفرات لهاباً وهي تسيل عرقاً وتتوهج ألماً . ما أخطأت في تصوير من تعيّره بكونه عبد المال

وظلت تصغي الى ما يتجاذب والشهابي والخوري . ورأت في الأمير

شباباً دهاقاً فتعجبت من اختها نسل شاه وقد آثرت عليه الجزار الكهل ، المتصدع الأنياب ، الأشمط ، المترهل الخدين ، المتجعد الجبين . أما كان من الخير لها أن تبقى للشاب الممتلىء البدن ، الشريف النبعتين ، المعطاء ؟

وما وعت فيروز عن الشهابيين دلها على كونهم يتسلسلون من أكرم أرومة . ومن هو الجزار حيال اولئك الأكارم غير لقاطة تسلّلت في غفلة من الزمن الى مكان مغبوط رسخت فيه وأخذت تنشر منه نتنها على الناس ؟ . . . وخجلت ابنة الحاج نصر الله عن الشهابي وهي تبصره يتذلل للجزار، ويلقي يده الى صدره في مهزة الوضيع المهين ، قائلاً بصوت السائل الملتوي : ما عاش من يخيّب سعادة « أفندينا » في طلبة . اذا لم يتسع لنا ان نحشد ثلاثمائة الف قرش في مقابل عودتنا الى سرير الامارة فسنبيع حلى نسائنا وأنفسنا في الاستمتاع برضاه !

فارتاح الجزار الى صدق الذريعة وما ينجع في القوم كالتهديد . وسرّه ان يحرز المبلغ الضخم ولم يكن يطمع في الحصول عليه وما تفوّه به لسوى التعجيز . فهو المحال فرضه على الأمير يوسف كي يعلن الشهابي تضاؤله عنه فيخزى . اما وقد رضي به فهتف والي عكاء ببعيد الجذل : إذن أنت أمير لبنان !

وأدهشه وفر البدل . أتقبض يمينه على ثلاثمائة الف قرش هي في عرفه وعرة الملتمس؟... فانحنى الأمير على يد الوالي يقبلها ويميع شكراً وابتهاجاً ، وفيروز تبصره في مذلته وفرحته وتكاد تتشقق ألماً واحتقاراً . وصممت على أمر . ستنتقم من الجزار بما يشدخ فيه الزهو ما دام سلا اختها وباع الدم المسفوك لأجله بالأصفر الماحي الشمم ، الملطخ الوضاءة . فليس لها ان

تقيم على عهد خافر الذمة وحولها في القلعة من يبزّونه شباباً ونضارة وودت ان تخونه في الأمير يوسف نفسه. فتبدت الضربة أمضى وأوجع. وللجزار ان يقتلها . فانها لتنصرف عن دنياها مطمئنة بعدما تثأر ممن غفل عن أختها بما تصمي فيه كل شموخ . ووثبت الى أبيها بغضبة هوجاء هاتفة: باعنا اللئيم . باعنا بالبخس . هذا من سلالة إبليس لا من ذرية آدم . سمعته وفهمت كل ما تبادل والشهابي من حديث مع ضعفي في إدراك البيان العربي!

فالتفت اليها أبوها مدهوشاً وارتاب بما تلقي اليه وهو يعرفها على ركاكة في لغة الضاد . قال : من الراهن انك أخطأت الدراية . فالجزار عاهدني على الفتك بالشهابي مهما أبدى له من اللين . ومن الصعب ان يزيغ عما أقسم عليه !

فصرخت وكلها امتعاض وحرد : أتجهل صهرك يا حاج نصرالله ؟... إنه ليبيع أباه وأمه وإمرأته بالذهب ؟... وماذا ترجو ممن باع ربه ودينه كي يبلغ من دنياه هذه الحظوة ، أيخيل اليك أنه من الاباة الامناء ؟...ولكنه يسجد للدينار اذا ما أبصره ملتصقاً بالنعل . وهل لك ان تثق بمثل هذا الوغد ؟... سأقلق فيه الانس وأذلّ ناصيته وليس لي ان أصبر على الضيم بعد كل ما عانيت من مرارته. كلي حربٌ على السافل ما دام يستخف بالأخذ بثأر نسل شاه !

غير أن أباها ظلّ على ارتيابه بما تعالنه به . جهلها اللغة العربية أوهمها ما لا سبيل اليه . وضحك وهو يذيع شكوكه في مقال فيروز . فلبطت برجلها الارض صارخة : ولكني لست حمقاء !

فنهض الحاج نصرالله يستجلي . وسعى الى الجزار مستوضحاً . هل عفا

عن الأمير يوسف وأعاده الى لبنان ؟.. لقد أسمعه أحمد باشا ان نهاية الأمير حانت. وشاهده بعينيه الاثنتين يشحذ المدية للنحر. فكيف يسخر بالوعد، بل بالميثاق ؟... على ان ما بدا له من ملامح الشهابي كفاه مؤونة الاستطلاع. فالأمير يوسف يضحك بملء فمه. وسعد يبسم بسمة الغبطة وقد ران عليها فيضٌ من الخبث كأنه يقول: « غلبنا الجزار ! » . بيد ان الجزار رضي لنفسه بان يكون ذلك المغلوب ما دام سيتقاضى ثلاثمائة الف قرش. واذا مانع الشهابي في الوفاء فليس له ان يهنأ طويلاً بركوب السدة وما يبرح في قبضة احمد باشا. فاليد المرتفعة به الى مقعد الامارة في دير القمر بوسعها أن تدحرجه عنه، وأن تجتذبه صاغراً الى عكاء.

وبلع الحاج نصر الله ريقه. ودخل على الوالي وفي عينيه لهبة من حنق، وفي أساريره كمدة. غير أن الجزار وقد أدرك الحافز الى الجفوة في حميّه عاجله بالمعاذير لا يبيح له الكلام. قال يبرر عملته: أمامنا تجربة أخرى يا حاج نصر الله ستجود علينا بثلاثمائة الف قرش. بثلاثمائة الف، أتسمع ؟... إنها لتملأ أهراء الجزار على خمس سنوات كاملة. ولنا بعدما نتقاضاها أن نخلع بلا هوادة هامة هذا المأفون. فلا بأس أن ننعم بماله قبل ان نجهزه للكفن. بل نحن سنكفّنه بما نسجت يده. فدعني امتصّ عوارفه. وأين من ينفحنا في تلك الرقعة الجافة من الأرض بثلاثمائة الف قرش ولبنان كله، من قممه حتى سفوحه، لا يساوي بعض هذا الغيث المدرار ؟

فأعلن الحاج نصر الله بقلق: ولكن لا تنسَ فيروز وقد نسيت نسل شاه !

فقهقه وقال: وهل يضير فيروز أن تمشي على الذهب ؟... سأفرش لها الأرض دنانير وهّاجة تطأها بنعليها. أفليس إكراه الأمير يوسف على هذا

البذل الفضفاض خيراً من إراقة دمه ؟... إني أرى في انتزاع المال الطائل منه أفظع انتقام لروح نسل شاه وسنكرهه به على المشقة في جمعه ، وعلى الخوف من التواني في ادائه ومصيره مرهون بما عاهد عليه من عطاء . فلا ينام الليل ولا يصفو له النهار ، بل يظل في ضنى ورعب لن يكابدهما ونحن نخطف أنفاسه وفي الموت راحة وسلام !

فلم يقتنع الحاج نصر الله بما يبـدي سعادة الوالي البارع في التلاعب بالألفاظ وظل يحتج بفيروز ابنته . فانتضى الجزار فأسه وصاح مهدداً : أما والله يا حاج نصر الله ، اذا احرجتماني فلا تطلبا مني أن أكرم فيكما وشيجة القربى . فالجزار لا يعرف غير المصلحة . والمصلحة في بقاء الشهابي حيّاً . فاذا ضاق بالخاطر الكريم أن اجري في الأمر على هواي فلا يزعجكما أن أهشم فيكما النفخة . هذه الفأس ما شحذتها كي أبري بها أقلام الغزّار ، بل كي أفرع بها الرؤوس . وستلمّان بمضائها وقد تماديتما في المكابرة . الامير يوسف سيرجع الى دير القمر حاكماً . وفي عودته نثأر منه لنسل شاه الف مرة وقد كبلناه بما ينوء به من قيود . وتوعدناه بهدمه اذا عزّ عليه الوفاء . وسيعزّ عليه كما سترى وننتقم منه بعجزه. وأيدينا ، في معتقد الجميع ، براء من سفك دمه . واذا لم يروقكما الامر فأنا السيد هنا لا أنتما . وفي أعماق القلعة مدافن جائعة ترقب بنهم الضحايا ، فاحذروا ان تكونا لها مأكلاً !

وصرفه عنه لئلا تندلع فيه سورة الغضب فلا يرحم . ولملم الحاج نصر الله نفسه ورجع الى ابنته على متطاير الرعب . ليس للجزار عهد يحرص عليه بل مصلحة يستدّرها . فوا رحمتاه لنسل شاه !.. وفيما الحاج نصر الله يصرف بأسنانه حرقة وخيبة ، وفيروز تطلق القول العضوض ناحتة في أثلة الجزار ،

مهددة بالانقلاب عليه في أمانتها له، كان الأمير يوسف والشيخ سعد الخوري يغادران عكاء على جزيل المسرة . قهر دهاء سعد كيد الأمير سيد أحمد والجنبلاطيين وعادت الامارة الى وليّها. فالويل للمناوئين من النصلة الباترة وستجتثّ بلا اشفاق . فلا هامات ، ولا جذوع ، وسيجري الدم من الاعالي حتى السواحل جارفاً كل مناكد مختال

٩

ما لاح الامير يوسف في اقليم الخروب، من مجالي الشوف، زاحفاً الى دير القمر، حتى اضطربت أريكة الامارة بأخيه الأمير سيد احمد. فهوى عنها وولى الادبار الى المختارة يستشير في الموقف حلفاءه الجنبلاطيين. وما كان الجنبلاطيون دونه خشية وهم يسمعون بعودة الأمير يوسف، وبنصرة الجزار له، وقد بلغ موكب أحمد باشا مدينة صيداء إرهاباً للمناكرين، فأزمعوا الهجرة. لن يبقوا في الشوف وسيد الجبل عاد الى حماه يهز بيمناه سنان النقمة الكاسحة مهدداً من عكروا عليه صفاء الافق. فلجأ سيد احمد الى الأمراء اللمعيين في المتن. وفزع الجنبلاطيون الى جبل عامل يأوون الى مكارم حيدر الصعبي. واستولى جيش الجزار على دورهم في المختارة وبعذران وهدمها. واستغلّ بساتينهم وكرومهم وجميع مواردهم. ونال من اصفيائهم والمنتمين اليهم

واعتلى الامير سنام الامارة واذا كل من عاداه يلاينه والناس على هوى أربابهم. فنفض الجميع من أطواقهم أخاه سيد احمد كأنه دويبة كسحى. والتفتوا الى السيد المطلّ عليهم بطبل وزمر يعالنونه التأييد ويطأطئون له الرؤوس. مبارك العائد المظفّر!

وجؤذر ممن حبوا الى الامير يعفّرون بين يديه الجباه استبشاراً ببزوغ نوره. وتجرأت فأكبّت على رجليه تلثمهما وقد أحست بكونها غير جديرة بلثم يده. فهتف بها الأمير برفق وقد عرفها: ألا كيف أنت يا جؤذر؟... هل شقيت في غيبة مولاك؟

فأجابت والفرحة تكاد تقطع عليها مجرى الابانة : كلنا شقي يا مولانا . فما بقي في لبنان ذو حس ّ لم يفض ْ بالدموع !

فابتسم وقال : ولكنكم لا تزالون تفيضون بها !

فقالت وهي تتنفس عالياً : ما أبعدها اليوم عنها بالأمس في طلاقتها . كنا نبكي حرقة فأمسينا نبكي ابتهاجاً . طلعتك طالع يمن يا سعادة الأمير !

فأعلن بصوت نديّ خافت وبسمته تتسع فتغمر وجهه : أبصرت فيروز في قلعة عكاء يا لعينة وشهدت لك بالذوق المنيف . انها لتعدو اختها نسل شاه في الاناقة كما قلت فيها . غير انها ليست حيث يجمل بها أن تكون !

فأدركت مراده . ليست فيروز الحسناء اليانعة الفتوّة للجزار الغائر في لجة الكهولة ، بل لمن لا يبرح على وفر من شباب . هي للأمير يوسف لا لأحمد باشا . وطربت جوذر للشهوة المتقدة فيه وقالت تعلله بالأمل : لا محال في الكون والزمن أبو العجائب يا مولاي الخطير !

فعضّ شفته السفلى بانتفاضة الحذر داعياً الوصيفة الى الصمت . فالمجال لا يبيح هذا التفريط في القول وما يزال حلم الجزار عابق الفوح . ومال بجوذر الى الاستقرار بخدمته وسيتسع له الى محادثتها على حدة وما يزال مخضّب الروح بسحر فيروز . وقال في نفسه : ألا أقوى على استلالها من صرح عكاء ؟

وحنّ إليها وهي المقيمة في عصمة الجزار . فلقد أبصرها في النافذة المطلة على معقله ترنو إليه بعينين تشتعلان حقداً وكأنها تبتغي افتراسه حنقاً عليه وهو قاتل أختها . وأحبها مع كل مـــا يتقد فيها من موجدة وغلّ . وارتاب بقدرة الجزار على الاستمتاع بهذا الحسن الوزين . وأنى يثمل بالخمرة من لا قِبَل له بالنشوة ؟ ... وتأوه على ضؤولة حظه من صباباته ونسل شاه ، وهي

الغانية الروعاء المخصاب اللدونة، نفرت منه . ورفيقتها «هان زاده» تمردت عليه . فخضب يديه بدم الاثنتين وأقام من حبه وغرامه على كافر الجوع

واستطاب الانطلاق في أثر منازعه اللواعج لو لم يدخل عليه مستشاره سعد يقول : نأى الأمير سيد أحمد عن المختارة يا مولاي ولاذ باللمعيين في نواحي المتن، فلقي لديهم جزيل الرحابة . فبماذا ترى أن نتدبر أمره وأمرهم ؟

فزعق وما تبرح نقمته على موداته الكوابي تثير حفائظه : أهدموا دورهم وشتتوا شملهم إن لم يطرحوه بين أيدينا . لا أراهم إلا واقفين لنا بالمرصاد كأنهم يرومون ان ينازعونا السيادة. أنظل نقع على المنافسين في هذه البقعة الضيقة وما تتسع لمدّة نفَس ؟

وتبرم باللمعيين وحنّ الى الاشتفاء منهم وما زالوا يقيمون في طريقه العراقيل . وشاقه أن يقهرهم وأن ينتفع بأموالهم في وفاء ما عليه للجزار. فأطلق كتيبة من جنده في كسر شوكتهم . فاستغاثوا بمراحمه فهدر : لن أمسك عنكم أذاي إلا وقد ألقيتم إليّ ذلك الخائن المستطيل عليّ !

قالوا : ولكننا نبرأ منه ومن مجازفته وقد اكرهناه على الجلاء عنا !

فنبر : إذن هاتوا بدل العفو عنكم وإلا فلا ترتجوا رفقاً !

فنقدوه خمسة وعشرين ألف قرش سلكت طريقها الى عكاء في خطب مودة الذئب العاوي في القلعة الباذخة . ونازل أخاه سيد أحمد وخضد عزمه وأجبره على التماس حلمه . وما توانى في الصفح عنه وقد دوّخه ودعاه الى الثواء ببلدة الشويفات على هناءة وسعة . وركدت في لبنان الفتن وطابت للأمير دنياه

على أن هذا الصفاء المخيم على المنبسط اللبناني كان شراً وويلاً في عكاء. فأدلهمّ الجو في مبيت الوالي واضحت فيروز فهدة ثائرة تنشر في الجواري

روح العصيان وتحرضهن على المعصية. قالت تنفث فيهن نفرتها: ما لهذا الشيخ الهمّ يحبسنا على نفسه وهو المرضوض العزمة ؟.. أنقف عليه فتوّتنا مع تخاذله عنا ؟... لسنا في أكنافه في دير كي نتعفّف ، بل في مجمع لذة . فلنلتفت الى من يبعث فينا المرح ويجود علينا بالمتعة . ففي القلعة حفلٌ من المماليك الشبان يصبون الى التنعم بوصالنا !

فروّعتهن بمقالها الداعر. أتدعوهن زوجة سيدهن الى الخيانة ؟... وهل لها، وهي السيدة الأولى في صرح عكاء، أن تخلع عنها وشاح الوفاء وتلجّ في الاستهتار ؟... ولكن أحمد باشا جاد عليها بنفائس الحلى وفواخر الحلل ، ورفع من مكانتها بما أقامها منه في المرتبة الأولى وليس يعلوها سواه في القدر والسلطة ، فما بها تدفعهن الى امتهان شأنه ووصم جبينه بالشين ؟... هل وقعت بينهما الواقعة ؟... وهل تجهل فيروز ما يكلفها الشغب وتجرّها إليه الفحشاء ؟... ليس أحمد باشا الجزار بالرجل الغبيّ ولا المتسامح وهو البطّاش، الساخر بالأرواح، وأنى التفت اقتطع رأساً واختلس عمراً . فانى تعانده فيروز وخطر الموت يترصدها ؟... فهل شغفت بالكفن يزجيها بلا رأفة الى مبالع الديدان ؟

وجمدت عيونهن عليها والرعب يموج في حناياهن . أتمزح سيدة الصرح الاولى أم تجدّ ؟... هن يشتهين الاستسلام الى هؤلاء المماليك الفتيان ، ذوي النفوس المتأججة الضرم، والقوة والشوق يلتهبان في عروقهم السليمة المتعطشة الى لذوى العناق ، غير انهن يخشين صولة الجزار وهو إذا بدا لهن في صفحة الماء رهبن الدنو منها على ظمإهن. وأنى يخرجن عما له عليهن من وثيق الأمانة والفأس الرهيفة الشفرة تلتمع في أبصارهن فيرتعدن هولاً لبريقها ؟... لا ،

ان فيروز لتعدو بهن النطاق . فما يبحن للمنايا أرواحهن والجزار المقهقه أبداً ، وفي قهقهته صولة الفناء ، ينشر في أكبادهن الذعر حتى وهو شرارة عارضة في خواطرهن . فكيف يقدمن على انتهاك حرمته بما يطرحهن أشلاء مجهولة تحت نقمته المصور ، فلا يشفق عليهن في خلجة من بقاء بل يسقيهن العدم الجائح كأنهن زرازير في اندلاع ذات رصاص ؟

ولم تنتفض حناجرهن بنأمة والبكم سيطر على شفاههن كأنهن في وهلة خرساء . قالت فيروز وقد تبين لها فيهن الوجل والارتياب بما ينضّ في مسامعهن : هل أدهشتكن دعوتي ؟ ... ولكني غير مازحة . نحن ذوات حنين ككل مجبول على اللحم والدم . والجزار الشرس ، الشره الى النجيع ، ساقط الهمة في إنالتنا شهوات الهوى ، فلننصرف عنه الى من يلبي طماحنا . وإن هو درى بنا واعتزم تأديبنا فإن لنا من المماليك درعاً منيعة لرد أذاه عنا . وسأقوم بالوثبة فاتبعنني وعليّ إنقاذكن من نقمة الغاشم السليط . أقسمت على دفنه في هذا الحصن المجهول الاغوار !

فما انفك الخوف يسودهن . على انهن ما برحن يؤيدن في قرارة نفوسهن الارتماء في احضان المماليك الفتيان ذوي السواعد المفتولة ، والشهوات المتقدة ، وكلهم شعلة من نار . فما عرفن بجانب مولاهن أحمد باشا من الحب غير فورة سريعة الانطفاء وكأنهن يرشفن بها من كأس الغرام ما لا يزيد على قطرات قلائل لا تروي ، بل تحرق وتهيب بهن الى الاستزادة منها دون أن يتوافر لهن من يبرّد الشعلة المستعرة في جوارحهن

وهتفت بهن فيروز وقد أوجعها سكوتهن : أيعصف بكن الخوف ؟ ... ولكنكن لا تعشقن أنفسكن وأنتن تؤثرن الموت على جفاف ، مع ان الواحة

على مقربة منكن تغريكن بمائها النمير . تباً لكن من غافلات يطيب لهن النوم على الطوى ولا الاقدام على خطوة في الحصول على الرغيف والشبع المريء . فما أنتن غير بعوض في مستنقع يكفيكن نطاقه الوبيء مع اختناقكن بأقذاره . هلا كنتن كالعقبان فتجبن الافلاك في البحث عن طرائدكن ؟... المماليك يتحرقون شوقاً إلينا فلنهب لهم أنفسنا . ولمن نستبقي وسامتنا ونضارتنا وقد وقفناهما على من لا يحفل بهما ، وهو إذا شاء أن يتذوقهما قعد به عنهما عجز مهيض ؟... أيستهويكن الانطفاء في الحرقة ولا تمددن أيديكن الى الثمرة المحرّمة تنغمسن في عذوبتها ولو لفترة من الزمن ولا كانت بعدها الجنة ؟... اني لاحتقركن وانتن في هذا الخمول الشنيع . فإذا كنتن ترهبن الموت فإنكن لتكابدن شدته في كل خلجة . فمتن على سعة ونعيم لا في تعس وحرقة ومذلة !

وهاج فيها الغيظ . وأجالت في الجواري الماثلات بين يديها عينين تغلي فيهما الاستهانة بالخانعات، الراضيات بالمضض ينهشهن دون أن يكلفن أنفسهن السعي للافلات من جحيمهن. وزعقت والزبد يطغى على شفتيها : أما فيكن ذات مغامرة تدفع بها عن رقبتها جور النير ؟

فما برحن يترددن في النطق كأن بهن عيّاً. وكادت فيروز تتشقق وتثب عليهن فتثخن فيهن ركلا ونهشاً . وتوهج محياها كأن النار تشتعل فيه . وعبست وغلى دمها حنقاً. وما أنقذهن من غضبتها سوى قولة إحداهن وقد ملكت الجرأة على الكلام : لن نخرج عما رسمتِ لنا أيتها السيدة المختارة !

فأحست بانقشاع لهيب الغضب عن جبينها وبفتور سورة نقمتها . سمعت بأذنيها ما أزال بعض حدتها . واستطاعت أن تتنفس . ما خلا حريم الجزار

ممن يؤيدنها . والتفتت الى المتكلمة وهي تعرفها من المتحمسات لها وقالت تخاطبها بسخاء من إطراء : عوفيت يا يمنى. ما كنت لأجهل كونك تنطوين لي على وارف المودة . على أني بشوق الى سماع ما تبدي أترابك من نصرة . فهل أدعوكن الى ما يبعد بكن عن شهواتكن ؟... لم أحاول مرة أن أجازف بنعمائكن . فأي هناءة تلقين في أكناف أحمد باشا ؟... أتقعن على سوى الرغيف والسكون ؟... ليس الرغيف والسكون كل ما تصبو إليه النفوس لو علمتن . فما درجنا في الكون لنأكل ونشرب وننام، بل لنغرف من مواتع دنيانا ولم تنفحنا القدرة بالجمال والشباب كي ندفنهما في الزاوية، بل كي نتلذذ بحلاوتهما . وهل للريحانة أن ترتضي الذبول على أمها دون أن تطمع في أنف يشمّ رائحتها ؟... وهكذا نحن. فما دخلنا هذا الحصن لنذوي فيه، بل لنقع على من يستنشق عرفنا. وما دام الموكّل بنا مزكوماً فلنبحث عمن يهوى العطر. وقد أبلغتكن ان المماليك يصبون الى الاستئناس بأطايبنا !

فهتفن وقد خلعن عنهن كل حذر : نحن في طاعة مولاتنا !

واندفعن إليها يقبلن يديها وأذيال ثوبها صائحات : لسنا نرتضي الجوع والاهراء ممتلئات بالبرّ والادام !

قالت : إذن كنّ على أهبة وسأفسح للمماليك إليكن . هم أربعون ومعظمهم من الشبان المتهيين صبابة وما أنتن في مثل هذا العدد ، فارتوين ما شئتن من الماء الزلال ، وأشبعن بقدر ما يطيب لكن من المآكل اللذّ . فلن تأتين مرتين الى دنياكن !

وبشتهن الشوق الى المعصية فأقبلن بملء خواطرهن على الأخذ بمشتهاها . فلا بأس عليهن وهن يستبحن حرمة الجزار ويسترسلن الى ميولهن . وإنهن

لراضيات بأن يصيبهن من سخط أحمد باشا ما يصيب فيروز نفسها وهي وجههن

وانتشت فيروز بما أحرزت من نصر . ستطعن الجزار في كبده وهو المائع الحفاظ ، السالي ، والدرهم يختله عن ذمته ويقوده في مهيع الغدر . ولما جلست الى أبيها تبين فيها الحاج نصر الله مسرّة شريرة لا تبعث على الطمأنينة . فإنها لتبسم بسمة التيه . وتنظر إليه نظرة وقحة كالمستهترات وعيونهن تدل عليهن . وخشي أبوها ما يعروها من انقلاب فهتف بنبرة مرتعشة : ماذا يا فيروز ، هل من مكيدة مدبرة ؟

فأجابت بصوت مسترجل الحس : وماذا بقي غير المكايد نهدم بها عبد القرش يا حاج نصرالله؟... خان عهدنا وسنخون عهده . باعنا بالمال وسنبيع شرفه بأرخص ثمن . اتفقنا على خذله في المودة !

فهاله ما يسقط إليه . أتجنح فيروز الى المخازي تنسف بها كرامة زوجها وتثير عليها حنقه ؟... وبدا للحاج نصر الله ان ابنته تجهل رهافة الفأس المستقرة أبداً بيمين أحمد باشا وصاح بارتعاد : ماذا يا ابنتي ؟... على مَ عزمتن في مناوأة سعادة الوالي ؟... أراكنّ زاحفات الى حتوفكن . فهل للنملة ان تعضّ الصخرة ؟... ولكن الجزار يسحقكن جميعاً بنعله وأنتن تخرجن على فرض الأمانة . هلا ملكتن ومضة من حكمة تدرأن بها عنكن شر الموت الخطّاف ؟... والله ، ما أن يدري أحمد باشا أن فيكن نزوعاً الى الاستخفاف بحميته حتى يهشمكن بفأسه كأنكن يابس الحطب . فارعوين عن الغواية واذكرن أنه سيدكن وليس لكنّ أن تعاندن من يطحنكن بنظرة مستأصلة . الأمراء والحكام يرهبون زوجك يا فيروز ، فانى يحلو لك أن تستأسدي عليه وأنت منه هباءة ؟

ففارت كأنها الماء على النار وصاحت بقوة جموح : أفلا نطعنه في قلبه ونحن نجبهه بالاستهانة بقدره ونزدريه وهو السيد المطاع؟.. حسبنا أن نثلم عرضه وليقتلنا بعد ذاك وليس لنا ان نرعى حرمة رجل قبيح نذل لا يصبو من زمنه الى سوى الدينار . أما رأيت بأي بدل خسيس أباح ذمام نسل شاه ؟

فأعلن الحاج نصر الله بشدة : دعي لي أمر تذكيره بجنوحه عن الهدى وعليّ جرّه الى النهج السديد . أما تدرين ما عليه من بذل في تسيير شؤون الولاية ؟... ما الأمير يوسف غير بقرة سمينة الضرع ، وما على الجزار وهو يستدرّها ريثما ينضب لبنها فيذبحها ؟... وهل تجهلين أن هـذه التكاليف الراسية في عنق الشهابي ستكره الأمير على شدائد تهون إزاءها المنايا؟...إن الجزار لينتقم من عدونا أضعاف الأضعاف وهو يفرض عليه ثمن الامارة مئات الألوف وليس يملك منها ما يقوى به على الوفاء !

فما زالت على لظى . قالت : ليس ما يؤدي الشهابي دون ما يؤدي سواه . فليبحث الجزار عن طلاب الحكم في لبنان فيقع على المئات وكلهم يبذل ما يرجح سخاء الأمير . فلماذا الابقاء على هذا الشبح البغيض ونحن ندعو الى سحقه ؟... أفلا ترى ان أحمد يتعمد الغمز بنا وهو يعيده الى سدة الامارة ؟... إنه ليبتغي قهرنا فلماذا نبقى له على إخلاصنا ؟

فلم يكن الحاج نصرالله من هذا الرأي الفائل . قال غاضباً : أليس من العار عليكن ان تتعرين من الفضيلة لتثأرن من سيد الحمى؟... اني لألعنكِ اذا أقدمت على الفاحشة . فما أنت ابنتي وقد خلعت عنك العفة . فالسماء تأبى ان تعبثي بما كتبت عليك لبعلك من حفاظ . وسأسعى بك اليه اذا

ارتضيت الكبوة . وربما أنشبت أظفاري في عنقك فأقضي عليك ولست أطيق أن تنشأ بناتي على الاستهتار !

فتبرمت به وهو يعترض وثبتها.وزعقت لا تبالي كونه أباها : أتغضب وأنا أجاهد في الانتقـام لابنتك يا حاج نصرالله ؟... انك لتثير في نفسي الحيرة بخنوعك حيال المستخف" بانفتنا ؟... ألا ما قذف بنـا من « افيون قره حصار » الى عكاء لولا الرغبة الخالصة في محو قاتل نسل‌شاه ؟...أتدعي الآن الحرص على الفضيلة ؟... أراك تأخرت . هـذا الحرص كنت أريد أن تتحلى به قبل أن تبيع اختي للنخاسين !

فكانت الطعنة قاتلة وكاد يخر" بها الحـاج نصرالله صريعاً . فسددت ابنته الى صميمه نبلة مسنونة قاطعة لا لين في اغمادها ولا برء لجرحها.وعلا أساريره الشحوب وتجلت في عروقه الرعشة وانعقد لسانه.ابنته تنعته بالوغادة وتعيّره الاسفاف . وشاهدت فيروز انقلاب الملامح في أبيها ولم تندم على ما تفوّهت به . فما أزجى الحاج نصرالله ابنته الى دير وهو يبيعها من تجار الرقيق . ولولا تلك الصفقة لم تكن هذه الصفعة . والد نسل شاه يحصد ما زرع . ونهضت فيروز تقول مندِّدة : أنت من قادنا في طريق الانتقام . فجازفت بابنتك وعرّضتنا للأخذ بالثأر. وكيف نثأر من الجاني علينا ومن اعتمدناه في إنالة البغية يمالىء عدونا ويجامله ،مع ان نسل شاه لم تبخل بقلبها ونفسها على هذا الممالىء المجامل الدنيء ؟...والله، ما أنت بالحاج نصرالله إن سايرت المصانع في روغانه منا . فالأمير يوسف لا بقاء له . وان لم يقتله الجزار فاقتله بنفسك . وكيف تطيق ان تبصر في قيد الحياة من اغتـال ابنتك ولا تستل" روحه ؟. . . أنا مقبلة في هذا الحصن على غرائب تشيب

لهولها الليالي . وإني لاسخر بفأس صهرك الجشع . أتراه يسحقني بنظرة ؟...
ولكن هذه النظرة أنا من يسحقه بها . واذا مضى في التواني فلا يتعجب مني
وهو يبصرني في حضن الشهابي نفسه . كان بيني وبين الأمير نظرات أدركت
منها انه يشتهيني . فليحذر الجزار !

فراعه ما يقع في اذنه من تأنيب وتهديد . قالت فيروز باحتدام : ما ارتضيته
يحبو الى الهرم وانا في لدونة البرعم لولا شوقي الى الانتقام لنسل شاه ممن
خطف عمرها . فكيف تريدني على الرسوخ في عصمته ولم يحقق الشهوة ؟...
نكص عن الانجاز وسننكص عن الوفاء . وسيستفيق ذات صباح ويبصر
الذئاب تعيث في القطيع !

وانصرفت عن ابيها على افراط في التيه والحنق . وتضاءل الحاج نصرالله
حتى أمسى ذرارة . فالجزار لن يرحمه ولن يرأف بفيروز حين يتبين فيها
الكبوة ، بل سيقتلهما معاً . وللنجاة من هذه النهاية السفعاء دبّ الوالد
المرضوض الانفة والروح الى أحمد باشا الجزار متحاملاً على نفسه ، قائلاً
بلهفة طفحى : النجدة يا « افندينا » !

فخيل الى سيد الحصن ان حميّه الحاج نصرالله في جائحة ماحقة يستجير
به منها فنبر ملبياً : ألا ما دهى الحاج نصرالله ؟... هل من غاشية ؟

وبدا له مقصوم الظهر ، ملتوي العنق ، كالح الوجه ، رخو العصب .
فاجاب والد فيروز بلهجة تزخر بالدموع : الويل يزمجر يا سعادة الوالي !

فقبض أحمد باشا عفواً على فأسه وصاح : واين هذا الويل ، لا أبا لك
يا حاج نصرالله ، كي أجزّ ناصيته وأخزي أمه ، هلا أفصحت عنه ؟

وكشف حاجباه وقد قطّب ، ونتأت باصرتاه وهاجه الغضب . فمن يتجرأ

على إثارة الفتن في ولاية صيداء وهو يرعاها ؟... ورقب أن يتفوّه حموه سريعاً بما جاد فيه بالتلميح . فليوضح . وغمغم الحاج نصرالله وأنفاسه تكاد تجري في غمغمته : فيروز في امتعاض مما وقع . فما تريد ان ترى الشهابي في أوج علائه وقد عاهدتها على محوه . فانقذني من حقدها عليّ وعليك وهي تعيّرني المجازفة باختها وتعيب عليك النوم عن هدم الأثيم !

فقهقه ضاحكاً . أهذه هي الغاشية المتوعدة؟..لا ريب ان الحاج نصرالله أصيب في عقله . فمن هي فيروز كي يخشى الوالي شرها وهو سيدها وليس يضيق به أن يخمد فيها نبضة الجنان ؟... والتفت الى أبيها المرتعد الأوصال يقول هازئاً : أهذا هو الويل يا حاج نصرالله ؟... ولكن فيروز لا يعزّ علينا أمرها وسنداوي فيها دلالها . فمن لانت له وعورة الباب العالي لن يكبو بجماح غادة . وإلا فلا يبقى علينا غير الدواء الشافي. وإني لمعذور في الركون اليه . أما أبلغت ابنتك ما صارحتك به ؟... لسنا نبيح للشهابي أريكة الامارة لسوى اغراقه في المتاعب. فيتذوق الموت في كل لحظة قبل ان يطلق روحه . أتكون فيروز على غباوة فتفوتها مقاصدنا ؟

ومال الى طحنها. لا بأس ان تذهب في أثر الذاهبين من ضحاياه وليس لامرأة أن تتشامخ عليه في مأرب . فاذا فتحت القبور صدرها لهذه المريضة الهدى فلن يحس الاحياء بكونهم فقدوا وجهاً من وجوههم . ولن يشعر الاموات بجمجمة نزلت مهاويهم وهي والعدم سواء . على أن هذا الغليظ الكبد لم ينكر على نفسه أن فيروز اسمى من ضربة فأس ، وأنه لن يقع على أخت لها وهو يبطش بها. وما استطاع أن ينفي كونها زينة صرحه وعليه ان يتحمل دلالها ليستبقيها لنفسه طاقة من ريحان الجنة . قال الحاج نصرالله

يلحّ في اجابة فيروز قبل فوات الأوان الى ملتمسها : ولكن الانجاز حلوٌ تقرّ به العيون وتثلج الصدور يا سعادة الوالي . فما عليك وقد انقذتنا من طلعة الأمير الكريهة وبوسعك أن تجد في لبنان خيالاً تعهد اليه في شؤون الامارة وتستولي منه على ما تستطيب من بذل . فمهما بلغ ذلك الجبل الاجرد من قحط في الرجال فلن يخلو من أثر لبعض رجل يقبض على المقاليد ويجري في مشتهاك. فنجّنا من المقيت ومن دمدمة فيروز عليّ وليست تطاق في تبكيتها !

فصرف احمد باشا باسنانه . أتكعمه مشيئة امرأة ؟ ... غير أن حرصه على فيروز مال به الى الاعتصام بالتؤدة فقال وهو يتظاهر على رغمه بالابتسام: واين هي فيروز يا حاج نصرالله ؟... أما تأتي اليّ ؟

وجنح الى استعتابها فيخاطبها بالحسنى. وانطلق اليها الحاج نصرالله يصيح وهو يلهث وفي اساريره استبشار بما يذيع : تعالي . سعادة الوالي يناديك . هلا اسرعت اليه ؟

فامسكت عن التلبية وما زال الحرد راسخاً في ضميرها . فقبض ابوها على ذراعها وجرّها الى زوجها قائلًا : لا تمانعي . ستكونين راضية . احمد باشا بايعني على الانصاف !

فزعقت بمتطاير النفرة : وأي انصاف ؟... إنه ليضحك منا . دعني أظهر له ما يكلفه الضحك من ثمن !

ولكن أباها قسا عليها وقادها الى الجزار يعالنه بقوله: اليك بها يا مولانا. اقنعها بكونها في خشيتها على ضلال !

فضحك لها الجزار فيما تجول عيناه في عنقها الاتلع ، الغضّ ، المغري بالقبل.

وودّ لو أحكم منه الفأس وسلم من الدلال السخيف البليد . على أنه تمالك وقال بدهاء يتعمد الملاينة : أنظل نقتعد البرطمة يا فيروز وليس لمثل هذا الجمال المتاوج فيك ان يحرد فيهون ؟... روعة المرأة في ابتسامتها ، لا في تكشيرها . وما اراكِ إلا مكشّرة. هلا نظرت الى أترابك وبدوت مثلهن في أنس حتى في عضة الشقاء؟... في مَ تطمعين ولم تدركي عندنا؟..فالسعد والمال والجاه في قبضتيك . وهل لمن بلغت هذه الحظوة ان تغوص سرمداً في الجهامة؟... ألا رفقاً بالحظ المؤاتي.فاني لاخاف عليه من الامتعاض والجلاء عنا وأنت تلقينه بالجفوة . واذا كنت تجدين في إعادتنا الامير يوسف الى مقعد الحكم في لبنان ذنباً ، فما اسرعنا الى التكفير عن الذنوب. سنقوّض به المنصب كرمى عينك ، ولكن صبراً ريثما نحتلب البقرة الدرور !

قالت وما برحت بادية الجفوة: ما زلت اسمع من سعادة الوالي انه سينصفنا وينصف نفسه من قاتل نسل شاه، وحتى الساعة لم يفعل. فان تكن الوعود كل ما نظفر به فما كان اغنانا عن المجيء الى عكاء !

فهاج وهو أشبه بالبارود . شرارة تلهبه فيعلو انفجاره. ونهض والفأس في يمينه تنذر بالحذف وهدر: أتندمين على ما لقيت عندي من اكرام يا جاحدة المعروف ؟... ألا أين كنت تغورين في «افيون قره حصار» وقد انتشلتك فيها من العدم ؟... ما كنت تشبعين اللقمة يا عائبة . والله ، اني لازري بقدري وانا اقيمك في مستواي من العز والنعمة ومثواك القبر !

وشهر عليها فأسه فوقف أبوها بينهما يقول : أضرب عنقي واغفر لها استطالتها عليك وليست تدري ما تفضي به من هُجر . انا وحدي الجاني فاخمد انفاسي !

وعرض عليه صدره فصرخ به: ابتعد عن طريقي يا حاج نصرالله. لأؤدبن الكافرة بما تصبح به عبرة!

فصاح الاب المرتاع: إصفح عنها واقتلني. فلم يكن لها أن تبدو في هذه الحدة لو لم اطرح أختها نسل شاه في اسواق النخاسة!

على ان الجزار لم يكن يرغب في القضاء على فيروز ولا على ابيها. فما ابتغى الا الارهاب. ووقفت فيروز برباطة جاش إزاء الفأس المتوعدة لا تتراجع ولا تستغفر. فكل ما يروقها أن يعلم زوجها المتوجرج الذمة أنه أساء الامانة الى اختها الراحلة وقد توانى في الانتقام للدم المطلول. وظل احمد باشا في هديره زاعقاً: كل رأس يتعالى في ولايتي نصيبه هذه الفأس. ولقد ضربت بها الوفر من الاعناق وأراني مزمعاً ضرب العديد الضخم من رؤوس المكابرين!

فنبرت فيروز لا تتهيب: كم كنت تبدو لي عظيماً وأنت تجتث بها رأس من بايعتنا على محوه، اذاً لعبدناك بعد الله!

فجلجل وفأسه لا تزال مرفوعة بيمينه: ومن أبلغك أني لن أفرعه بها؟... فلكل انجاز موعد وما حانت ساعة الحساب!

فهتف الحاج نصرالله وقد لاحت له السبيل ممهدة للوئام: لقد حسم سعادة الوالي كل خلاف يا فيروز بما يعالنك به. دم الشهابي مهدور، إلا ان يوم البتر لم يحن ميعاده، فاصبري!

فتأففت واستوضحت بمرارة الشك: والى متى الصبر؟

فصرخ الجزار: من انتظر الأعوام لن يضيق به ان ينتظر القليل من الأيام. فأنتِ لو علمتِ ان ليس في لبنان على سعته من يحلّ محل الأمير

يوسف في السدة لعذرتنا . فالرجال قليل . واعتمدنا أخويه فوضح ضعفهما. انهما لصعلوكان . ومن الموجع ان يكون هذا الركيك الأبله وجه القوم. ولكنه القحط المخزي وسأجتهد في تذليله . فما لبنان غير قطعة من ولايتي ولست اريده ملعباً للفتن فأشقى به. أما تحوزين بعض طول الأناة كي أسقط على من يجمل بي أن اصطفي سيداً ؟

فأعلن الحاج نصرالله بدماثة الارتياح : الموعد قريب ، قريب !

ولكن فيروز لم تؤمن بالوعد ولن يرجح ما سبق لها ان سمعت من وعود الجزار . فقالت بامتهان : هذه البضاعة باتت لا تلقى عندنا رواجاً يا سعادة الوالي !

فكادت الفأس تشدخها. الا ان يد أبيها قبضت على يمين الجزار وأبعدت الشفرة عن فيروز . وهوت شفتا الحاج نصر الله على تلك اليمين تقبلانها وتهتفان: حسرتها على اختها تهيب بها الى هذا المنطق القارص يا مولانا الباشا، فحقق لها امنيتها وأدرأ عنا غلاظتها . اني لاشاطرك رأيك في جحودها الصنيع ، بل في رعونتها !

فما تمالك الجزار وقد نفد فيه الجلد. وانتزع الفأس من يد الحاج نصرالله وضرب بها فيروز . الا ان الأب عاد يمنع الشفرة من اجتياح ابنته فكان ان أطارت الفأس ابهامه فعوى . وسكنت الفورات الجوامح حيال مرأى الدم . وانحنت فيروز على يد أبيها تتوجع لوجعه وهي تصيح بانتحاب : أبي ، أبي !

وتململ الجزار وصرخ غاضباً لائماً : أراضية أنت الآن يا ابنة السوء وقد كلفت أباك إبهامه في شغبك وحمقك ؟... ألا عفوك يا حاج نصر الله . هذه

الشريرة قادتنا الى ما لسنا نروم . ليتك أبحت لي دمها ونجوت من الكارثة !

فقال الحاج نصر الله والألم يستنسر فيه : ليكن دمي فداها يا سعادة الوالي . أُغفر لها عنتها وانفحها بشهوتها واصرف عنا البلبال . أفتك بقاتل أُختها وانشر على هذا الصرح السكينة والصفاء !

فأطرق أحمد باشا وقد نزلت بلبه الحيرة . ما تقاضى حتى الآن المبلغ المتفق عليه . أفما تملك فيروز نضاضة من جلد ؟... على أنه اضطر الى مسايرة حميّه المضروب الابهام . قال وقد تداعت فيه الهمة : لك ما تريد يا حاج نصرالله . سأضرب عنق المجرم . وإذا لم أقع في لبنان على سيد مهيب فسأقيم من الحجر سيداً . فالصخرة تقوى على تدبير الأمر في البلد اللبناني ما دامت مشمولة بعطف الجزار !

١٠

لم يضق بأحمد باشا، والي صيداء، أن يثير القلاقل في لبنان والأمر بوسعه، والمشاكل في كل صعيد في الامارة اللبنانية . فمال الى العيث في الشهابيين بما لا سبيل فيه الى اندمال الجراح. وحرض الأمير يوسف على خاله الأمير اسماعيل كي ينتزع منه مقاطعة مرج عيون. وأوفد الى الأمير اسماعيل من يعالنه خفية. بأن الجزار لا يبخل عليه بمقعد الامارة إذا شاء أن يسدّ مسدّ ابن اخته المغتصب

وهذا الدسّ رضيت عنه فيروز وما أقدم عليه الجزار لسوى خطب ودها. قال وهو يمتنّ عليها بما بذل في ارضائها: هل ابتهجت الآن نفسك؟... قسماً بخالقي، ما عرفت لسواك دالة عليّ. أختك نسل شاه لم تكن تخاطبني بلهجة الأمر الشائعة في مقولك، بل كانت تبدي لي من الطاعة ما تكاد به تمحى وتطلق لي فيها يدي. ومن الغريب أن امتثل لمشيئتك مغلوباً على أمري وأنا السيد البطّاش المذلّ الجباه!

فاستطالت في بيانها معلنة بانتفاخ: ما أطلب منك إلا البرّ في يمينك. أفما تذكر ما عاهدت به روح نسل شاه في مدفن القبة في دير القمر، وما أفضيت به مراراً على مسمع منا؟... نحن قوم نخلص لمن أخلص لنا. فلماذا الجنوح عن الانصاف؟

فجاشت فيه نقمته وما انفك يلمس في فيروز الميل الى إحراجه فهدر: شموخك يجرح أنفتي، فهلا عدلت عنه؟... لست أطيق منك أن تخاطبيني

بفياشك الخشن وأنا سيد هذا الجانب الرحيب من الشرق . فاخفضي من اعتدادك بنفسك وأنت تسوقين إليّ الكلام . وما كان لي إلا أن أقدر عليك الترصن في حضرتي ولي من أساليب التأديب مالا يعزّ عليّ في ترويضك. غير أن لك بين جوانحي مودة أقوى من سيطرتي على نفسي تكرهني على احتمال غنجك . فارفقي بي وبك !

وما فتىء يتوعد. قالت فيروز وما كانت تلين : لو جنحت بك الى ما لم تبايعني عليه لعددت نفسي وقحة ، ولأبيت على ضميري أن يتطاول على عزتك . ولكن عهدك ما يزال يرنّ في أُذني وعليك أن تبادر الى الوفاء وهو من سجيتك كما يشوقني الظن بك. فالأمير يوسف وقد أمسى في متناول يدك ليس له أن ينعم طويلاً بمرأى النور . هلا أبحته للشفار ?

فقبضت يده على فأسه وقد كاد يختنق بالزهو الفاشي في امرأته . بيد أن حبه لهذه المستأسدة عليه قعد به عن تهشيمها وما يبرح يذكر بها حبه الأول ويلقى فيها نسل شاه . فابتسم ابتسامة المكره على التماسك يبدد بها من حنقه وقال يلاين الناشزة : ستسقط فيروز على شهوتها . فالشهابي قارب حفرة العدم . وسنبصره يغور فيها ونسدّ عليه بأيدينا فوهتها . فاركني إليّ في العهد المقطوع !

وجذبها إليه يعانقها ويبعث في نفسها المرح . قالت : أقتله ولن تجدني بين يديك على سوى ابتهاج وليس من طبعي الحرَد !

فأعلن جازماً : أيامه أضحت كالدخان في مهب النوء وليس لي أن أتغاضى عما أوثقت به نفسي عند ضريح أُختك. فانشري في صرحي المسرّة ولنعش من الحبور على جمام . فلن أُبيح للظل الدميم أن يمضي في تنغيص رغدنا !

وما طاش سهمه عن إضرام الفتنة بين الشهابيين . فالمناكدة وقعت بين الأمير يوسف وخاله الأمير اسماعيل شهاب سيد حاصبيا . ففي مرج عيون موارد وافرة الريع يستدرها الأمير اسماعيل ويسدّ بها ما ينتابه من عجز . فإذا ضاعت عليه ضاق به القيام بالاعباء . وهفا الى ابن أخته في دير القمر مستجيراً هاتفاً : رفعك الله وأعزك، ماذا فعلت بخالك؟.. روحي فداك ، أتسدّ عليّ المنهل الرويّ ليستأثر بي الظمأ ؟... مرج عيون بُحَيرة من ذهب تدرأ عني الفاقة فما بك تحرمني إياها وتشقيني ؟

فأجاب الأمير يوسف غـــير متأثر بلهفة أخي أمـه : ولكنها مشيئة ذلك الرابع بصرح عكاء يا خالي. فلا يد لي في ما وقع والجزار قضى وأبرم. وجحته عليك أنك أغريت نفراً من غلمانك باصلان التاجر اليهودي فقتلوه وسلبوه ماله وهو المتردد الى حاصبيا في ترويج أعماله !

فصاح الأمير اسماعيل يتبرأ من التهمة : أأنا حفزت اليه من ارداه؟... انه لافتراء باطل يا ابن اختي . وحقك، لست أدري من بطش به . وبحثت فما اهتديت . أأدين الطهارى ولن يطمئن ضميري الى النيل ممن لا دليل لي على اقترافهم الجريمة ؟

فظل الأمير يوسف متمسكاً برغبة الجزار . قال يبدي معاذيره: والله، أصبحت لا أملك أمري في قومي وكأني فيهم خيال . فالسيد المطلق يقيم في عكاء يقرّ ويمضي وعليّ الاذعان لمطلبه، والا قضى بعزلي . وليس يخفى عليك ما عانيت من دلاله . فهل يشوقك ان يعود الى إذلالي ؟...لا قدرة لي على إنالتك نزراً من بغيتك وما ينصفك غـير الجزار نفسه وهو مولانا جميعاً . فاشخص الى عكاء والتمس منه ان يعيد اليك ما اغتصبتك إياه وانا

في طليعة من يتخلى الك عما ترى فيه حقك الصادع . فلست غير عبد مأمور يا خالي !

فصرخ الأمير اسماعيل يستجدي العطف: رحماك ، لا تدفعني الى الجزار فيأكل لحمي، بل انقذني بنفسك من شره. فما أطيق الظهور بين يديه وهو يضمر لي البغضاء . إدفع عني المحنة وانجدني يا ابن اختي. أما ترفق بي وليس لي من مجير سواك؟... الأمر بوسعك فلا تخذلني . فلن تقوم عليك قيامة الجزار اذا تشفعت في خالك لديه والتمست عفوه عني !

واسترحم الأمير اسماعيل بذلّ فاضح . وأغار على رجلي الأمير يوسف يقبلهما . ولكن الحديد ظلّ حديداً . فما التوى ولا حنّ وكأن الأمير يوسف لا يسمع ولا يرى. فغاظت القسوة الجافية الأمير اسماعيل ونأى عن صرح دير القمر وفي صدره غلّ كاسح طروح . فما دام الأمير يوسف لا يرقّ ولا يغيث فسوف يكيل له من عطائه ويحرمه المنصب المنيف . ليأخذ حياته الجزار على ان يبيح له لومضة عارضة امتلاك المقاليد في دير القمر

ووثب الى السيد القاطع . فلا بأس ان يحترق بنار الجزار بعدما صبّ عليه ابن اخته الزيت وأضرم فيه اللهيب. فقد يعطف عليه والي صيداء مع وفور غلاظته ويقيه الانطفاء . أما سقط اليه ان الجزار يغفر له اذا لجأ اليه مستنجداً به وقد يمكّن له في جبل الشوف ؟

ودخل مقر أحمد باشا في صيداء ، وقد انتقل اليها لبعض الحين ، دخول المستميت . فان لم يفلح فما أهون عليه ان يمدّ عنقه للسيف الباتر . واستأذن على احمد باشا معلناً : الامير اسماعيل شهاب ، حاكم حاصبيا !

وانتفضت الحاشية جمعاء والاسم يتجاوب فيها . فأي انقلاب تحاك

خيوطه ؟... أيسقط هذا الرأس الضخم عن منكبي الامير اسماعيل ، أم يخرج ظافراً تيّاهاً ؟

وأجاز له على الفور أحمد باشا المثول بين يديه . قال بانشراح صدر : ليدخل الأمير اسماعيل . ليدخل !

والأمير اسماعيل ما بدا في صيداء خالي اليـدين ، بل حفل موكبه بالطرائف والنفائس يزجيها الى السيد المهيب . ومثل في حضرة الجزار وقد انحنى حتى كاد ينخلع . وقبّل يد الطاغية قائلاً بصوت لهيف ، ذليل : نحن عبيد مولانا . فاذا شاء ان يقتصّ منا بسفك دمنـا فإننـا لنهب راضين لنصلته أعناقنا . غير أننا ما اقترفنا ذلة يا سعادة « افندينا » والأرض والسماء تشهدان !

وألقى بين يديه الهدايا السمان . وتبيّنت باصرتا الجزار العطايا الغوالي فتماسك عن تفجير الغيظ . وما يحمل على الغيظ وما جرّ اليه الأمير اسماعيل لسوى رفعه الى سدة الامارة في دير القمر ؟... فيربع بأريكة الحكم ويتدحرج عنها الأمير يوسف الى أعماق القبر . فالانتقام لنسل شاه بات فرضاً لا ندحة عن القيام به إخفاتاً لغضبة فيروز المستولية على العنان

ورقب الأمير اسماعيل ان تتحرك شفتا الجزار بما يدله على مصيره . بماذا تختلج هذه النفس المتقلبة الرأي ، المجهولة القرار ؟... أيطويه الجزار جثة مرضوضة ، أم يعهد اليه في الامارة اللبنانية كما وقع في أذنه وما زال يلمس في النبأ الخداع ؟

على انه لم يبرح مؤمناً بأن في شراسة الجزار ليناً تخلو منه حتى شفقة الأمير يوسف ، ابن اخته ، وقد عدا بفظاظته خشونة والي صيداء . وتكلم

الجزار فقال ببسمة جهل الأمير اسماعيل معناها : أتريدنا على اليقين بكونك نقيّ اليـد من دم « اصلان » اليهودي المنكوب يا اسماعيل ؟... ولكن رجالك قتلوه والبراهين موفورة لنا . فكيف نبعد عنك التهمة وهي ثابتة لا تدحض ؟

فهتف الشهابي خشيان يتنصل : وحق من خلع عليّ منّة الحيـاة نحن أبرياء من الدم المسفوك يا سعادة الوالي . لك ان تنتقم منا اذا شئت ، غير انك تعاقب جماعة أصفياء الروح وانت تقتصّ من جماتنا . واني لألقي بين يديك دمي فاسفكه وما عليك حرج !

وجثا بين يديه منحني الرأس يعرض عليه رقبته. فابتسم الجزار وساءل نفسه : « أأجد في هذا خلف ذاك ، فيتولى الامر في لبنان ويقيني المتاعب، وأُسكت به حنق فيروز؟ ». ومال الى حسم الداء. فما عليه وقد سعى ؟... قال متخابثاً : سلمتَ يا اسماعيل . فلن نخضب بدمك شفارنا . قمْ وانهض. أنلناك الامان . بل تعال نتحدث عن الحالة. فان بي شوقاً الى سماع رأيك في ابن اختك أمير لبنان !

فعادت الى الأمير اسماعيل الروح . عفا عنه الوالي الرهيب السفّاك . والتمعت في باصرتيه اضواء الامارة اللبنانية والجزار يلوّح له بها. فأكبّ على يدَي أحمد باشا يقبلهما تكراراً وهو يقول : أنا غريق نعمة « أفندينا ». واني لفي طاعته مدى الحياة !

ونهض من مجثمه وجلس بجانب الجزار جلسة قلقة كأنه يرتاب بكونه نجا من الشدة . والتفت منبهراً الى الوالي الضاحك من الرعشة الممسكة بروع الأمير وقد لمس فيه الخوف والرجاء يعتلجان معاً .وما انفك الأمير لا

يؤمن بالنجاة . قال الجزار وما برح يلهو باضطراب الشهابي : أترى ابن اختك ذا قدرة على تسيير الدفة في لبنان يا اسماعيل ؟..والله، ما يبدو لي إلا قاصراً . فكيفما جئته أبصرته على كبوة . ألا قل لي ، من تجد فيه الكفاية من بني قومك الشهابيين فأطلق يده في جبل لبنان وأزحزح عني هذا العبء الثقيل ؟ ،

فارتبك الأمير اسماعيل في ما يأذن به . أيجدّ الجزار في القولة أم يسخر بجليسه كعادته وليس لمن يسمعه أن يدرك صحيح قصده ؟... وتبين احمد باشا في الشهابي الحيرة المتفاقمة فقال : أصدقني الخبر . فاني لأرغب في الخلاص من ابن اختك وما كان إلا طائشاً، ركيكاً ، مخاتلاً. من يصلح منكم للحكم في لبنان ؟

فعرض الأمير اسماعيل انسباءه اجمعين مستطلعاً بتعتعة المتقي : ماذا وضح لسعادة الوالي من الأمير سيد احمد ؟

– الامير سيد احمد لا يقوى على الاضطلاع بالمهمة منفرداً يا اسماعيل !

– والامير بشير قاسم شهاب ، أي علة فيه ؟

فقلب الجزار شفتيه واعلن بتردد : ما يزال صغيراً !

فحدثت الامير اسماعيل نفسه باقتحام الميـدان وقال باندفاع المرتجي خيراً : ان يكن الامير سيد احمد غير كفيء وحده فسأكون شريكه في اقتعاد الأريكة يا « افندينا ! »

والجزار يرقب هذا البيان فاستفهم : أتكونان على قدر التبعة يا اسماعيل اذا خلعت الامارة عليكما معاً ؟... والله ، في مشتهاي أن أقدم على هذه المحاولة . فما رأيك ؟

فهتف اسماعيل بجيّاش الأمل : رأيي اننا نفلح فيها ما دام عطفك ورضاك مضمونين لنا !

وصلبت شكيمته وقوي جأشه . وطغى على الجزار جشعه فاستوضح : وكم تؤديان عنها ؟

فلاح للامير اسماعيل ان للجدّ يده الطولى في المباحثة ، وان الجزار يساومه على الامارة بصراحة لا مواربة فيها فقال : نؤدي الى سيدنا الوالي ما عاهده عليه الامير يوسف نفسه . فعلى اي مبلغ تواضعتما يا صاحب السعادة؟

فأجاب الجزار بمرارة : على ثلاثمائة الف قرش يا اسماعيل ما تقاضيت منها غير النزر الضئيل من برّاق الفضة ، والجمّ الغمر من كاذب الوعد . فالأمير يوسف يمضي في مخادعتي غير هيّاب وهل لي ان اركن الى قاتل أخيه ؟... ألا ماذا يرتجي الفضل والنبل ممن يبطش بيده بابن ابيه ؟

واتقدت فيـه ضغائنه فزمجر وقد انتصب واقفاً يزري بكل معاند : ليعلم ابن اختك يا اسماعيل اني لا اغتفر الشذوذ حتى لنفسي. فما دام يتجنب الوفاء فلا يرقب مني أن أستبقيه عزيزاً مكرّماً . وإن يكن خفي عليه ما تبطن قلعة عكاء فليعلم ان فيها سيوفاً بواتر ،وانها ما تخلو من مدافن نواري فيها العتاة !

فارتعد الامير اسماعيل هولاً . ومضى الجزار في الاعلان الناقم قاصفاً : عرفت ذلك الخفيف النهية . ان هو الا صدى وصيّه سعد الخوري . وسعد بات طاعناً في السن فضاع عن جادة الصواب . بل ان سعداً أضحى يرى في الجميع آلات يتلاعب بها ، ألا خاب فأله . هلا استثنى الجزار ؟... سأنسفه كما تنسف قذيفة المدفع دعامة متصدعة . وسأتبعه سيده ، بل وليده ،

وما يبرح الامير يوسف ذلك القاصر عن الرشد . فالامارة لك يا اسماعيل ولسيد أحمد . والجزار يبايعكما على المنحة وما تذهب هدراً كلمة ينشرها أحمد باشا والي صيداء !

فطابت نفس الامير اسماعيل . لقد انتقم من ابن اخته الغليظ المهجة وسيحل محله في السدة . قال يشكر للوالي عطفه الأثيل : ان ما يتكرم به علينا سعادة الباشا لهو أرفع ما يكافىء به المولى أصفياءه . فلقد انتشلتنا من بؤرة الضيم ايها السيد الكريم وبنيت لنا مغنى باذخاً من المجد . وسوف ترى اننا ممن يذكرون اليد البيضاء كما لا ننسى قبيح العملة . فالامير يوسف يلقى جزاء صلافته وقد كفر بمبرّة « افندينا » . وهل كان له ان يرجو الارتقاء الى القمة بعد عبثه بحلم صاحب السعادة ؟... لقد احتملت فيه ما لا يطاق يا مولانا وما قابل احسانك اليه بسوى الجحود . أما نحن فنعاهد على خالص الوفاء . بايعناك على ثلاثمائة الف قرش وسنزجيها اليك كاملة لا تنقص قرشاً !

وتصافحا يعقدان الصفقة . قال الجزار : هلا دعوت الأمير سيد أحمد لأقلدكما معاً المرتبة السامية ؟

فأوفد اسماعيل الى الأمير سيد أحمد من يحثه على المجيء الى صيداء قائلاً له : اسرع . احمد باشا يرقب مجيئك اليه لأمر يحوز ابتهاجك !

والأمير سيد احمد في الشويفات ، فركب منها البحر الى صيداء . وحبا الى مقر الوالي يحيي احمد باشا ويقبل يده ، ويقول بوفر من خشوع وانحناء : مولانا أمر بوقوفي في حضرته ، واني لأمتثل طائعاً لمشيئة صاحب السعادة مولانا !

فقال الجزار بابتسامة الايناس: مرحباً بك يا سيد احمد . اني لاستجيب فيك نداء خالك الامير اسماعيل وقد طلب ان تشاطره الحكم في لبنان . فهل لي ان اثق باجادتك التدبير ؟... لم اكن راضياً عنك بالامس الرضى كله وقد اخفقت وانت تركب وشقيقك افندي السدة، فهل تعدني بان تتقي ما بدر منك من هفوات وانا اجود عليك بخلعة الامارة ؟

وتكلم الجزار بمفرط الدماثة . فاستنام اليه الامير سيد احمد وقال : ما كنت لابتغي سوى عطف مولاي المعظم. فاذا نفحني برضاه فاني للموفق السعي أبداً . وإن تكن العثرات دهمتني في ما سبق لي من عهد في امتلاك الاعنة، فسأتقيها وقد تمرست بالامور، وأكون عند ثقة سيدي بي. ولن يخطىء من كان الجزار له عضداً !

فاعجب الوالي بنداوة مقال الامير واعلن مستبشراً بمسعاه خيراً : انت واسماعيل السيدان المطلقان في لبنان يا سيد احمد . واحسبك اطلعت على ما ارتبط به خالك عنك وعنه من ركين الميثاق !

فابان وهو يلتوي في حضرة الجزار: ما يقرّه خالي يا سعادة الوالي يشملني وكلانا في طاعة « افندينا » الباشا !

فامر الجزار بان ينادى في الاسواق بخلع الامير يوسف عن مرتبة السؤدد في لبنان ورفع الاميرين اسماعيل وسيد احمد اليها. على ان الصدى ما لبث ان طرق مسمع احمد باشا قبل ان يركب الاميران المغبوطان الى دير القمر يربعان بصرح الحكم فيها . فالامير يوسف، وقد نمي اليه ان خاله اسماعيل، واخاه سيد أحمد، شخصا الى صيداء لتقبيل عتبات الجزار، فطن الى البغية وهاج وهدر . وما كان سعد الا ذلك المؤيد في الشقشقة والفتنة . فزعق

الأمير : لم يبقَ محيد عن النزال . فإما أن يطحنني وإما أن أسحقه . بات الرضى عن السخر بنا انتهاكاً لحرمتنا . فلنضرمها ولنحرق بها الغادر، وإلا فلتحرقنا ولتنثرنا ذروراً !

وهجم على قوات الجزار في جباع، على مقربة من جزين، فدحرها وذهب بمائتين منها . واستعان بالشيعيين في الجنوب وببني مرعب في الشمال فنصروه على والي صيداء . وتساقطت هذه الصدمات دراكاً على أحمد باشا فصرف باسنانه قهراً . إلا أنه ما تضعضع حيال المناكدة . فجهز الأميرين اسماعيل وسيد أحمد بالجيوش وبالمؤن . وكتب الى الجنبلاطيين يحثهم على المساندة. وصاح : ليحتمل الأنكد إن يكن قويّ العضل !

والجنبلاطيون لم يتلكأوا عن الاجابة . ومشى في النصرة الأمير بشير فأيدته السهول والصرود . وارتبك الأمير يوسف ولم يبق حوله ذو همّة . فالتفت الى سعد يستغيث بالدهاء العتيق : ماذا يا سعد ؟

وتلطخ وجهه باكفهرار الهلع . وارتخت عزائمه . فهو أشبه ببائع الطين وانسكاب الرذاذ يفنيه . وأجاب المتلفع أبداً بالجبة السوداء ، السادر في حداده الدائم سواء ضحكت له الدنيا أو عبست : لنرحل يا مولاي !

وأطلق كلمته وفي قلبه ذخرٌ من غصص . على أن الصبر ما انجلى عنه وللنوائب أن تأكل من طول أناته فلن تقع منه على سوى صخرة لا تتفتّت. فزعق الشهابي وهو يرتعد غيظاً من جواب سعد أكثر منه من طغيان الجزار : أنرحل يا سعد ؟... ماذا تبدي أيها الفاحم الجلباب ؟... ألم يبقَ من دواء غير الرحيل ؟

فزفر سعد زفرة المتبرم بأساه . لا دواء غير الفرار وإلا تعاظم الويل .

والتفت الى الأمير يقول بوفر من رباطة جأش ويقظة : الرواية تعاد أدوارها يا صاحب السعادة وعلينا أن نجري في تيارها طائعين، وإلا جرفنا على رغمنا . فالجزار يلهو بنا كعادته ، فلنطلق له يده في لهوه وسيوقن أنه كان خاسراً . فكما أخفق أفندي وسيد أحمد سيخفق سيد أحمد واسماعيل . ليجرّب والي صيداء وما تزيدنا التجربة إلا صقلاً وإشراقاً !

– ونخلع أنفسنا عن أريكة الحكم ؟

– لا بأس يا مولاي الأمير . لنفزع الى النجاة قبل أن تصرعنا العاصفة الهادرة . سنرجع والغد لنا !

فنزع الأمير يوسف الى البقاء لا يلين في مجابهة الرزيئة . قال يتوعد : ولكني أربأ بنفسي أن أكون جباناً يا سعد. سأصادم الطاغية حتى إذا بقيت في النزال وحدي !

فأعلن سعد بحكمة عاجم العود ، الملمّ بالمصير : علمتني الأيام يا سيدي ان القدرة ليست في اقتحام المنايا، بل في اجتنابها. حتى إذا ما مرّت الزوبعة بسلام ساعدت الحالة على امتلاك الرسن . لندع خالك وأخاك في سعيهما الأخرق وستتكشف الخطوب عن خذلهما . فما للجزار سوانا في رعاية هذا البلد . وهو مؤمن بأن سعادتك وحدك تصلح لاقتعاد السدة . غير أنه يستطيب الاحراج ومن طبعه القهر والنكاية . لنترك له التدبير وسيضطر مكرهاً الى الاستنجاد بنا !

فصعب على الأمير أن يرحل مرة أخرى . فلماذا لا يموت في النضال عن إمارته ولا كانت الزلة ؟... بيد أن سعداً أنكر عليه حماسته النافلة هاتفاً : ليس لنا ان نتعرض للنازلة الكاسحة يا مولاي. فالموقف لا يبعث على المقاومة ولبنان أجمع أفلت منا !

ودفعه الى الجلاء عن دير القمر معلناً : ليس لنا غير بسكنتا نعتصم بها وهي أمنع قرار . فلنلجأ إليها ولنرقب فيها دلال القدر !

فاستولى على الأمير البحران. وألقى زمامه الى مدبره وهو أصدق رأياً .

قال بلوعة الخاسر : إن الجزار لضربة حاصدة يا سعد . فما عرفت النوائب قبل أن يبدو لعيني هذا المحتال. لو أحسنت صنعاً لطرحته لأبي الذهب يمعن فيه تعذيباً وتنكيلاً . بيد أني صنته فجازف بي . وحفظت ماء وجهه فأباحني لكل مذلة . تباً للئيم كم يغوص في الدنيئة . لو كنت أقوى على سحقه لأوديت به الساعة . ما ندمت على هفوة ندمي على الترحيب بهذا الرجيم . فإني لأقرّ بجهلي الناس وما أُشفق على معدم حتى يستأسد عليّ ويروم بي شراً . أُف للناس من انذال يا سعد !

وأفاض بأشجانه . فهو على نقمة ويأس يهزّان كبده. وصاح بنسائه بشديد الخجل من نفسه ومنهن : علينا بالنأي عن هذه البلدة . فالجزار يزجي إلينا الكوارث . إن الوغد ليضمر لنا الهلكة !

وانحنى كأنه شيخٌ همّ . وأصابه دوار ضاعت به عليه المسالك. فهو لا يدري انى يتجه. وجهل ما يتفوّه به وما يسعى له وقد بات شتيت الذهن، كابي الخطو . وطفر بجرمه الى بسكنتا وكأنه في حلم خانق . هذا كابوس ينزل به ويضيّق عليه مدى الأنفاس.وسمع سعداً يقول: « كم طلبت اليك ان تبعده وانت تحرص عليه كأنه احدى عينيك ، او شطرٌ من قلبك . أفما يدري مولاي الأمير ان المظاهر تخدع ، وان الغادر لو كان ذا قدر ووزن لاستبقاه علي بك الحكيم ومحمد أبو الذهب ؟... ولكنهما عرفاه ماكراً زنيماً فلفظاه نفاثة موبوءة.ومن الموجع ان نكون فتحناله صدورنا

وهو النجس فأخبث جونا ، ورمانا بالمتالف تمحونا. أمسينا تحت رحمته وكان يستجدي عطفنا ! » . فتملمّل الأمـير يوسف حيال تنديد سعد به وهتف بحرقة : عفواً عني يا سعد . إني لاجهر بخطيئتي فاغفرها لي . ما سقطت به على سوى أفعى زنخة نهّاشة . فاطلب الى ربك ان يجود عليّ بعزيمة يتوافر لي بها طحن الكنود !

وما كفّ عن الزفير . فهو يعاني مضض الجرح النعّار وما أبقى فيـه والي صيداء على نزر من صفو بال . وأطلق اليه خاله الأمير اسماعيل من يدعوه الى براح بسكنتا والتخلي عن إمارة الشوف مكتفياً ببلاد جبيل . فرفض وصرخ بالرسول وهو يفور غيظاً : ابلغ خالي ان سهماً قذفني به لن يستقر بحشاشتي ، بل سأنتزعه منها لاسدده الى راميه . فليحـذر شرّ اضطغاني ونقمتي !

فحزّ الجواب الملتهب نفرة في أضالع الأمير اسماعيل وصاح بشريكه في الحكم : علينا بنبذ الغرّ يا سيد أحمد. ما عرفت في غباوته وفي أشره . يكاد يلتصق بالأرض ذلاً وحقارة ويأبى الا ان يناطح السماء. فكأنه الفراشة الحائمة على السراج . يلذعها الضوء ولا تبتعد عنه ، بل تقتحمه لتحترق به . هلمّ الى الخلاص من الأخرق !

وأهاب برجاله الى المطاردة. وانقضّ على بسكنتا فنأى عنها الأمير يوسف الى جبيل . ومشى الأمير سيد أحمد الى البترون فاذا بالأمير يوسف يحتجب في عكار . بل هو جلا عنها لاجئاً الى صافيتا . فرحب به صاحبها صقر بن محفوظ وأنزله بجانب طرطوس . ومـا هي أيام ثلاثة تنقضي عليه في تلك العزلة الموحشة حتى ورد عـلى مدبره الشيخ سعد الخوري رسالة من المعلم

مخايل سكروج ، مدبر امور الجزار ، تزين للأمير العودة الى لبنـان وله الأمان . غير أن سعداً ما اطمأن الى الدعوة ، بل لمس فيها نفس الجزار الماكرة . قال يخاطب الأمير : لست أجد في تضاعيف السطور غير حيلة لاقتناصنا يا صاحب السعادة . والي صيداء لا يجهل أننا نقلقه ونفسد عليه مجهوده ما دمنا على طلاقة جناح فنهد الى اعتقالنا . لن يهنأ له خاطر إلا وقد أسرنا . وكتاب السكروج خديعة لامساكنا . فلنبقَ حيث نحن وليس لاعدائنا ان يصلوا الينا !

فاشتدت بالشهابي الحيرة . أيصغي الى مقال مستشاره أم يعمل بمشيئة الجزار؟.. قال يسوق الكلام الى ذلك المغلّف منذ نشأته بالدهمة : ولكننا اذا عبثنا بمنطوق الكتاب تفاقم حقد الطاغية علينا . وقد يعفو عنا ونحن نلبي النداء . أما ترى في الاعراض عن الاجابة اهانة يستشري بها كرهه لنا فلا يغفر لنا صدودنا ؟

فما استطاع الشيخ سعد مع وافر حنكته أن يخطّ لأميره نهجاً . فخشي اذا أيده في الرأي ان يجازف به . واتقى حرمانه السؤدد إن هو حفزه الى الممانعة . فاكتفى بان يهزّ كتفيه وبأن يحبس في صدره كل نأمة . قـال الأمـير وأمله بالرجوع الى مرتبته يغريه بالامتثال لمشيئـة الوالي الرجراج الشهوة : سنتكل على القدر سعد . بقاؤنا في هذه الأقاصي أشبه باقامتنا في الأسر . فلنثق بذمة الجزار مرة ومهما بلغ من جفائه لنا فسيظل يذكر حدبنا عليه يوم فسحنا له الى نعمائنا !

فظل سعد يرتاب بامانة والي صيداء . إن هو إلا الغدور ، الرثّ الحفاظ . على ان شك مدبر الأمير في سلامة نية أحمد باشا لم يحمله على اعتراض مولاه

في الشهوة . فلا بأس ان يجري صاحب السعادة علـى هواه . وراق الأمير ان يمضي في وجهه فقال : لا جناح علينا في العودة يا سعد . لنرجع الى لبنان وهو منبتنا ومسرح صبوتنا !

فوافق سعد بعدما جلا عنه كل تبعة . وأشرف موكب الأمير على لبنان والجميع في سهوم ووجوم. فما ينطق أحد بكلمة كأنهم في جنازة صفيّ . أيصدق الجزار ، أم يداهن ليجيد الاستئصال ؟

وما فتئ الشهابي يستعيد ذكرى الماضي ويتمثل خيال نسل شاه . فان ما أصيب به فيها الجزار من حرمان قضى بجميع هذه الارزاء. فليت جاد بها عليه الأمير وسلم من كل ما يعصف به من شدة . إذن لبقي الجزار في لبنان وما شخص الى استانبول في التماس ولاية يسيطر بها على من فجعوه بالمنى

وانتفضت في ذاكرة الأمير أقوال الوصيفة جؤذر . فما ينهد الجزار وحده الى الانتقام وثمة فيروز ، شقيقة نسل شاه ، وهي تحرص على سفك دم الشهابي . وساءل نفسه وقد أشرف على تخوم لبنان عما يعتزم . أينكص أم يدخل أرضه ووطنه ؟ ... وارتجف وأفرط لونه في الشحوب . وبحثت عيناه عن سعد . أين صاحب الرأي المنقذ ؟... فأشار سعد بالمضي في الرحلة والتقهقر بات جبناً وعاراً . وتغلغل الموكب في لبنان . وأذن الأميران اسماعيل وسيد أحمد برجعة الخصم الموتور فارتاعا . فما يبدو المنافس في الامارة لسوى انتزاعها من أيديهما . وفزعا الى الهرب وقد سقط اليهما ان الجزار رضي عن الأمير يوسف واستدعاه يمهد له الى المأمول

وفي بلاد جبيل وقف موكب الأمير . وتبودلت الرسائل بين الشهابي والجزار ، وبين سعد والسكروج ، تستوضح وتستقصي . فما تلكأ الجزار

عن الجهر بالأمان . ليظهر الأمير يوسف في بيروت ولا عليه . والجزار يقرّ في بيروت وقد بدا فيها يستطلع الحالة . وتهادى إليه الأمير يوسف على وجل كأنه زاحف الى منيته . أينجو من الهلكة أم يتدحرج رأسه وقد دنا أجله ؟

وتردد، بعد لجاجته في التلبية، في الوقوف بين يدي الوالي المجهول الطوية . فإن هذه الحلاوة المنشورة في مقول الجزار الحلوب لتبعث على سوء الظن . وجميع من لاذ بهم في المناصحة مالوا به الى الاحجام ، إلا سعداً . فعالنه أبو غندور بضرورة الدخول على الوالي بعدما قطع إليه مديد الأميال . فليس له أن يتراجع وقد أوشك أن يلج الباب . وتمادى سعد في البيان فأعلن : يلحّ الجزار في استئذانك عليه ويعدك بالأمان وباعتلائك الأريكة . وإذا أبيتَ فلا تطمع في سيادة . كان لمولاي أن يصدف عن رغبة الوالي وهو هناك، في صافيتا ، أما وقد وطىء عتبة بيروت فلا مناص له من الظهور في حضرة مناديه . فالسكروج عاهدني على فوزك بالعائدة المرجوّة وأنت تبدو إزاء مولاه !

فلم تنم في الأمير هواجسه . ليس الجزار بمن يؤتمن على الأرواح . على أنه ملك عزمه واستند الى طالعه . فإذا خيّبه حظه فالموت مقبل إليه لا محالة . ولن يضيره أن يسبق إليه الموعد وهي ميتة حاتمة لا مفر منها وأبعد عنه رجاله . فلماذا يؤخذون بجريرته ؟... قال : دعوني أمثل وحدي في حضرته . فإذا طواني نجوتم . وانتظروا في حدث بيروت عودتي إليكم . فإذا بدوت فيكم فقولوا : « توهجت المنى ! » . وإلا فرحم الله أميركم . أُطلبوا لي أن أرجع فأراكم بسلام !

فتفرّقوا عنه وقد اغرورقت عيونهم . إنها لوقفة طافحة بالألم والرهبة .

أميرهم بات في ذمة القدر وللويلات أن تشحذ أنيابها . فهو على ضؤولة من نجح ، وعلى فيض من خذلان وكأنه يقتحم عرين ليث غضوب ، بل وجار نمر ضروس. وما رافقه الى هذا الوجار غير سعد. أما الآخرون، وفي طليعتهم غندور ابن الشيخ سعد نفسه ، فاستقروا بالحدث يرقبون فيها كلمة القضاء المبرم الكامنة في حواني الوالي الغامض النزوع

وتراءى صرح الوالي للشهابي أشبه بالمصيدة . فما أن يدخله حتى ينغلق عليه بابه ويمسي رهن دلال أحمد باشا المتلذذ بالتكدير والتعذيب . على أن الجزار هشّ وبشّ فحيّر. وفتح صدره للأمير يعانقه لدن أطلّ عليه . وهتف بحفاوة وإكرام : ألا مرحباً بالصديق الصفيّ . والله ، ما عرفتك تستطيب الاشاحة عن اخوانك . فما قعد بسعادتك عني وأنا بشوق صارخ إليك ؟

فتعجب الأمير ومن حوى المجلس من هذا الايناس الحميّ . إن الغرائب كلها في الجزار. أيلقى بهذا البشر المستفيض من أقسم على حذفه ؟... والشيخ سعد الخوري مع تمرسه بالآفات عجز عن الالمام بمطاوي أحمد باشا . أجادّ أم هازل ؟... أخصيم أم وديد ؟... ما به يحفل بالاضداد وليس حتى لمن يدنو منه أن يتبين أمره ؟... والتفت الوالي الى سعد يقول بطافح المسرة : وأنت يا شيخ سعد ما عرفناك تقلونا ، فما بك تستوحش منا ؟... نحن ما نزال في المودة حيث كنا وما نبرح من إخوانك الأوفياء !

فرهب سعد هذا اللقاء الجميل الديباجة . ألا ماذا يبطن من رزيئة ؟... على أنه ابتسم وقال بمجاملة حفلت بالرثاء : أمدّ الله عمر « أفندينا » . نحن في ظلاله نحيا ومن نعمه نستمطر الرخاء والبقاء. وإذا أمسكت بنا عنه الليالي فقد حان لساعة الصفاء أن تأزف وأن يلتئم الشمل !

ومشى إليه محدودب الظهر يقبل يده . مع أنه تمنى لو وقعت شفتاه على الشوك والدرن ونجتا من السقوط على يمين الجزار تلثمانها بخشوع وهي المخضبة بالدم ، الغائصة في انتهاك المحارم . ولكنه مزاح القدر الغليظ . ونال سعد في نفسه من رعونة الأمير يوسف . جهالة الشهابي قادت الى هذا الانقلاب المنكر فأضحى السيد عبداً زرّيا ، والعبد الزريّ سيداً ذا خطر

ولم يحجم الأمير يوسف عن تقبيل يد الجزار ، على حين كان يعفّر جباله الجزار في التراب جبينه . فطبع عليها شفتيه بمذلة المنكسر ، المسترحم ، وهي الواهبة له الجاه والحياة ، والقاضية عليه بالضيم والاضمحلال . وقال وحنجرته تنتفض بالغصة ، وفؤاده ينعصر غمة : إننا لنمثل في حضرة مولانا تلبية لندائه وما كنا لنعصي له أمراً !

فقهقه أحمد باشا قهقهته التالدة فارتعدت الفرائص خوفاً . وحار الجميع في تفسير مرمى هـذه الكركرة وقد انفجرت في موقف يحتاج الى المؤاساة لا الى الضحك . وأَحس الشهابي ومدبره بخور العزمات . هل آن أوان التحطيم ؟... وتراءت لهما فأس الجزار على وشك القطع .بل شعرا بها تفرعهما وتغور في الهامتين زهيفة قانية . فندما على الاجابة وما الركون الى الجزار غير ضرب من البله

إلا ان الملاطفة عقبت القهقهة في أحمد باشا .وهي لون من ألوان التناقض في الجزار وليس من يدري هزله من جده . قال يخاطب الشهابي : أنت عندنا مأمون الجانب يا سعادة الأمير . فما كانت هذه الأكتاف لأمثالك سوى رحاب الطمأنينة . قدرك موفور ، وغدك مضمون . فما ناديناك كي ندينك ! فقلقل لبه . أيسكب الجزّار على الجراح البلسم ، أم يصبّ السمّ ؟...

وتقلّب الأمير طويلاً على شك ويقين وهو يجهل مصيره. أرحمة أم انتقام؟... أحياة أم موت؟... والجزار نفسه جهل ما يقدم عليه في الشهابي. أيقتله أم يخلي سبيله ويعيده الى أريكة الامارة؟

على أنه ما نسي وعده لفيروز امرأته. فالموت للأمير. ليلفظ ألف شهابي أرواحهم ولتسكن فائرة أخت نسل شاه. فالانتقام لضحية الظلم بات مقدوراً. ونهض الجزار وقد أقرّ أمر الشهابي. ومشى الى الميناء يقتعد سفينة شقّت به البحر من عكاء الى بيروت وستعود فتنشر ما طوت. ودعا إليه الأمير يوسف قائلاً له: أنت ضيفي في قلعة عكاء يا سعادة الأمير!

فامتقع لون الشهابي ءاماً. هذه هي الخطوة الفاصلة. إنه ليمشي في جنازته والمركب نعشه. وما تجرأ على اعتراض ولا على استيضاح، بل قال بصوت من يشاهد كفنه بعينيه: الأمر أمرك يا «أفندينا»!

وأجهد نفسه في التماسك مع شعوره بالانهيار. فهو يحبو الى ضريحه. وراعه أن يكون الأمان في عرف الجزار الأسر والتشريد، بل الاجتثاث. واستدارت عيناه رعباً وذهولاً. وجمدتا على الوالي المخوف وخانه النطق. وحدق إليه الجزار وهو يكاد يقهقه مرة أخرى. فشاقه منظر الأموات الأحياء وودّ لو تقبل فيروز فتشاطره التحديق الى قاتل أختها. بل اشتهى أن تبعث نسل شاه حية وأن تنتقم لنفسها بنفسها من خاطف روحها حقداً وكرهاً. ومال على من حوله يذيع فيهم: أين الشيخ سعد؟

فبدا ذو المشيب الأسود وفي عينيه لهفة واستفهام. فجبهه الجزار بقولة قاصمة نسفت فيه كل رجاء: إلحق بنا الى عكاء براً يا شيخ سعد. أنا وسعادة الأمير نطوي إليها العباب!

فانتشر النبأ في لبنان أجمع وميضاً خاطفاً . وارتعدت أفئدة الانصار ذعراً . اضحى الأمير يوسف سجين الجزار. ولاح للقوم ان النصلة الحاصدة ستبلغ في هذه المرة مداها من الشهابي ومدبره . فلم يبقَ عن البتر غناء

وصال الاميران اسماعيل وسيد احمد وانتفخا عجباً. سلما من الحسكة العالقة بالحنجرة تسدّ مجرى النفَس وتفسد غضارة العيش . باتت الامـارة مرتعهما الآمن ولن يقرّ سواهما في المهـــد الوثير . لهما وحدهما مقاليد الامر في لبنان

١١

أيقن الأمير يوسف بأزف النهاية . فالغروب دنا والشمس يكاد يبتلعها الغسق . وجمع الشهابي بعضه الى بعض يودع دنياه ومناه.ألا كم اضطربت به القدم وكم نبا به المضجع وما برح في اثناء ركوبه المنصب منتفض الجأش كماء الخضم ّ في مهب الزوبعة . فيتعالى كالجبال ثم يهبط كالاغوار ، ويواثب بعضه بعضاً ليتمزق على صخور اليابسة

وما كانت الحال لتبلغ هذا الوبال لولا الجزار. فما نسج الكفن وخاطه غير ذلك الجالس ازاء الامير في المركب المتهادي في اليم ّ على شماتة واعتداد وما يزجي امير لبنان الى سوى مصرعه. فالجزار طالب ثأر لا واهب انصاف. واعترى الجمود الامير وكأنه اشبه بالمومياء . فهو هيكل بادي الصورة ، الا أن الروح تتحفز للانسلال منه كأن لم يبق فيه للحياة مقام

ونظر اليه الجزار والقهقهة تكاد تدرك فيه منتهاها . غير أنه زجرها بما ملك من صلابة وتصنع الوقار . فهو ليس الآن المملوك المفاكه المتدفق بالمزاح لارضاء الامير، بل سيد هذا الامير العاطل من كل سلطان. فاذا ما احتز ّ عنقه فلن يقبل من يناقشه الحساب وما كان غير السيد المطلق في جميع من يستظلون فيئه من العباد . فله ان ينثر الجماجم في كل صعيد دون ان تجبهه نبسة رادعة . وشاقه ان يبصر الشهابي في ذل المنكسر المستخذي فطرب لاصطياده إياه بتلك المماكرة الفائقة . نصب له الامان شركاً يجر ّه به الى الهلاك

وتمثل فيروز في اغتباطها بضلاعته وسيقص عليها ما ابتدع من حيلة . فتفرح وتخفف عنها لهبة الغيظ . ودعا الى مائدته الشهابي يلاطفه ويخفي بالملاطفه نياته والامير ضائع عن نفسه .يؤمن ويرتاب. ويرجو وييأس . على أن الارتياب واليأس غلبا فيه الايمان والرجاء . فيتنفس مكروباً . ويمد الى الطعام يداً مرتجفة . ويلتفت الى الجزار ليتبين فيه مطارح الرحمة ، فلا يقع على سوى التباس وغموض وقد خلت اسارير والي صيداء من كل إفصاح

وأحس الامير يوسف بالارتباك الشائك ، الخانق، كأن في جميع مسام جسده دبابيس واخزة تحرمه الانس والدعة، وكأن الحبل ينصرم على العنق فيحول دون طلاقة الانفاس.وما كان يجيب احمد باشا غير أجوبة موجزة، طافحة بالكمدة والهلع . واذا ما رشف الماء خيل اليه ان الشفار الرهاف تجري في مبلعه فتثخنه جراحاً

وبدت له قلعة عكاء فتمثلها ضريحه . هنا سيودي به الجزار بلا ونية . وارتجفت ركبتاه وهو يطأ اليابسة . ومشى مطرقاً بين صف طويل من الجند ، غائراً في قلنسوته وفي عباءته الدكناء وقد اشتدت به الصفرة وانتابه العثار

وهتف الجند للوالي المقبل على صرحه وحياه باكبار . واطلقت القلعة مدافعها ترحب بالسيد المرهوب الجانب، البعيد الاثرة.ولحقه الشهابي مقوس الظهر، مقصوص الجناح. ولمس الامير في مشيته المرعوبة مبلغ الهول النافخ في قلوب المخذولين،المقهورين المحكوم عليهم بالضيم، فتذكر ضحاياه. وقاده الجزار الى القلعة قائلاً له: هوذا مكانك يا صاحب السعادة، فأهلاً ومرحباً ! وشابت السخرية لهجته.وأطل جميع من في القلعة ينظرون باستهانة الى

الامير الملتوي العود . وفيروز في طليعة هؤلاء المزدرين الملتفتين بجفاء الى الشهابي البادي السهوم . فطربت أخت نسل شاه وقد ادركت مبلغ أثرها في نفس زوجها . قضت عليه بالامتثال لمشيئتها فاطاع . وشزرت الامير يوسف بعين حاقدة متوعدة . وما انساب اليها الجزار قائلاً بفضفاض المرح: « ماذا بدا لك مني يا فيروز ؟ ... أأنجزت ام اخلفت ؟... أراضية انت الآن ايتها المبرطمة ابداً؟» حتى فتحت له ذراعيها تعانقه،وتعرض عليه مبسمها البليل اللهبان،وتقول بملي ّ الارتياح: كيف لا ارضى وانت تحقق المراد ؟

وأبهجه مقالها الجذل وأعلن : ما جئت به وحده وقد سقت اليك مدبره . وسيبدو في شرذمة من حرسي سلكت به طريق البر !

وهمس في اذنها: سنقتلهما معاً. فارهفي مديتك ليكون لك نصيب من الاخذ بالثأر !

فماست دلالاً.إنها لصاحبة الكلمة الفاصلة في هذا الصرح العابق بالجلال وبالسؤدد. قالت: ما اشتهيت إلا أن أدفع عن عظام نسل شاه عبء الحيف، وستجدني في نظيرة من يطعنون بمداهم القلب الغليظ المعتل ّ !

وتكلمت بزهوها المألوف . وأيّدها الجزار في الشهوة وقد أمسى موقناً أن غضبها يقصي عنه المرح.فيتراءى له وهي تجفوه ان نفسه في ضعضعة. فلا يبتسم ولا يهنأ بمتعة

وبدا الشيخ سعد الخوري في عكاء ينشر عليها مشيبه الوضّاح . وضحك من هزء الأيام وليست تجدّ في سعي ولا تصدق في لبانة . وترحّم على ضاهر العمر ولم تبلغ به الخصومة، يوم وفور لددها، هذه الاستطالة على أمير لبنان. ومشى الى الجزار بازدلاف المسترحم الواثق بان الشدة لا تنيله ارباً ، ولا

تكتب له عيشاً رغداً . وصوّب اليه أحمد باشا عيناً يجول فيها الخبث وقال بتهكم فيّـاح : هـل أقبلت يا شيخ سعد ؟... أرجو ألا تكون أتعبتك وعورة الطريق . والله ، ما أراك على سوى شباب طريف كأنك من اصلاب النسور . ألا أخبرني ، أما تزال تطمع في العمر المديد ؟

فابتسم الشيخ سعد ابتسامة ذي الحنكة والدهاء وقال : وماذا لي ان ارتجي من الشيخوخة يا مولاي وقد طوتني أثقالها ، فأصبحت أشبه بالقوس النخرة ؟... عشت طويلاً ورأيت كثيراً ، وبتّ لا اشتهي غير رقدة هنيئة لا يقظة منها لولا رغبتي في أن أتفيأ ظل سيدي المنّان !

فقهره في المداهنة . وقهقه الجزار يقرّ بكونه دون سعد الخوري في المواربة والرثاء. وصارحه بما في نفسه منه. فقال سعد يتبرأ من وصمة المكر: والله، ما أنطق إلا حقاً يا سعادة الوالي!

فانقلبت في المقهقه روح المباسطة الى منافرة. فكشف عن جبينه وهدر بنقمة حاطمة : أتذيع الحق وأنت من دعا الى مفاجأة رجالي في جباع فقضى منهم على ما يرجح المائتين؟..ألا كن على نزرة من صدق أيها الأبيض الرأس والأسود اللب . هلا تساوت النصاعة في هامتك وكبدك ؟

فأبدى أبو غندور بنأمة الجليد وابتسامـة الناهد الى ابتزاز الرأفة من الفؤاد الصلد : أطلب الى مولاي أن يسخو عـليّ ببعض حلمه . نحن مـا حاولنا اقلاقاً . ولكن الجند سطا على قومنا فردعوه . وإن نكن أذنبنا فإننا لعلى اهبة للتكفير عن هفوتنا. فليفرض علينا صاحب السعادة ما استطاب ولن يضيق بنا الاداء !

وخاطبه بلغة الدينار وهو الموقن ان لا لغـة ناجعة سواها في حضرة

الوالي الكشود . فاحتدم الجزار سخطاً ونبر : ولكني سئمت وعودكم الكواذب يا أشباه الرجال . فما عاهدتم وبررتم . لم يبقَ عليّ الا الحذف جزاء نفاقكم . فأنت وأميرك في كفة الفناء !

وصاح برجاله : كبلوهما بالحديد واطرحوهما في أعماق القلعة بانتظار الموت الذبّاح !

فأعلن سعد مستنداً الى مضاء ذهنه وخلابة مقوله : أيكون من وكل اليهما مولاي الامر في لبنان أوفى ذمة منا يا صاحب السعادة ؟.. عاهداك على ثلاثمائة الف قرش فماذا تقاضيت منها ؟... نحن نؤدي بعضها ونرتجي صبرك علينا في البقيا . أما الاميران اسماعيل وسيد أحمد فيعدان ولا تتوافر لهما نضاضة من إنجاز.هما بايعاك على ثلاثمائة الف ونحن نزيد. فلسنا نتردد في أداء خمسمائةالف قرش. وربما أكثر اذا فسح لنا صاحب السعادة في التواضع على الارقام !

فجلجل أحمد باشا : خسئت ايها المسرف في المخاتلة . والله ، لن أُعيد أميرك الى لبنان حتى ولو منّيتني بالف الف !

فهتف سعد وما يغيب عنه جشع والي عكاء : ونحن نؤديها يا صاحب السعادة !

– أتؤديان الف الف قرش ؟

– الف الف راجحة الوزنة لا تنقصُ ذرّة !

فصرخ لا يؤمن بهذه البعزقة المغالية في المين والمراوغة : لا تبعني الغشّ والخداع بالقناطير وهما بضاعة لا تروج عندي. لقد جربتكما وعرفت مدى صدقكما وما نفحتماني بسوى الكذب الدهاق ، كأن الكذب وحده ينبع

في لبنان . جرّوهما الى السجن وليرقبا فيه منيتهما !

وأصرّ على البطش بهما . لتكن فيروز راضية . وهو نفسه لم يكن مطمئناً الى ما يلقى في لبنان من خديعة . فيشخص له انه خرج من الصفقة وارم الكيس فاذا ما ينتهي اليه ينبئه بانه ما زال مكانه ، أملس الكف، خالي الجيب . ونهد الى البتر . لتتدحرج الرؤوس بـــلا هوادة وليعتبر المخاتلون . أما فيروز فلها البشرى !

ورمى الأمير ومدبره بعين النفرة وهما يبرحان ديوانه عاثرين مكدودين، يمضغهما العدم بطواحنه ويوشك ان يبتلعهما . أيضحكان من الجزار وحياتهما رهن مشيئته ؟... ودلف الى مخدع امرأته يقول معجباً بنفسه : ماذا لاح لك مني؟... أما كنت حيث عقدت عليّ من أمل ؟

فهتفت بملء الحبور : أحسنت فتابع نهجك . اليس لهذين العابثين بنا ان يمتد بهما الزمن !

فقال بلهجة قاطعة : موعدهما غداً او بعد غد !

فاستوضحت بقلق: ولماذا لا يكون الليلة، فتجتثهما ونسلم من دمامتهما؟

فأبان : أأفتك بهما لدى وصولي ؟... ولكن عكاء تبتهج بمرآي ، فهل أقابل ابتهاجها بالترويع ؟

قالت تحاذر التطويل : في الارجاء النسيان أيها المولى !

– لا ارجاء ولا نسيان يا ذات الأناقة . ليس غد ببعيد !

– ولكني أخشى ان تصفح عنهما وقد بهرك سعد بالف الف ، وللمال أثرٌ في الأرواح !

فتماسك وأذاع: لا تخاطبي احمد الجزار بمثل هذا القول الخشن يا فيروز .

ما للمال ان يغرّر بي وهو عندي كناسة الطريق. أما تعلمين اني خضخضت جبال لبنان في القبض على المفضوحين، لا ابا لهما ؟... وما كان لي أن أبذل مثل هذا الجهد لاجل المال بل لحطب ودك . فدعيني أتمّ سعي !

فرأت ان تسكت وأن تجري في أمر السجينين على هواه . غير انها ما زالت تخاف فيه النكوص وللمال سلطان قاهر على سعادة الوالي مع كل ما يدعي من عفة يد . والأمير يوسف والشيخ سعد لا يبخلان بالعطاء . أما سمعت باذنيها سعداً يلوّح بالف الف قرش وبمثل هذا المبلغ يبيع الجزار نفسه وسماءه ويهزأ بكل حفاظ ؟

والجزار ما أصغى الى سعد الخوري يغريه بالالف الالف حتى ارتخت منه العزيمة وفترت النقمة .. غير انه ما نسي فيروز . فهي وراء ستار في الديوان تسمع . وحافز الاسترضاء يفرض عليه الازراء بكل عرض. فرفض المبلغ الجسام ومهجته تجري في اقتفاء خطو البدل الرنّان، المخضب بالسحر، البعيد عن التصديق كأن فيه من المحال راجح الكفة . أصحيح ما يعلن أبو غندور ؟... أيؤدي الف الف قرش بدل امارة لبنان ؟... ألا ما هذه الالوف المتعالية كالتلال ، بل كالاطواد الشوامخ ؟... فهل من ينقده اياها في لبنان الخاوي الجيب ، الخميص البطن ؟

وتوهجت في باصرتيه أكداس الذهب . إن استانبول نفسها لتخلو من هذا الفيض المدرار . أيصر على الرفض ام يجنح الى اللين ؟... وسدّ أذنيه عن زوجته الملحاح. فهو بحاجة الى إنعام النظر في ما يعرض عليه الشيخ سعد الخوري . ولكن قد يكون سعد يسخر بـه . أفليس من عادة القوم ان ينكثوا ؟... لا ، سيقتل الأمير يوسف ومدبره . على انه اذا قتلهما فمن

ينفحه بالف الف ، بجبل باذخ من النضار ؟

ووقف وقفة الحائر . تباً للمال كم يقيمه ويقعده ويخرج به عن قصده قاضياً عليه بالخنث والشذوذ . وابتعد عن فيروز، بل عن جميع من حوله. فانه لينزع الى الخلوة بنفسه كي يستشير ضميره . وما كان ليلقى عائدة في الفتك بالأمير يوسف وبسعد الخوري سوى إرضاء السيدة الاولى في صرحه. وفيروز مع وفر مباهجها لا تعادل الف الف قرش وهو يشتري بهذا المبلغ اللجّ الف الف امرأة . واذا استطابت فـيروز الانتقاض والمشاكسة فما تزال الفأس مسنونة ترصدها

وكاد يصيح بحاجبه : « جئني بالأمير الشهابي وبالشيخ الخوري ! » . إلا أنه أكره لسانه على السكون. فليس له أن يبدو في انقلابه على نفسه بمثل هذه العجلة الصاعقة . وطالت خلوته بضميره . وانتهى منها الى إيثار المال على امرأته . لتخرس فيروز . إنها لتجهل ما تقدر عليه الساعة . فما أقامته استانبول والياً على صيداء لولا طمعها في بـذله . فيؤدي اليها الاتاوة على جمام

وتعامى عن أُخت نسل شاه . ورأى ان يطلب من الشهابي والخوري ضماناً . فلن يكتفي بالوعود تعلن ، وبالمواثيق تجري حبراً عـــلى القرطاس لتتبخّر في الهواء ، بل سيقدر على من خشخشا له بالالف الالف ان يودعا لديه رهينة لن يفك أسرها غير الوفاء . وإلا فهي عنده حتى يقبل من يفتديها

ولن يخاطب بنفسه الاسيرين ، بل سيدفع اليهما من ينوب عنه في جسّ النبض والاستطلاع ، متظاهراً بكونه بمعزل عن المساومة . ومـا يبدو الا والمباحث تقرّ في جفنها . وأوفد حاجبه في استدعاء مملوكه سليم باشا الصغير

– وسليم باشا الكبير مات بالطاعون – وابتدره بقوله : هل لك في إنجاز ما أنتدبك له يا سليم؟... عرض عليّ سعد الخوري ، وأنا أدفعه الى السجن، الف الف قرش في مقابل عودة سيده الأمير يوسف الى لبنـان . وأنت تعلم أني بحاجة الى المبلغ واستانبول تتقاضاني الاموال الجسام . فما رأيك وقد كلفتك مفاوضة الأمير ومدبره بسبيلهما الى الاداء؟... لقد أتخمت بالوعود ولن أرضى باستمرار المماذقة . فاذا نفحاك بها فاردد اليهما المنحة المهلهلة وما أبتغي الا نقداً ملموساً تقبض عليه يداي . أدخل عليهما في السجن وأبلغهما أنك سمعت سعداً يعرض عليّ المال ، وأن بوسعك أن تقنعني بقبوله اذا ما حملاه اليّ . وإلا فلا بد من رهائن تبقى في عكاء حتى ساعة الابراء !

فنظر اليه مملوكه سليم مدهوشاً . هل لان حيال أكوام الذهب ؟... ولكن فيروز لن تؤيده في العفو عن الأسيرين وهي الجانحة الى القضاء عليهما، فكيف يوفق بين امرأته وجشعه ؟... أيخذل فيروز ليملأ كيسه ؟... وما أفاض المملوك الصغير بنأمة وهو الواقف على الأسرار والملمّ بما يتقد من نار تحت الرماد . قال الجزار ولم يحفل بسكوت مملوكه : إنطلق على الفور اليهما وجئني بالجواب الحاسم . واحذر ان يدريا باني مطلع على مـا تباحثهما فيه . فكل مـــا عليك ان تظهر لهما أن شفقتك عليهما قادتك الى انقاذ العنقين من الحبل الخانق ، وأن سعادة الوالي لن يرضى ، غير أنك ستجتهد في إقناعه بالمواءمة وأنت على شك في النجاح !

فنهض المملوك سليم الصغير وهو ما يزال سادراً في دهشه . أيتعرض الجزار مرة أخرى لنقمة فيروز ولن تكون بالنقمة الهيّنة ؟... هـل شاخ سعادة الوالي وغفل عن كيد النساء؟... ورافقه أحمد باشا الى باب الديوان

يرشده الى الاسلوب الناجع في مخاطبة السجينين المرموقين . قال : كن حكيماً في مطارحتهما الكلام . ولا ترجع اليّ الا وقد أحكمت الاتفاق وبنيته على أُس وطيد !

فلم يكن سليم باشا الصغير بمن يقوى على المجانبة ، وإلا فالرؤوس الهاوية في عكاء عن مناكبها ستحفل برأسه الكريم وتعلو به أكداس ضحايا العصيان . وحبا الى السجينين وهو يجمجم بامتعاض وهول : ما أكفر هذا الرجل بالذمام . إنه ليقدر على من حوله ما يخلو منه ضميره . فيريد الشهابي والخوري عـلى صدق وحفاظ وهو اول من يطعن الصدق والحفاظ في صميمهما . أراه يستخف بامر فيروز ومـا درى ما ستفاجئه به من نكر . انا من نفذ الى سويداء الخفايا وفي يقيني ان الجزار سيقاسي كل ضنى وهو يشيح عن البر في يمينه لسيدة حرمه . فالألف الألف سيجرع بها الف الف غصة ، والف الف ويلة ، وقد تكلفه الجاه والحياة !

ودعا حارس الأسيرين الى فتح باب المحبس وإبلاغ الأمير والشيخ رغبة المملوك سليم باشا في الدخول عليهما . وما تمالك ان قـال في نفسه وهو يبصرهما غارقين في الدهمة على استكانة وجزع : كانا من سادته فاصبحا من عبدانه . انـه لجائر كنود ، غير ان الحظ حليفه . ولاية الشام على وشك ان تنتهي اليه وسيمتلك ولاية طرابلس . واذا ما شاء ان يستأثر بالأمر فلن يتسع لاستانبول ان تقف دون الوثبة العارمة !

وابتسم للأمير يوسف وللشيخ سعد وحياهما قائلاً : أرجو ان تكونا على خير حال !

وأبدى اللطف والملاينة . فهو رجل شفيق أقبل للمؤاساة كما أراد منه

سيده ان يكون . وتابع فقال: ساءني ما صرتما اليه من محنة، فجئت أسكب على الجراح ما عندي من مرهم !

فأعلن الشيخ سعد وما كان للابتسامة أن تفارقه حتى في النكبة: ألا مرحباً وشكراً . إننا لعلى ثقة ان هذا الصرح المبارك لا يخلو من نسمة الخير وحلم مولانا احمد باشا يطغى على كل هفوة . طمعنا في موفور مننه هو عذرنا لديه !

فقال المملوك يعيّرهما جهل الطريق الى التصافي : أنتما لم تحسنا الوقوف من سعادة الوالي على وئام فأشعلتما سخطه . ولو نزعتما الى الطاعة لملكتما رفقه بكما . فما عرفت أطيب قلباً من أحمد باشا الجزار !

فانبرى له سعد يقول : ولكننا بذلنا جهدنا في ارضائه واسترحامه فأعرض عنا ليأنس الى من لا تقوم لهما قائمة مع كل ما يحبوهما من قوة وعطف. عاهداه على ثلاثمائة الف قرش ما انتفع منها بقرش واحد . وعاهدناه على الف الف فازدرى المهر على طفحانه . إلا انها المودة وهي لا تتجزأ. سبحان من سخّر قوماً لقوم أيها الصديق الكريم !

— أتؤديان اليه الف الف ؟

— نعم ، نعم يا سليم باشا. بيد انه استهان بما عرضنا عليه ورمانا بالنفاق كأننا من المجبولين على الخداع فلا يركن الينا !

فابتسم المملوك ابتسامة حافلة بالهزء وقال يستنبىء بنبرة المرتاب : وهل يحوي لبنان الف الف قرش يا شيخ سعد ؟

فأجاب أبو غندور بحدة : ما وعدنا لننكث يا صديقي . ليخلع علينا سعادة الوالي الامارة فننقده المبلغ وازناً !

– أتؤديان عاجلاً الالف الالف ؟... والله ، إدفعاها اليّ وانا اشتري لكما منه السؤدد في لبنان حتى الأبد. ليغضب وليهدد وليزعق ما شاء فلن أرهب غضبه وتهديده وزعقته وأنا احمل اليه الف الف قرش . سأحشو بها فمه فيخرس وأفرض عليه الرضى عنكما !

فهتف الأمير يوسف : هذا المبلغ على جسامته لن نتهاون في أدائه يا سليم باشا . سعد وعد وعليّ التحقيق !

فأبدى المملوك متحمساً : أتملك المبلغ ؟... الا هات هذا المال وأنا أضمن لك ، حلفة صادق ، الامان والاكرام !

فأعلن الأمير بشدة تفور توكيداً : سنؤديه يا سليم باشا !

– وكيف ؟... ومتى ؟... أتحمله ؟... هل لك اليه سبيل؟... إدفع الى لبنان من يزجيه اليك إن يكن موفوراً ، وإلا فلا محيد عن الهلكة . باتت الوعود كليلة عن سعادة « افندينا » !

وصوّب اليهما عينين حادتين منقبّتين يستجلي بهما السرائر . فقال الشيخ سعد : اذا لم ندفع فلن يصعب على أحمد باشا ان يدحرجنا عن الأريكة ويروي سيفه بدمنا !

فهزّ سليم باشا الصغير برأسه يبدي السخر بهذا البيان المتقلقل ويعلن متخابثاً : حاول مراراً « افندينا » أن يؤمن بعهودكما فخاب ، ولن يكبو حيث هوى . فاذا شئتما الفلاح فعليكما بالقولة المشفوعة بالفعلة ، وإلا فلا ترتجيا خيراً !

فأبان سعد الخوري : أيريدنا على اداء الف الف ونحن في الأسر ؟... أنى لنا الوصول الى المبلغ ونحن على إنفاض ؟... ليطلقنا كي نجمع المال

وإلا فهو يلتمس منا العسير وليس للمكتوف اليدين أن يستدرّ الضرع !

فقال سليم باشا لا يزيغ عن وصايا الجزار: هذا بيان حق. ولكن لمولاي وجيه العذر في إعلان الريبة وما من وعد وفيتما. فهلا خاطبتماه بمنطق الرهائن ليثق بذمتكما ؟

فصاح سعد الخوري: له ان يطلب من الرهائن بقدر ما يشاء وكلنا في خدمة « أفندينا » !

فنظر سليم باشا الى أبي غندور بعين يموج فيها الوفر من التهكم وقال: واذا دعا سعادة الوالي الى بقائك في أسره رهينة يا شيخ سعد واخلى سبيل الأمير فما تفعل ؟

فارتعد. الا انه أخفى ارتعاده بصيحة نزع بها الى الدلالة على مكين اخلاصه لمولاه الشهابي فقال بدفق من حماسة: دمي وروحي مباحان لسعادة الوالي. ليطلق مولاي الأمير وأنا أبقى هنا مرهوناً بالاداء !

فأكبر الشهابي ولاء الشيخ سعد وقال وهو يبتسم له ابتسامة الاعجاب والرضى: شكراً يا أبا غندور. ما عرفتك غير متهالك على الفداء. عهدك للأمير ملحم ابي صنته بامانة مثلى. فبنيت بنفسك لهذه الأمارة حتى لكأنها من صنع يمينك. بورك فيك. إنك لتزيدني يقيناً بكون الحفاظ لا يبرح وطيد الركن. فما اندثر حماته وما في الصالحون !

واقترب منه فعانقه بحنان. فقبل يده الشيخ سعد بخشوع الطائع الوفيّ. وقال سليم باشا وقد راعته المغامرة في مستشار الأمير: عوفيتَ يا شيخ سعد. إنك لمثال الندب النجد. فما توالي لنفع، بل منافحةً عن حق وهبت له الشباب والمشيب. سأعرض على مولاي الباشا ما جرّ اليه الحديث

وسأطلعكما على ما يفيض به « أفندينا ».وكل ما أسعى له ان أرد عنكما كيد الحدثان !

فهتفا معاً : أبقاك الله يا سليم باشا.فما كنا لنشك في عالي همتك وحميد مروءتك . دام لسعادة الوالي العز والصفاء !

وآمنا بانقشاع السحابة الحاجبة عنهما الضياء والدعة . ورقبا عودة سليم باشا اليهما كما يرقب المنكوب ومضة الفرج. وتبادلا حديث الاماني بانتعاش وبشر . جندلا الأميرين اسماعيل وسيد أحمد ومزقا أضالعهما . ومادا لفرط الجذل . اي لعاب لا يسيل حيال الفدية وهي الف الف ؟... ومـا سمعا بالباب دقاً حتى رقصا تهزّهما النشوة . عاد اليهما سليم باشا يحمل البشرى الممراع . ووقعت أعينهما على باصرتيه وانحدرت الى شفتيه . وتلألأت لهما في ملامحه البسمة المستطيلة فخفق قلبهما لنداوة الأمل المتهادي اليهما بعـد نكوص . وتكلم سليم باشا فقال : أصغى اليّ سعادة مولاي وأنا أسأله فيكما وأبدى رضاه عنكما.فامثلا في حضرته واظهرا له حسن نياتكما !

فهتفا معاً بمستفيض الارتياح:زاد الله في أيامك وأيام سعادة « أفندينا » يا سليم باشا . انك لتخلع علينا من فضلك حلة لا تبلى !

وعانقاه بجمام الحبور.اعاد اليهما شعلة الحياة . ومشيا الى الوالي وهما لا يكادان يتماسكان لفرط المسرة . وقبّلا العتبة ، فالذيل ، فاليد ، وأبديا بخانع الجذل : عاش « أفندينا » !

فنظر أحمد الجزار بخبث وجبروت الى استرخائهما بين يديه والى الفرحة المالكة لبهمـــا . كلمة منه تحييهما و كلمة تميتهما بعدما كانت كلمتهما فيـه حكما مبرماً . وأعلن بصوت تنقد فيـه العنجهية ويحبو مكرهاً الى

الملاينة : قصّ عليّ سليم باشا من امركما ما نزع بي الى التناسي . فكل مـا اقترفتما من نكر اغفره لكما عـــلى ان لا تعودا الى اجتراحه . فأي عهد حفظت ايها الأمير وما أبقيت على قباحة الا ارتكبتها ؟... وأنت يا شيخ سعد ، أي كيد لم تستظهر به عليّ وقد نلتني بكل ما تختلج به نفسك من دسّ ومقت ؟.. أما والله ، إن قبضتي لفي خناقكما . فاذا وفيتما ارخيت ، واذا حنثتما ضغطت . ولن ارجع عنكما الا وانتما عند قدميّ جثتان مشت فيهما برودة الموت . وما كنت ذلك المسماح بعد كل ما جبهتماني به من عصيان ، الا ان لرجاء سليم باشا عندي اجـابة خيّرة . شفع فيكما اليّ فتغاضيت عن نقمتي عليكما وابحت لكما العيش . فاشكرا لهذا النبيل الروح رفقه بكما !

واستطاب الامعان في الاذلال وهو يدعوهما الى الانحناء بين يدي مملوكه سليم باشا الصغير يبديان الشكر . وفعلا وسعد الخوري يقول : لا مفرّ من الاقرار بالجميل . الولاء لمن تلطف وجبر خاطرنا !

فقال الجزار وما انفك يبدي القسوة : والآن لنتكلم في ما عرضتما علينا . تقولان إنكما تؤديان عن الامارة اللبنانية الف الف قرش ، وانك تبقى يا شيخ سعد رهينة عندي حتى يستقر المال بحوزتي . وليس لي ان اخذلكما في الشهوة كرمى عين هذا المملوك الحبيب . ولكن هل ترغبان في الاداء ؟... اذا كنتما تميلان الى المخادعـة فلن اطيل اجلكما . أيامكما ملك يميني . والأفضل بقاؤكما في هذا الصرح أسيرين ترقبان نهايتكما على مهل . أمـا اذا شاقكما الجدّ فاعلما ان الرجل من قال وفعل ، وعاهد ووفى . وأريد ان أعتقد اني أخاطب رجلين !

فأبديا الميل الصادق الى البرّ في الذمة . قال سعد الخوري : ولكني في

قبضتك يا سعادة الوالي . لك ان تنزل بي من ضروب التنكيل ما يلذّ لك إن نحن نفرنا عن التلبية . ما كنت لارتضي الثواء بالأسر لو كنا نجنح الى العبث بعطفك علينا !

فعالن الجزار الأمير يوسف بقوله : إذن بوسعك العودة الى دير القمر يا سعادة الأمير . فأنت حاكم لبنان وسأعزل لأجلك خالك وأخاك عن المرتبة السامقة . هيا الى لبنان وكن برّاً في المواثيق !

فعاد الشهابي الى الالتواء بين يدي الجزار وتقبيل يمناه وهتف: أمدّ الله عمر « أفندينا » . لن نكون في سوى طاعته ونحن غرسة يده . ستتهادى اليه الآلف الألف مع وافر الاجلال. إني أبقي لديه أكرم الناس عليّ وجهاً. فالامارة والشيخ سعد عندي صنوان !

وركب جواده وفي صدره أحقاد تشقشق . وفاجأ خصومه في دير القمر وهم من أمره على غفلة. فقبض على خاله الأمير اسماعيل وطرحه في السجن يموت فيه . وفرض الغرامة الفادحة على الجنبلاطيين. وفرّ أخوه سيد أحمد فاحتال عليه وسمل عينيه. وعلت الصائحة في قلعة عكاء. فيروز تولول والحاج نصرالله يندد بخفر الذمام . فلجّ الجزار في القهقهة. لترتفع الصرخات من كل جانب ولن يهون في إخفاتها ما دامت فأسه مرهفة للبتر والفرع . سيتقاضى الف الف قرش طنّانة برّاقة. وياله مبلغاً دفاقاً يشيّد حصناً من الذهب تتضاءل ازاءه قلعة عكاء الفسيحة الجوانب ، المتمادية العرصات. باتت عكاء تنافس استانبول في الوفر والعجب والمقام

١٢

تحقق حلم الجزار على منتهاه . فأضحى والي دمشق وصيداء وطرابلس وقبض بيده الصلبة على سوريا ولبنان معاً . فهو في الشرق العربي أشبه بالسلطان نفسه في البلقان والأناضول . وأنى لمن بلغ هذه العزة ان يبالي نفرة فيروز وحرد أبيها الحاج نصرالله ولن يتماسك عن إضرام النار في كل من تنتفض فيه بادرة الشقاق ؟

على ان فيروز لم تنم . فالشرعة الصارخة : « سن بسن وعين بعين ! » لا تبرح شعارها . فان يكن زوجها أحمد باشا سنداناً فليحتمل طرقاتها . وهتفت بالجواري بنزوة جراف : حانت ساعة الهدم . فالعاصفة ستهبّ قاصفة على الوالي الكنود، المهين، عابد الدينار !

وامتنعت من مجالسته . وهو نفسه قعد عن المسير اليها وعن دعوتها اليه وما كان يجهل ما تنطوي عليه من جفوة . ونشرت في ضرائرها روح الحنين الى المعصية . وحدّثتهن عن فتوّة المماليك وعن كلال الجزار . وابتسمت لسليم باشا ولسليمان باشا وهما أقرب المماليك الى الوالي . ونادت الخصيّ أدهم آغا الحاقد على مولاه الجزار، وقد صلم اذنه عفواً ، وهتفت به والضغن يتطاير شرراً من ناظريها : هذا موعد النسف يا أدهم . أتملك العدة ؟

فأبدى الخصي بشراسة وغلّ وما ينفكّ يتحيّن الفرصة للغدر باحمد باشا : ولكني ما افتأ أشحذ شباتي يا سيدتي المرموقة . فلن يصفو لي الزمن الا وقد انتقمت. ربما كلفني هذا الانتقام روحي . الا اني اذا قضيت في ادراكه

نجي فحسبي ان أموت مشتفياً ، قرير العين !

قالت : عليك اذاً باغراء المماليك بنا . فانشر فيهم ان من الزراية بهم ان يبصروا الحسن ويتعاموا عنه . فكلنا في هذا الصرح على نار نرقب من يصب علينا الماء ليطفىء لهيبنا. وهل من الانصاف ان يتولى أمرنا رجل واهي العزم كالجزار فلا يتفق له ان يروينا ؟... من الحيف ان نعطش وبجانبنا ذوو اعصاب لا تلتوي لها همة. أبلغهم اننا نستجير بهم من القحط واليبس. وليكن لي من سليم باشا وافي النصيب !

وحرضته على دفع المماليك الى اقتناصهن. أفليس في قلعة عكاء للحم الطري أنياب مسنونة ؟... على ان الخصي أدهم آغا رهب المجازفة الفادحة . فما يكون من الجزار وقد سقطت اليه أنباء الفحش في الحرم، وعلم ان ثمة من لم يتهيبوا الاغارة على نسائه وجواريه؟... إنه ليدك القلعة حتى أعماقها ويبيح كل من فيها للنار الجشعة الاكول. غير ان أدهم ما نسي أوتاره . فالكره للجزار يتفاقم في حناياه ويغلي في عروقه . قال : وقعت على ذي منجل حاصد يا مولاتي : فما دمت تبتغين القهر فسأكون فيه يدك الطحون !

واندفع الى المملوك سليم باشا يقول ببسمة الاستدراج الوارفة: أسعد الله مولاي الباشا . ما عرفت رجلاً سواه يزحف اليه الحظ ويعود عنه خائباً . فالمواتع تتواثب الى ناديه وهو منها على استخفاف بها . فهلا فتح لها صدراً رحباً ؟... ان وراء السجوف لعيوناً تشخص اليه على هيام ورجاوة !

فأقلقه بما عالنه . وسدد اليه سليم عينين مبهوتتين مستوضحتين . الى مَ يشير أدهم الخصي؟... قال المملوك المنيف المنزلة : ما بك تخاطبني بالالغاز

يا ابن اللخناء،هلا جلوت مرماك؟... لكأنك تروم ان تثير في لبي الحيرة وأنت تسوق الي الأحاجي فتعميني بها . اكشف عن نيتك وكن صريحاً !

فما انفك الخصي يبتسم . الا انه دنا من سليم باشا حتى كادت شفتاه تلتصقان باذن المملوك وهمس قولته : حدثتني عنك مولاتي فيروز وهي تتوق الى لقائك . فما عرفتْ في من تضمهم القلعة من يعادلك في كرم الخلق والبطولة،فضلاً عن البهاء.والمرأة تميل الى ذي الطبع النبيل والشجاعة الشرود ، وقد تؤثرهما على الحسن المنمق كما يعلم سيدي المعظم !

فاتسعت عينا المملوك لفرط دهشه واستفهم بتمتمة تكاد تبتلع ألفاظه : هل حدثتك عني مولاتي فيروز ، السيدة الاولى في الحرم ؟... أتذيع في مسمعي النبأ الصادق يا أدهم ؟... ماذا اعلنت ، ويحك ؟... ولكني أبداً بجانب سيدتنا فيروز خانم فما اسمعتني ما توقر به اذني وتقلق لبي !

فراع هذا الاضطراب الخصي وقال يلح في التوكيد: اعلنت ما أنا منه على خالص اليقين . فالسيدة فيروز تجد فيك السيد الأثيل وتأبى ان يضمكما معاً مكان واحد وان تقيا على مثل هذا البعاد الطروح . وانها لترقب منك ان تتجاسر على معالنتها المودة ، فما بك تنام عن السعد وقد بُح صوته وهو يناديك ؟

— هل حادثتك السيدة فيروز بهذا البيان المكشوف ؟

— به حدثتني . واذا ما شئت ان تلقاها فان لي في تمهيد سبيلك اليها الوكد الأمين !

فما كان لسليم باشا ان يخرج عن ارتباكه . ان الخصي أدهم آغا ليفيض بالقول الدامغ الهلوع . أتخرج فيروز عن أمانتها للجزار وقد سما بها الى

أعلى مرتبة في صرحه ؟... وما يكون جزاؤها من سيد هذا الصرح وهو يلمّ بخروجها عن النهج السديد ؟... أتجهل من هو أحمد باشا الفتّاك المخيف؟... أما تبصر بعينيها الرؤوس تتناثر في القلعة حتى أوشك الصرح ان يبيت مسلخاً ؟

وسليم باشا سمع من فيروز نفسها حكاية النفور بينها وبين زوجها، والعفو عن الشهابي مصدر الجفوة. واصغى الى تهديد السيدة الأثيرة وما ندّ عنه انها انها تبيّت للجزار مهلكة تبيده بها. غير ان ما لم يكن يرقب ان تغريه زوجة الوالي بوصالها . فهل يطيب لها ان يذهب واياها في مستأصل شفرة الجزار ؟

وتمثل الغادة الفارهة تبسم له بما يحفزه الى مأمون الهيام. بيد انه خشي هول المغبة ولن يجني من المجازفة غير النكد . وما خفي عليه ان في فيروز من الفتنة ما تصبو اليه نفسه وهي في حسن غضير وفي نضارة لهبي. فتتوقد كأنها منارة الشاطىء في الليل المدلهم. الا انه ما تجرأ على التمني والجزار أمامه ، ووراءه ، وعن جنبيه . بل اكتفى بالنظرة الخاشعة ينفذ بها الى المفاتن ثم ينثني وما في خياله غير طيف من أطياف المعاد . تبارك الخلاّق المبدع بلا ريشة ولا إزميل . أما وقد بلغ الأمر من فيروز أن تناديه اليها بالحاح في السؤلة فماذا عليه في الموقف الوعر ؟... أيجيب أم يشيح ؟

وفي الجواب خطر وفي الاشاحة جبن . قال يستقصي : وأين تكون مولاتك فيروز يا أدهم آغا ؟

فالكياسة تمانع في الاعراض عن نداء الحسن . وما ندّ عن سليم باشا ان غادة الصرح الاولى تنفر به الى الانتقام من الجزار . فما دام الوالي لا يحفل بها فلن تحفل به . لطمة بلطمة. قال الخصيّ: أيشوق مولاي ان يراها ؟

– يشوقني ان احادثها يا أدهم آغا . ربما ضاع عنك مرادهـا فنطقت بالقول المأفون !

فعاد أدهم يبتسم ويقول ببعض العتب : أأكون من ذوي الصمم والبله يا مولاي الباشا؟.. ألا قدرة لي على ادراك معنى الالفاظ ؟..سأقودك الى سيدة الصرح وحادثها على خلوة فتسمع منها ما تبتغي منك !

– واذا أبصرني الجزار أخلو بها يا أحمق فما يكون ؟

فارتعش الخصيّ . على ان حقده أنجده فقال : وماذا يكون ؟... لن نعدم الحجة على براءة الوقفة . ولكنكما ستبعـدان عن مرمى بصره وفي حجرتي يظللكما الأمان !

وفسح لهما الى حجرته المنعزلة في القلعة المتعددة الخلايا،المنبسطة الآماد. وما ضمتهما الحجرة الضيقة وباتا فيها وجهاً لوجه حتى امتلك السحر الأبكم سليم باشا. فالروعة الصيّاحة في فيروز سلبته كل قوة على التفكير والكلام . فهو كتلة جامدة مرتبكة ، معجبة خاشعة لا تطيق حراكاً تزحزح به عنها الجلال المنشور . عـلى ان فيروز تكلمت فزادت في سعة سلطانها عـلى المملوك المشدوه. قالت بصوت نغوم كالوتر المرنّ وقد عبقت طيوبها فباتت الحجرة أشبه بالحديقة المعطار في مستهل الربيع الجميل : يروقني ان تكون لبّيت يا سليم باشا. فانا أرصد منذ عهد بعيد هذه الخلوة وما كانت تسنح حتى سهّلت لهـا بيدي . أما وضح لك من بريق نظراتي اليك ومن بسماتي اني على كلف بك ؟

فطغت عليه الفتنة وفيروز تسخو عليه بهذا المنطق المتأجج بالاستهواء . وقال بشبه لعثمة : لتحذر مولاتي ان تذهب بهداي وهي تنفحني بهذا البيان

الساحر وفي سحره جائح الخطر. ما حسبتني سأبلغ من النعمة بعض ما تخلع عليّ. فلتتئد في بسط راحتها. أما تدري ان في هذا المعقل عيناً نائتة، شريرة، تحصي علينا النظرة، والخطوة، والنأمة ؟

فشعرت فيروز ببليغ أثرها فيه وهي الموقنة أن ليس لرجل أن يغالب صولة رونقها. وابتسمت وقد تبينت لها في المملوك سليم وقدة الصبابة تمازجها الرهبة وقالت: ألا تطيق الاصغاء الى المنطق الحق يجلوه لك فمي ؟... ماذا تراني ألقى لدى الجزار كي اخلص لهذا المنافق الهمّ ؟... فلا شباب ولا ذمام. لا تقوى ولا يقين. يتاجر بربه وعرضه ولا يثبت في صون حرمة. وهل لي ان احبس صباي على من خذله العمر وهجرته وضاءة الاحدوثة ؟

فلمس سليم باشا جسامة شكواها وفدح ملتمسها. هل له ان يجيرها وهي تستعديه على الجزار الماحي ؟... وارتجفت ركبتاه حيال العبء. الى اي بؤرة ذات اضراس تدفعه فيروز ؟... قال والغصة في حنجرته تزحم الغصة: ألا يبدو لمولاتي اننا نلعب بالنار وقد عبثنا بكرامة احمد باشا ؟

فضربت برجلها الأرض تستهين بما يسقط اليها ونبرت بحدة: أبمثل هذا القول المرعوب تجبهني في ما عقدت عليك من أمل يا سليم ؟... لا تكن دون ما توطد لك في جناني من مكين الثقة. فيروز تدعوك !

وقضت فيه على الزرجرجة. ففي مقولها وعينيها حوافز الى الطاعة المثلى وطلعتها الغراء تنطق بالأمر الفصل. قال المملوك يميع بين يديها: دعوتني وليس لي ان أتردد في الاجابة وما لمشيئتك عندي غير الصدى الانوس. ومن العز والخير لفتى مثلي ان يلقى لديك نضاضة من عطف، فكيف وقد نفحتني منه بالجمّ الغزير ؟... أأقع بين جوانحك على رحابة الشوق وأنفر

عن النداوة السمحة ؟... اني للغيّ وقد كفرت بمنحة السماء . حاضري وغدي هبة خالصة لكِ فتدبريهما بما يروقك ان تجري فيهما ، سواء للموت أو للحياة !

فرضيت عن هذا الاستسلام الصراح. انه لحجتها القاطعة على بعيد سيطرتها على المهج. قالت تمعن في استمالة المملوك النابه اليها : لو لم تكن أثيراً عندي لتماسكت عن مناداتك . ولكن لك من نفسي الوقع الجميل . فلنتبادل متعة الولوع ولنعش حبيبين ولن يلمّ بأخبارنا أحمد باشا ونحن في حرز من الامناء !

قال : لست أطلب ما يرجح هذه البغية يا سيدتي، فاذا ما أدركتها فاني لاسعد الناس حتى اذا اجتثّني أحمد باشا !

وترنح غراماً. وجنح الى القامة الهيفاء يضمها الى صدره بلهبة محرقة وهو يقول بصوت تسطع فيه البهجة : لا ، ليس للجزار السحيق الكهولة ان يقوم بالمفروض عليه في اكرام هذا الحسن الفريد !

قالت فيروز وهي تبيح له اقتطاف القبلات من شفتيها ووجنتيها وجيدها : كنت حمقاء يوم رضيت بهذا الجشع الكهل زوجاً وما يعبد غير المال . على اني ما وافقت على الزواج في سوى مقابل الأخذ بثأر نسل شاه أختي . وأحسبك تعرف قدر مواثيق الجزار . غير أني دبرت للمحتال من أساليب الانتقام ما تتحطم به خيلاؤه ولن تمسي قلعته غير بؤرة للمعاصي . فيباح فيها الحرام ويتقوّض المنيع . نحن واياكم على عابد النضار . فمن حق المماليك والجواري ان يدفعوا عنهم جفوة الحرمان !

فالتفت اليها مدهوشاً . أتريد الحصن دار فحشاء ؟... ألا ماذا تحاول الوقحة ؟... أتقوى بهـذا السلاح المفضوح عـلى مصاولة الجزار ذي الفأس القاطعة واليد الماحقة؟..انها لتروم نكراً مستطيلاً ينقلب عليها وباله. فليس الجزار بالغافل كي يعمى في داره عن استفحال الفسق . ومال سليم باشا الى المعاندة . لن ينغمس في هذا الشنار فيكون في يمين فيروز آلة مسيّرة لنشر الفجور في المعقل المهيب

ووضحت له الشهوة بجلاء . ما تبتغي فيروز غير الطحن . واستجمع همته المبددة وقال بلهجة حلوة تنطوي على النصح الهادي: حسبي أن أنعم ومولاتي بطيب الهوى . فاذا سلمنا من وخامة المغبة فهو الحظ المؤاتي ، والا فنبلغ من زمننا ما كتب على كل كفور . وما لنا وللآخرين نسوقهم في التيار الجاني ونفجعهم بهناءة العمر . ألا يكفي ان تخوني وحدك الجزار كي تلوي فيه الانفة والجماح ؟... اذكري ضرورة الحذر . فالسر اذا جاوزنا فقد شاع ،فتقوم في القلعة فضيحة لا ينطفىء لها أوار إلا وقد انطفأنا . ويرويها من بعدنا التاريخ فيمتهننا ويمسخنا !

فلم تأنس الى مقاله وهي تريدها ثورة شاملة لا تستبقي في حرم أحمد باشا فضلة من طهر . قالت وما زالت تبدي الاصرار القاهر : لن يسكن لي قرار ويطيب عيش الا وقد جعلت من صرحه ماخوراً. عندذاك تقرّ عيني ويبتهج خاطري . فالانتقام في شرعي لا يكون أبتر . فإما أن يقبل ناسفاً وإلا فهو لغو . وما تسعى أُخت نسل شاه للتلهي بالباطل كي تكتفي بضربة بين بين !

ولمس في لهجتها وطيد النية. فالكيد يعدو ما توقع منه. وخشي ان يخسرها

وهو يعزف عن طلبتها فلا يتمّ له ان يتلذذ بالرواء المصفّى. وأحسّ بكونه عبداً ازاء الفتنة العارضة. وضلّ عن مهيع الرشد فقال: أتأبين الا ان تفسدي الحرم أجمع؟

فنبرت باضطغان صارخ: الحرم بكل من فيه وما فيه، حتى القطط والكلاب والطيور. فعلى كل ذكر وانثى ان يسترسلا الى القباحة في أسفل دركاتها. وليكن لسعادة الوالي بعد ذاك مجال الى رفع الرأس وسأكتب في جبهته العار والذل بأغلظ الحروف وأعمقها. لا يقتلني في اللئيم غير ذاك الاغرام بالذهب. فكأنه لا يحسن من دنياه غير الختل والقتل واقتناص المال. على اني سألقي عليه أمثولة بليغة تموت بها نفسه وتبرى عظامه ولا يتمنى بعدها غير الانزواء في القبر. كن يدي عليه يا سليم باشا!

وأدنت وجهها من وجهه ففاحت في منخريه رائحة العطور المالئة محياها وشعرها. وتملى غضارة جسدها وبضاضته فتمادى في زيغان الحسّ. أيكون سيد هذه المواهة الماتعة ويعفّ عن إثم؟.. قال وقد تعاظم استرخاؤه إزاء الصباحة المتوهجة في عينيه والشذا العابق في أنفه: ليس للمملوك سليم ان يشذّ حيالك عن موقفه كمملوك. إن هو الا عبدٌ في طاعتكِ. فاذا شئتِ أن ينسف الساعة دعائم قلعة عكاء فلن يتقاعد عن حشو أركانها باكداس البارود وتفجيرها. ولا بأس ان يموت نعمى عينيك تحت أكوام الأنقاض!

فتناولت وجهه بملء راحتيها وأغارت بشفتيها على فمه وخديه وعينيه تطبعها بقبلاتها الحرار وهي تقول: لم أكن أجهل أنك وحدك الخليق بالتكالي عليه. سأنشر في الجواري روح العصيان والمعصية وعليك ان تحضّ المماليك على اقتناصهن. ثم تعال استمتع بطيبي. إن فيروز لتحبس عليك أسمى نواضرها. فما سلخت منها أحمد إلا لتحتضن سليماً!

واثخنت في معانقته . إن لها من شبابه ما يشفي نهمتها المكظومة. قال وقد طمع في نهل الأفاويق المتماوجة إزاءه على فيضان : سيعاني الجزار الويل . أقسمتُ على اقتلاع جذوره !

وما كان مصانعاً في ما يعلن. بات لمولاه عدواً بطّاشاً. وفيروز تعادل هذا العداء ، بل توجحه . فليس المملوك سليم باشا في خسران . وقام الى اخوانه المماليك يغريهم بالجواري صائحاً بهم : كلوا من أطايب زمنكم ما يلوح منها لأبصاركم . فهل تطمعون في ما هو أكرم من هذه الصفايا ؟... وقفها مولاكم على نفسه وهو دونها ، فكونوا على قدرها وسبّحوا الخلاّق !

فأذهلهم.بأي بيان يخاطبهم ؟... هل طرأ عليه وسواس؟... قال وقد تجلى له فيهم رحيب الدهش : أتتعجبون مما أذيع فيكم ؟... ولكني جادّ، وحق من براكم وسخا عليكم بصلابة العزيمة . فليس يضيركم ان تشنّوا الغارة على المنّ والسلوى المهملين ، الراكدين في هذه القلعة وليس لهما من يأكلهما وقد عطل مولاكم من الأنياب !

وقهقه فيهم ضاحكاً يغمز بعينيه بخبث . فاعتلج في صدورهم الشوق والارتياع . فهم على رغبة مستفيضة في التهام المواتع ، إلا انهم يخشون الجزار . أما يبصر سليم باشا بعينيه الفأس والأمراس والأعواد ؟... قال سليم : سنتغفّله ونفاجىء حرمه . فاشحذوا أسنانكم للطيّبات.ففي الاغارة على الحسن المهجور إحسان !

وأوقد فيهم الشهوات فباتوا ثعابين يغلي في أشداقهم الفحيح .متى يأزف الموعد ؟... وأطلقوا عيونهم في الجواري المتصابيات فاذا القلعة بركان يمور بنوازي الوجد . واستشرى الحنق على الجزار . متى يرحل او يموت ليخلو

لهم الجو ؟... واذا بسليم باشا يلقى فيروز هاتفاً: لك البشرى. دعي الجزار الى قيادة الحجيج الى بيت الله الحرام وسيشخص الى دمشق ومنها الى مكة والمدينة . وسأنوب عنه في ولاية صيداء. ويتولى رفيقي المملوك سليمان باشا الأمر في ولاية طرابلس. فندرك المنى ولا يبقى دوننا حاجب ولا بوّاب !

فصفقت بيديها وانحنت على سليم باشا تقبله وتهتف : وجهك وجه خير. ان السعد لمطواع لنا . هلا أبلغت المماليك النبأ الطروب ؟

وارتدّت الى الجواري تعالنهن البشارة . ورقب الجميع رحيل الجزار. وأحمد باشا ، وقد أمسى والي دمشق، بات أمر الحجيج اليه موكولاً. فيجتاز بهم الصحراء الى يثرب وأم القرى ويدفع عنهم أخطار الطريق . وأعلن في عكاء رغبته في القيام بالمفروض. وما استبقى سعد الخوري في القلعة، بل انطلق به الى دمشق يودعه معقلها ريثما يعود من زيارة الحجاز . وسعد لقي المضض والمرض في الأسر . فهانت فيه العافية ورثّت بقوى الهمة . وما جلا شبح الجزار عن عكاء حتى كانت تُشن في القلعة غارات الدعارة. نساء الجزار وجواريه ينتهبهن مماليكه بلا حذر ولا خشية . وفيروز مشت في الطليعة هبة خالصة لسليم باشا نائب الوالي . فهو السيد المطلق . وجرت الامور على هواه في ارواء لواعج الصبابة، بل على هوى فيروز المنتقمة لاختها من المستخفّ بالائتار لها. فكان انتقاماً جائحاً مبيداً. وترامت أخباره الى الشهابي فاذا بالأمير يوسف يطرب ويوفد وصيفته جؤذر كي تغري فيروز بالفرار ونزول صرح دير القمر سيدة عالية الحظوة

ورحبت فيروز بجؤذر وبالغت في اكرامها معلنة بوفور الغبطة: أوحشني الغياب الطويل عني يا أخت الليالي الملاح ، فأين قضيت هذا الزمن ؟...

هل أنت على صفاء بال ؟... اني لافكر فيك واذكر امتداحك الجزار . فما بدا لي بقدر ما حدثتني به عنه من وفاء وما ان يتلألأ في باصرتيه الذهب حتى يذهل عن العهود. إنه لعاشق الدرهم ، ساخر بالذمة . ما عرفت الرجال من هذا المعدن الخبيث !

فتأوهت جؤذر وقالت تعتذر : عفوك عني وقد خدعني بريقه . فما أيقنت انه كاذب الطلاء الا وقد بلوته . انا مثلك غرّر بي حسن مظهره فتبعته ، واذا بي استيقظ من حلمي الجميل والخيبة تعروني. فيا ضياع أيامي في خدمته . ولقد رجعت الى الشهابي . أجل يا مولاتي ، الى الشهابي نفسه . فلقيت في جانبه حسن الوفادة وغفر لي نفوري عن حرمه. وهو من حفزني اليكِ في شهوة غريرة !

فصاحت مدهوشة : هل حفزك اليّ الشهابي يا جؤذر ، ألا ما يريد مني أمير لبنان ؟

ورقبت البيان بحثيث الفضول . وتكلمت جؤذر بصوت خافت كأنها تهمس سراً ، إلا انه سرّ يبعث على الجذل لا على الكمدة . قالت والبسمة تشيع في ثناياها : مولاي الأمير يوسف شاقته صباحتك فأطلقني اليك. وهو يلتمس منك ان تلتفتي اليه بعين الرضى وأن تجيبيه الى سؤله . فالشغف بك بالغ منه الأمد . وانه ليرجو ان يبصرك في قصره لا ضيفة كريمة وحسب، بل ربة الدار !

فطاب لها الضحك . ما خفيت عليها هذه الميول في الأمير وهو سجين قلعة عكاء . قالت تمازح الجارية : وهل اصطفاني الأمير كي أقوم لديه مقام نسل شاه ؟... أراه يستلذّ لحومنا . ولكني أخشى وقد أمسيت بين يديه

ان أكابد مـا كابدت أختي ورفيقتها هان زاده . هـــلا أبلغته أن يجنح عن المحال ؟

وسكتت هنيهة كأنها تصهر في خاطرها ما يقع في مسمعها . واذا بهـا تقول وهي تحدق الى وصيفة الأمس : لم يصن الجزار عهده لي يا جؤذر . وهاجني الانتقام منه ذات يوم فشاقني الانطلاق الى الامير يوسف والارتماء بين يديه غنيمة خالصة ، إلا اني خفت عليه من التنكيل الصاعق ولن يصبر الجزار على هذا الضيم . ولن أخفي عنك أني ظفرت بمن أدركت به أربي . فأنا اليوم في مودة سليم باشا على رسوخ قدم. وليس ما يخرج بي عن مواتع صبابتي وفي من اصطفيت من وفرة البهاء ومضاء الشباب ما يكفيني. شكراً للشهابي وقد خطرت له في بال !

– ولكن يا مولاتي ...

– لا سبيل الى الصدوف عمـا تمّ يا جؤذر . أصبحت من سليم باشا كالقلادة من الجيد !

ونزعت بها عن تشويقها الى الأمير وليس في الاغراء جداء. فبلعت جؤذر ريقها بامتعاض الاخفاق وقالت: شئت لمولاتي السعادة . على انها اذا نعمت بها في كنف من تصبو اليه فليس لي ان أسلخها بمن تلقى فيه طفاح المنى !

وعادت تطوي ما بين عكاء ودير القمر لابلاغ الشهابي ما لاح لها في الحصن من شذوذ. قالت تستفظع الآثام المعربدة في أرجائه: انه لجحر اراقم في لهبة القيظ يا مولاي . فالراعي نام عن الذئاب فعاثت في النعاج واستأثر سليم باشا بفيروز !

فشاقه أن تكون قلعة عكاء أضحت مسرحاً للموبقات وقال بطرب الشامت : يبهجني أن يمسي مقر الجزار بيت دعارة يا جوذر . ولتهنأ فيروز بمن اختارت وحسبي ان تغور أنفة الوالي الكريه في الدرن !

فسكبت له جوذر من رحيق الاشتفاء ما أثلجت به صدره قائلة: والأمر ما اعلن مولاي . فما ثمة غير خلوات رحاب ، وزفرات لهاب ، ودسائس ـفع لخذل الوالي البعيد عن حماه !

فقال يستوضح : وهل يسع المماليك ان يقهروا أحمد باشا اذا ما درى بالكيد العاصف بوكره ورام الانتقام ؟

– انهم ليقصفون عنقـه كعمود من ملح إن هو جابههم بالقوة والأمر والنهي مباحان لهم على مداهما !

فأطرق الأمير يزن أقوال الجارية . إن يكن بوسع المماليك ان يصدموا الجزار ويقصوه عن مقعد الولاية فيا لها من نعمة فضفاضة الخير يجود بهـا الزمان . وتكلم الشهابي فقال وفي نيته استغلال الفائرة : إذن عودي مرة أخرى الى عكاء يا جوذر . وعليك ان تخاطبي سليم باشا وفيروز معاً . فاذا صمما على مناوأة الجزار وخلعه فأنا بجانبهما . سأنجدهما بالرجال وبالأموال. عالني الاثنين باني لن أتهاون في النجدة وأنا من يؤيد الانقلاب في ولاية صيداء وكلكم يعرفني من أعداء الجزار !

والجارية من الناهدين الى كسر شوكة الوالي الفظّ المراوغ . ورضيت عن المهمة مع كل ما تلقى فيها من عياء وهتفت : والله ، لاسيرنّ الى عكاء مشياً على الاقدام لهدم القبيح الوجه يا سعادة الأمير . فما تبينت في رجل من لؤم الفطرة والسعي لغمط الفضل ما لمست في ذلك المنافق الوقح . إن

المماليك ليقبضون اليوم على مفاتيح القلعة والجند في نصرتهم ، فأنى للعائد من الحجاز على فتور عزيمة ان يقاوم هبوب الاعصار ؟

وما ترددت في العودة الى قاعـدة ولاية صيداء . وأدهش ظهورها في القلعة فيروز سيدة الحرم فصاحت بها : ألا ما يدفعك أبـداً الينا يا جؤذر وأنت فينا بين ذهاب وأياب ؟... أما ينفك الشهابي يطمع فينا ؟

فضحكت جؤذر وقالت : ومن يبصر مولاتي ولا يطمع في تباشير الصباحة الساطعة في كل جارحة منها ؟... على أني رجعت اليكم في ما لا يقل خطورة عن هيام الأمير بك ودعوتك اليه. فهو يذيع في مسمعك ومسمع سليم باشا انـه يعضد كل جهد تقدمان عليه للاستئثار بالأمر في عكاء . ولن يبخل عليكما بكل ما تملك يمينه في الرجال والأموال !

فارتاحت فيروز الى العرض السخيّ . وباتت تجد في قاتل أُختها ناصراً أميناً . ونادت سليم باشا . فليسرع . وقالت له وهي تشير الى جؤذر: ألا تعرفهـــا ؟... هي وصيفتي بالأمس . وقد أقبلت اليّ من لدن الشهابي أمير لبنان تجاهرنا بكون سيدها في عوننا اذا ما شئنا ان نزحزح أحمد باشا عن أريكة الولاية !

فراقته عاطفة الشهابي وما تخلو من لهبة المظاهرة الحقّ. والتفت الى جؤذر يقول ببسمة الشكران : ليس لنا ان نتجاهل مودة سعادة الأمير . فانهـا لترشح بصدق الطوية . ولن نغفل عن الاستظهار به في الشدة . ليكن على أهبة لآزفة النداء !

ودعاها الى إبلاغ مولاها الثناء الجمّ . فهو حليفه على الشانىء الزنيم .

فما ان تضطرم النار حتى يدعوه الى صبّ الزيت عليها . ليتريث وليتربص ولكن وهو يخفي نياته . وأبى سليم باشا ان يشيع عنه إنه يكيد لمولاه . فالحنكة تهيب بـه الى السعي في الخفاء لبلوغ الشهوة المستطابـة . وأدار الامور في ولاية صيداء كأنه الجزار نفسه. فساس بالشدة والحزم والدهاء. ومـــا ابتغى في قرارة ضميره الا ان يبقى ذلك الوالي ، ولا كان الجزار الخبيث الريح ، الكريه الفطرة ، الداعر المقال !

١٣

مواكب الحجيج قفلت الى دمشق تنشر بنود الصفاء والجزار لا يفتأ يقودها طليق المحيا ، منتفخ الصدر . صانها من غائلة الصحراء وعاد بها على سلامة وكرامة

وبدا له الشيخ سعد الخوري في قلعة دمشق في غثاثة الكسير الشوكة ، الزاحف الى القبر ، فما تماسك عن الاشفاق . ومال على أبي غندور برفق من سكنت فيه حفائظه يقول بصوت رؤوف ، وئيد: لك ان تعود الى قومك ووطنك يا شيخ سعد وما أراك تقوى على احتمال الضنى. بذلت لأجل أميرك مهجتك وألقيت عليه أمثولة بليغة في الوفاء ما أشتهي الا ان يتعظ بها . فيؤدي ما بقي عليه من الألف الألف وليس يزيد على مائة وخمسين الفاً . أخليت سبيلك . فاذهب بسلام !

وعفا عنه . إلا أنه عفوٌ أقبل ساعة لا يرجى معه بقاء. فالتداعي استحكم من ابي غندور وكلّت خبرة ذوي النطس عن درء عادية السقم. فمات من أخلص لأميره بعد أيام قلائل من براحه الأسر، وحلّ ابنه غندور في منصبه لدى الشهابي أمير لبنان . وغندور مانع في أداء ما يطلب أحمد باشا من بقوى الالف الالف . قال بنفرة الناقم : بهذه المائة والخمسين نستطيع ان نمضي ثلاث سنوات في محاربة الجزار !

وقعد بأميره عن التلبية . ليس لوالي صيداء ان يقشّ الزرع والضرع . وفي نفس غندور حقد على الجزار وهو الطاغية التيّاه. فما كان للشيخ سعد، أبي غندور ، ان يكابد المهانة ويخترمه الموت لولا الوالي الكافر الفتّاك.

والأمير جارى مستشاره في النكث . فطالبه الجزار بالمال فتصامّ عنه . فتلظى أحمد باشا سخطاً ونفر الى المناكدة . فتحداه الشهابي . للسيف ان يعلن كلمته القاطعة

وأوفد الأمير الى مماليك الوالي من يحرّضهم عليه . ليثوروا ولهم من لبنان أمنع عضد . وعاد يطلق جؤذر الى فيروز . قال يحضّ الوصيفة على نشر الفتنة في صرح عكاء : أبلغي فيروز يا جؤذر ان ساعة التقويض حانت . لتدفع سليم باشا الى العصيان والولاية لهما معاً . فليس ما يحول دون زواجهما وركوبهما مقعد السلطة وقد تحررا من الجزار !

وجؤذر ، وهي المضطغنة على الوالي الأجنف ، لم ترهب المسير الى عكاء والجزار فيها وقد أزمعت محو هذا المتغطرس الحانث في الذمة. فانسابت الى الصرح كالافعوان وبدت في حجرة فيروز تقول بهمس : مولاتي ، سعادة الأمير يدعوك الى اشعال اللهب والقضاء على الجزار . هذا موعد الكسر والطحن . جميع قوات لبنان في نصرتك . فاحفزي سليم باشا الى المناداة بالثورة وتمتعا معاً بالسؤدد والرغد !

وفيروز تجنح الى هذه الشهوة. وكان لها عنها وسليم باشا حديث مستفيض . قالت تعالن الوصيفة بما أقرّت وخليلها: اتفقنا على زحزحة المقيت يا جؤذر. سيثور عليه المماليك عندما تخلو القلعة من جنده الواثب لمقاتلة الشهابي . ولقد أقسموا على اجتثاثه والمناداة بسليم باشا والياً . فليطمئن أمير لبنان وليثبت في النزال !

فاستفهمت جؤذر وهي تلتفت بعين طروب الى سيدتها وقد رضيت عن فلاحها في مهمتها : وهل عاهدك سليم باشا على الزواج يوم يجلو عن الصرح أحمد باشا ؟

فابتسمت فيروز . أيحتاج الأمر الى عهد والمملوك سليم لا يعرف صفاء البال اذا حردت وأشاحت ؟... قالت باعتداد الواثق بوطيد سلطانه : أنا وسليم باشا على مكين الوئام يا جؤذر، فلا تقلقي علينا. وجلّ ما أريدك عليه ان تبلغي أمير لبنان ضرورة الرسوخ في المناضلة كي يفسح لنا الى النجاح !

فلملمت جؤذر نفسها وودعت وهي تقول برحيب الأمل : الى اللقاء اذاً يا مولاتي . سنبذل هناك من وطيد السعي ما يتكافأ وما تبدون منه في هذا الصرح . ولنحذر جميعاً زلة القدم !

بيد انها لم تشعر بسوى يد تقبض عليها وبصوت كالرعد يقصف في مسمعها : يا ابنة الخبائث ، هل عدت ؟.. ألا بماذا جئت الينا ؟... ما أراك الا ساعية للشر . أبصرتك وأنت تنسابين الى الحريم كالصلّ وأقمت أترصدك . في مَ تطلبين الى فيروز ان تحذر زلة القدم ؟

وكلماتها الأخيرة سقطت في أذنيه. هذا أحمد باشا الجزار سيد عكاء وقد تبينت فيه جؤذر غلاظة ترجح ما كانت تعرف فيه من خشنة. فابيضّ شعره. ورقّت سمنته . واستفاضت جبهته غضوناً . وقست ملامحه فذهبت عنه مسحة البهاء. ونسجت فيه الشيخوخة سماتها فأضحى شبح الموت الخطّاف لا مثال الانسان. فارتجفت الجارية حتى كادت تقع في الأرض وباتت ببياض الكفن. لم يبق لها إلا ان تموت . وجحظت عيناها وانعقد لسانها . وأحست بشفرة الفأس المسنونة تفرعها . قال الجزار وهو يقبض على خناقها ويكاد يختلس روحها : أجيبي . أي زلة قدم تهيبين بفيروز الى التصوّن عنها ؟

فخذلها النطق. فصاح أحمد باشا وهو يشهر عليها فأسه : هلا أوضحتِ، لا أم لك ؟

وأدنى من جبينها الفأس الباردة اللهوم. فهبّت اليه فيروز تقول بشدّة: دعها . إنك لتروّعها . أهذا هو احتفاؤك بمن يقبل الينا ؟

فجلجل : لاقتلنّك واقتلنّها. إن لم تفضيا اليّ بسركما فودعا زمنكما . ما أقبلت هذه الأفعى الينا لسوى نفث سمها. فماذا تكيدان لسيدكما ؟... أرى القلعة قد أمست في غيبتي وجار ذئاب. ليسفك الله دمي ان لم أسفح دمكما!

وهوت ضربته على رأس جؤذر وهو يزعق: تكلمي يا ابنة النجاسة وإلا أتبعت الضربة اختها !

فصاحت الجارية صيحة الألم الحادّ تملأ القلعة بولولتها : قتلني ، قتلني !

فضحك ضحكة المستهين بزعقتها وقال هازئاً : وبمن تستجيرين ؟... هل من يظاهرك على سيد هذا الحصن يا غادرة ؟ . . . ألا تكلمي وإلا أوديت بكِ !

فاشتد بفيروز الحنق ونبرت تتوعد : دعها ، دعها والا ناديت جميع من في الصرح لانقاذها منك . فأي شأن لك فيها ؟

فمشى اليها مزمجراً : هل اشتهت نفسك الموت يا فاجرة ؟

ففرّت منه تنشر الفتنة في الحصن صارخة : أيها المماليك ، الينا، الينا. انقذونا وانقذوا أنفسكم من الجزار . لقد وقف على الخفايا !

فهال الجزار ما يسمع . مـاذا تقول امرأته الاولى ؟... وشاء القبض عليها فظلت تتناءى عنه وهي تصيح بالمماليك وبالجواري : النجدة ، النجدة. افتضح لديه أمرنا !

وأبصر أحمد باشا المماليك ينطلقون اليه من أبواب حرمه وتتلوهم الجواري. فاستكبر الاستطالة . هل أصبح حرمه دار فسق ومعصية فتواطأ مماليكه

وجواريه عليه واستباحوا انفته ؟... وهجم عليهم بفأسه يحطم بها كل من يلقاه منهم غير راحم ولا متئد. فهو في ثورة جارفة ضاعت بها نهيته. وسادته شهوة التقتيل والابادة وقد فار فيه حسّ الانتقام لشرفه ومكانته . وودّ لو ملك مائة يد وذراع ليحصد جميع هذه الرقاب دفعة واحدة . وتخضّب بالدم . وفار كالمجانين في غلواء المسّ . وضرب ذات اليمين وذات اليسار وقد عمي. وتجرأ بعض المماليك على مجابهته فنثرهم ومن حولهم من الجواري في رحبة الحرم كالرضراض . فاستعاد عزمات شبابه في المصادمة وبات يصول في مسلخ زاخر بالاشلاء . وتساقطت الجثث فوق الجثث على صيحات : ليمتْ الجزار !

واصطبغت الارض بالنجيع . واستظهر الوالي برجاله . ونادى المماليك بعضهم بعضاً . وهب الفريقان يتنابذان ويتطاحنان . فالمماليك والجواري يطالبون برأس الجزار ، والجزار يطلب رؤوسهم جميعاً

وعزّ عليه ان يصاب بالامتهان ، وان يخونه خدمه في نسائه ، فبلغ منه الحنق مبلغ الاختناق ولم تكن أنفاسه تتصاعد بسوى جهد من لفائف صدره. وخشي ان ينهار وقواته تقاتل الشهابي وليس لديه في القلعة فئة تكفيه قمع العصيان ، فبذل الوسع في النجاة من الفتنة الحطوم مجاهداً في درء الويل

وانقضّ المماليك على الوالي الغائص في الدم يرومون افتراسه وقد نفروا بأجمعهم للنصرة فروّعوه . ففرّ منهم فأطلقوا عليه النار. وأوجعهم ان يخطئوه وهو اذا بقي حياً أفناهم جميعاً . وأيقنوا ان السلامة غير مكتوبة لهم في القلعة وقد هلك فيها رهط منهم ، وسيهلك من بقي لدن ترحف الى الجزار النجدات . فبرحوها يستصرخون هامتهم سليم باشا الثاوي بحاصبيا

لتهييج حاكمها الشهابي على نسيبه الأمير يوسف حاكم لبنان. فهتف سليم وهو يبصر رسلهم بين يديه يستعدونه على الذئب الهائج : ولكن ماذا حلّ بفيروز، هل نالها الأرعن بسوء ؟

قالوا : ما زالت تقاومه . على أنه أودى ببعضنا وبالعديد الضخم من الجواري وقد تجلت له معاصينا !

فارتعد سليم باشا هولاً . هل افتضح الامر ؟... وومضت في باصرتيه الهلكة المتوعدة فصاح بمن حوله من الجند: على الغاشم اذاً. أين بسالتكم؟.. جثث الأبرياء تستنصركم لانقاذ من يستوي على رمق من ضحايا الظلم . هبوا لمحو من يستقوي على النساء !

والجند مؤمن بسليم باشا، مخلص له . نافرٌ من الجزار، كاره لعهده . فمشت الكتائب الى قلعة عكاء تطوّقها . واستعان سليم بصفيّه المملوك سليمان باشا وكان في صيداء . وأحاط الرجلان بأسوار عكاء يبتغيان دكها

ودرى الجزار وشعر بالرهبة . إنه لعلى إصفاء من الرجال ولن ينقذه من الزاحفين اليه غير حظ غلاّب لا ينعم به غير الموهوبين السعداء . ولم يعرف في عمره الطويل من الساعات الحرجة ما ذاق منها في ما يتقلب فيه من موقف طامس، طاحن. فالعصيان في نسائه وفي جنده . وأحسّ بفدح العبء وكاد ينوء به . إنه لفي خطوة فاصلة لم يكن يرجو منها الخلاص بروحه . على أنه لاذ بالحيلة. سيوهم هؤلاء المنتشرين حوله لسحقه ان النجدات هرعت إليه وقد اضحى منها في حفل لجّ . وما انتشر الظلام على القلعة، وأوشك محاصروها ان يلجوا ابوابها ، حتى انفجرت أحشاء المدافع بزئير راعب زادته سكينة الليل دمامة واستفحالاً . فهلع العصاة وما رقبوا هذه المفاجأة

الصادعة . وتراءى لهم ان الوالي ليس على املاق في الكماة كما ظنوا . وتطايروا يشمّرون في الهرب وشبح الجزار الناقم،الحقود، يمعن في تشريدهم وقد خيل الى كل منهم ان أحمد باشا بنفسه يقتفي خطوهم وقد أوشك ان يدركهم . فالوالي الرهيب ما زال ينشر في النفوس الهول

وقهقه الجزار ومن حقه ان يقهقه . نحر النحس في كبده بعدما استشرى حتى كاد يطيح . والتفت الظافر المحظوظ الى هؤلاء المتسابقين في الهزيمة وهو يكاد يستلقي على قفاه لفرط كركرته . ما اوهى عودهم وأضعف حلمهم وقد وقفوا ازاءه يستعلون عليه . أيحسبون أنفسهم في مناعته ؟

ومال على فيروز وجؤذر والحاج نصرالله يهزّ فوق رؤوسهم فأسه . ما حمل جؤذر على ارتياد القلعة ومن ساقها الى مناجاة فيروز ؟ . . . وجؤذر ما فتئت تعيش وما اودت بها الضربة . إلا أنها اعتصمت بالصمت . ليقتلها الوالي المنتقم . قالت : طاب لي مرأى مولاتي فيروز فحبوت اليها !

فهدر أحمد باشا لا يؤمن بالعذر القائل : مرآها لا يدعوك الى تحذيرها من زلة القدم . فماذا قادك اليها ؟ ... تكلمي وإلا أجهزت عليك !

وعاد يشهر الفأس ويتوعد الثلاثة معاً،الحاج نصرالله وفيروز وجؤذر . ولم يجد الحاج نصرالله محيداً عن الكلام فقال يلاين صهره الموتور : رفقاً بنا يا سعادة الوالي ، جؤذر ركبت مركباً وعراً في زحفها الى عكاء . غير أنها ما أقبلت من تلقاء نفسها ، بل دفعها اليها الأمير الشهابي !

فزعق وقد عمي عن كل صواب : أأزجاها الينا ذلك المنافق الأبله؟.. والله ، ما يبدر الشر من سوى الحمقى . أراهن ان الأمير يوسف أوفد هذه الشقية لنشر الفساد فينا . فهو من دعا الى العصيان والمعصية في عكاء !

فهتفت فيروز : لا ، لا !

وجارتها جؤذر في القولة . فالشهابي بريء من الدس . غير ان الحاج نصرالله نفى هذه البراءة. وأتهم الأمير بالسعي لبذر بذور الشقاق في الحصن. قال لا يتقي الاعلان الحاصد : هو من أرفد النار بأكياس الحطب فزاد في لظاها !

فضاع الجزار عن كل هدى . وفلعت فأسه هامة جؤذر بضربة كاسحة وهو يدمدم على الجارية المتشحطة بدمها : الى النار يا ابنة الاثم والضلالة . ما أنت الا فاسقة بنت فاسقة. أتخونين عهدي لتحالفي ذلك المشؤوم خصمي؟.. والله ، لن يبقى منه خبر . حرصت عليه حتى الساعة إلا أني الآن هدرت دمه. سأسخو به على الموت كما سخوت عليه بك . وأنت يا فيروز، أتميلين الى اللحاق بهما؟... إني لمؤمن بانك تواطأت عليّ وجميع هؤلاء الانكاد. ولولاك لما تجرأ مغامر على العبث بحميتي. ولكنك مشيت في طليعة المتقابحين فشاع في الصرح الدنس ولطخ سمعتي ومشيبي. لا والله يا ابنة الحاج نصرالله، لن تعيشي. كتبت بيدك مصيرك. أتنادين بمقتل الشهابي وأنت له من الأصفياء؟

وعادت الفأس تعلو للشدخ والبتر . على ان الحاج نصرالله أمسك بيد الوالي الغضوب صارخاً به بصوت حانق مستعطف معاً: ألا ماذا تحاول من نكر يا صاحب السعادة؟... هذه فيروز ، أحب نسائك اليك !

فمال الجزار الى الافلات من قبضة حميه . غير ان الحاج نصرالله ملك العزم الطاغي وحال دون انقضاض أحمد باشا على فيروز العابثة بالشدة الصيّاحة في زوجها وقد عرضت له صدرها هاتفة به : اقتلني. اقتلني . فالحياة بقربك أصبحت ذلاً . لو كنت أدري انك لا ترعى ليمينك حرمة لبقيت منزوية في

« أفيون قره حصار » لا اكلف نفسي هذه الشدائد الهوج !

فصرخ بها أبوها : هلا خرست ؟... ليس لسعادة الوالي ان يجري في السياسة كما يشاء دلالك وثمة فروض تقدر عليه التريث في الانجاز . أما الآن ...

فقصف الجزار : أما الآن فسأسفك دم الخائنة وقد سفحت عرضي يا حاج نصرالله !

واستطاع ان يدفع عنه أباها وان يثب عليها وفأسه ما تزال ملطخة بدم جؤذر التعسة . ولم تفرّ منه فيروز ، ولم ترتعد ، بل ظلت واقفة مكانها عارضة صدرها وقد أزرت بالموت ورغبت في النأي عن عيش ما لقيت فيه غير المضض . ورفع الجزار يده ليُحكم من صدر امرأته فأسه، فصاحت فيروز وقد تصاعد الدم الى وجهها فاحمرّ واتسع اشراقاً : ألا اضرب ، اضرب وانقذني من حياة باتت لديّ فواجع ونوازل . فما هنئت لديك بيوم سنيّ!

وتفجرّت مدامعها . ووقفت يد الجزار لا تهوي بالضربة . فضنّ الوالي الهائم بالحسن المائل ازاءه ان يغيب عنه ويأكله التراب. ونزعت منه الدموع كل ضغينة وبغضاء فتحامى البطش . وارتخت بالفأس يمينه فاذاع بصوت لا ينفك يتهدج ، الا ان كلماته برئت من شهوة التقتيل : ابتعدي عني والا طويتك للعدم . أتكونين امرأتي أم أنت عدوتي وقد حالفت خصومي عليّ ؟... فأي أمل لي بك وأنت تناصرين الشهابي على من حباك المجد والخفض ؟... عرفتك تميلين الى محو هذا الكنود فما بك تمدّين اليه يداً ؟.. ألا غيبي عني لئلا تعاودني نزعة الانتقام فادفعك الى القبر !

فما برحت تبكي . وتشفع فيها أبوها يقول : ارحم ضعفها . حنينها

الى الانتقام من قاتل اختها فلقل خطاها. فليست تلمّ بقواعد السياسة لتدرك ان الأمور مرهونة بأوقاتها . خيل اليها أنك ستقضي على الأمير يوسف ساعة نطلّ على هذه الأرجاء !

فهتف : اليوم حان قتله يا حاج نصرالله وسأمزق جلده باظفاري . لست أحمد باشا الجزار ان لم أطرحه للحشرات تنهشه وتفنيه. أما فيروز فما أزال أحفظ لها في حناياي بعض الكلف ، وهو ما وقاها الموت . فاني لاعفو عنها على رغمي !

فانحنى بين يديه الحاج نصرالله وقبل الأرض. وأكره ابنته الناشزة على الاقتداء به وشكرا سماحة الوالي الواهب المانع ، والمحي المميت. وأطلق الجزار قواته الى لبنان تناوىء الأمير يوسف مناوأة المحق الكاسح . فلا حلم ولا مهادنة . بيد ان الأمير يوسف أحرز الغلبة وقد انضم اليه المملوك سليمان باشا بخمسمائة مقاتل. أما سليم باشا فسلك طريق استانبول يتجنب فيها نقمة الجزار

وغاظ والي صيداء ان يتقهقر فأردف كتائبه بمن ينجدها في المصاولة . وقهر الشهابي وأعياه . وأحسّ الأمير بضعفه حيال القرم العنيد فجمع أكابر أهل الرأي ونادى بعجزه وطلب ان يتنحى . واختار الأمير بشيراً ليسير الى الجزار في التماس الامارة لنفسه . وأفلح الأمير بشير على لدونة عوده وغضوضة إهابه. وعاد الى دير القمر يجرر خلعة الامارة الوارفة ، الباذخة ، الفضفاضة الأذيال

والسنة سنة ١٧٨٨ ، ولبنان اجمع أحس بان في الجو غيوماً تنذر بدنو اجل الحاكم المخلوع. غير أن الأمير يوسف أبى ان يقضي أيامه منبوذاً، مكدوداً ،

بعد العز الغضير . فندم على انتداب الأمير بشير لأريكة الامارة وناكده. بل هو وثب الى عكاء يعرض على الجزار مائة وخمسين كيساً في الشهر ، وابنه والشيخ غندور رهينتان . فقال أحمد باشا وفي نفسه موجدة سبوح على ابن سعد الخوري : وأين الشيخ غندور يا سعادة الأمير ؟

ومال الى القبض على هذا المكابر في أداء بقيا الألف الألف. فناداه الأمير يوسف "من الضنية وقد عاذ بها. ووعده بالأمان فامتثل. وما أمسى في قبضة أحمد باشا حتى هدر الجزار : اين الأمير بشير الآن ؟

ونهد الى الاستثمار وما فتىء الدينار معبوده . سيساوم بالامارة اللبنانية حتى الرعشة القاضية من عمره . فما دام الأمير يوسف يؤدي في الشهر مائة وخمسين كيساً فعلى الأمير بشير ان يزيد كي يبقى . والأمير بشير رهب انقلاب الجزار فهفا الى عكاء يجتذب المقعد الوثير . إنه ليبذل عنه في الشهر مائتين وخمسين كيساً . فهتف الجزار وقد أيقن ان الاستزادة ضرب من المحال : إذن فالامارة لك بلا منازع أيها الهمام !

وأعاده الى دير القمر على عز سامق ومجد خصيب . ولكن الأمير بشيراً ألح" في الخلاص من الغصة الممسكة بفؤاده . فلن تواليه الدعة الا والأمير يوسف يغور في الثرى . فكتب الى الجزار يقول: ليس لي ان أجمع ما عاهدتك عليه من مال الا وقد أيقن أنصار الأمير يوسف ان سيدهم في فوهة الردى ، والا عكروا علي" الامن والصفاء !

فأجاب أحمد باشا بمستطيل المسرة: سأزيحه كرمى عينيك عن مطمئن البقاء ، فابشر وانت بوفاء !

وأطاح الشيخ غندوراً وهو يقهقه كأنه في عرس. وأتبعه الأمير يوسف وقهقهته الطنّانة تملأ عكاء من بسطة البر حتى فسحة الماء. فتدلى الأمير يوسف على الأعواد كأنه من الخثالات . عاش في قلق ومات في ذلة

واطمأنت فيروز . وترنح ابتهاجاً الحاج نصرالله . أدركا الأمنية العصيّة بعد مرّ الكفاح. وتوقلا الى دير القمر على وافر الاعتزاز والاشتفاء، يبللان تراب نسل شاه، في مدفن القمة، بدموع العزاء والرضوان

تمت

•

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

...es
...ary
New York
University

NYU - BOBST
31142 03292 6654
PJ7842.A68 Q3 1951 Qahqahat a